السّـيرة الرّوحيّة

للأب الياس (مرقص)

قدّم لها

سيادة المتروبوليت سلوان (موسي)

راعي أبرشيّة جبل لبنان

وضعها الأرشمندريت توما (بيطار)

فصح ٢٠٢١

السّيرة الرّوحيّة
للأب الياس (مرقص)

قدّم لها سيادة المتروبوليت سلوان (موسي)
راعي أبرشيّة جبل لبنان

وضعها الأرشمندريت توما (بيطار)
رئيس دير القدّيس سلوان الآثوسيّ
دوما - لبنان
فصح ٢٠٢١

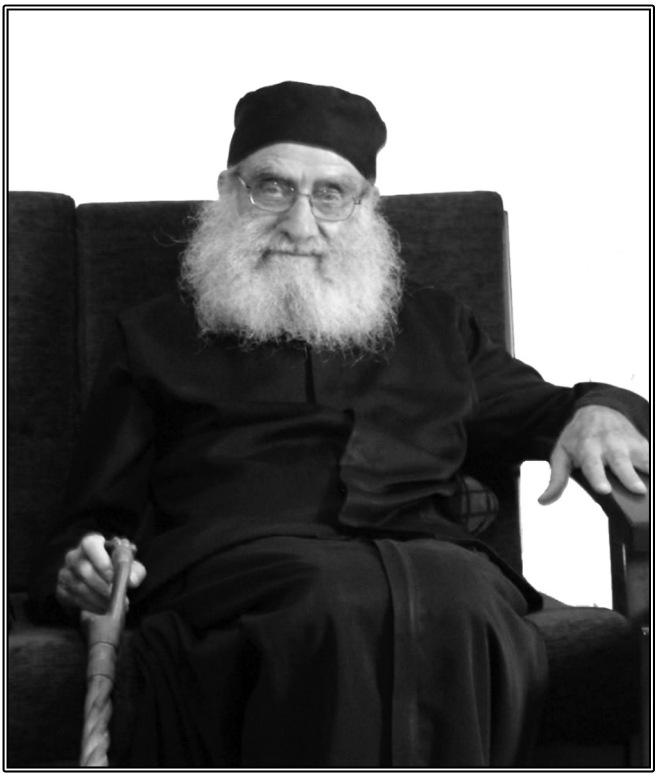

يوزّع الكتاب مجّانـًا

يُطلَب من دَيْرَيْ:

القرّيس جاورجيوس - دير الحرف

(٠٥-٣٨٠٤٤٠ \ ٧١-٢٦١١٦٢ \ ٧٠-١٨٥٨٦٤)

والقرّيس يوحنـّا المعمدان - دوما

(٠٦-٧٨٠٠٤٣ \ ٠٣-٨١٢٥٥٩)

*

المقدّمة

خميرة العاجز المقتدر بين طاحونة وفرن وقربان

"لأنّكم قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في اللّه" (كول٣: ٣)

في هذا الكتاب، نحن أمام خبرة كتلك الّتي لمسناها في القرن العشرين مع الأرشمندريت حينها، واليوم القدّيس صفروني سخاروف (+١٩٩٣)، في علاقته مع القدّيس سلوان الآثوسيّ (+١٩٣٨). لقد شاء الأوّل أن "يقدّم" الثّاني إلى العالم، عبر نشره كتابًا يحمل سيرة حياته ومدوّناته الشّخصيّة، مع "مقدّمة" تشرح للقارئ ما يمكن أن يخفى عليه بداعي بساطة تعبير القدّيس سلوان وتواضعه الكبير.

واضع هذا الكتاب صار راهبًا على يد القدّيس صفروني في العام ١٩٩٠[١]، وهو يحاول، على حدّ قوله، مدفوعًا من يد خفيّة تحرّك قلمه ووجدانه بآن[٢]،

[١] المقالة الثّالثة.

[٢] راجع المقالة بعنوان "المحطّة": "أكتبُه، إذا جاز التّعبير، أو ملاكه، إن كان هو فعلاً مَن يدفعني إلى الكتابة، ويرافقني فيها، فسأستمرّ، ومتى نضب ينبوع الكلام أتوقّف".

أن يكتب عن "الوجه الّذي أضحى عرّابه إلى معرفة وجه يسوع المسيح"[٣]. يكشف لنا عن أحشاءِ مجاهِدٍ في الخفاء، بعيدًا عن أعين الخليقة، حتّى "غيَّب نفسه" و"جعل نفسه نسيًا منسيًّا"[٤]، وباتت، اليوم، حياته "مستترة في اللّه، في المسيح يسوع" (كول٣: ٣). إنّه الأرشمندريت الياس مرقص، رئيس دير القدّيس جاورجيوس – دير الحرف، في هذه الأبرشيّة، ومؤسّس رهبنته منذ العام ١٩٥٨[٥].

التمس الأب توما، بالخبرة والتّمثّل الدّاخليّ[٦]، وتجرّأ فوق طاقته[٧]، أن يحدّثنا عمّا عاينه داخل قلبه[٨] من جهاد الأب الياس، ويساعدنا على مقاربة مواقفه ودلالاتها الدّاخليّة، عن معنى جهاده ونموّ حياته في المسيح، عن الحقيقة الّتي تتجلّى في حياته في سيرورتها، عن إشعاعها ومداها. باختصار، يحدّثنا عن نعمة موجودة بيننا، حيّة ومحيية، معروفة ومستمرّة.

---

[٣] المقالة الأولى.

[٤] المقالة الأولى.

[٥] المقالة الثّانية.

[٦] راجع المقالة الثّامنة: "رجال اللّه لا نفهمهم ولا نفيد ولا نتعلّم منهم إلاّ إذا أحسسنا، في عمق كياناتنا، بما أحسّوا ويحسّون هم به بقوّة. تلاقينا وإيّاهم، في مستوى القناعات والعواطف والأفكار وحدها، لا قيمة له".

[٧] راجع المقالة بعنوان "من الميلاد إلى الميلاد": "أنا مُدرِك، يا شيخ الأحبّة، أنّي، في مواضعَ، تجرّأتُ! قلتُ ما هو أكبر منّي".

[٨] راجع المقالة الثّامنة: "رأيتُه في روحه كما لم أره من قبل. كان فيّ ولم أعرفه. كان ذلك في أسبوع ميلاده، هذا العام. (...) ألفيتُه فيّ وأنا فيه، منّي وأنا منه".

لقد فرحتُ أنّ المقالات تصدّرتها عبارة "التماعات أنطاكيّة"[٩]. فهذه العبارة ثمينة جدًّا، لأنّها تعزّي كلّ إنسانٍ باحثٍ ومحتاجٍ وفقيرِ الحالِ، ولربّما يعيش في وحدة وضيق وغربة، أو يتخبّط في اضطراب وإحباط. فتصير هذه العبارة، بالنّسبة إليه، بوصلةً باتّجاه منارةٍ يهتدي بها في ضياعه وحيرته، أو نبعٍ يستزيد منه في جوع وحرمان، أو روحٍ يتعزّى بها في مسيرة كفاح ونضال، أو وجهٍ يستنير به في البحث عمّن يتعهّده في قلقه وهمّه وخطاياه، أو شفيعٍ ليثبت في الرّجاء بعد أن وجد طريق الشّفاء. هذا ممكن، لأنّ الأب الياس حمل هموم الآخرين وما حمّل أحدًا همومه[١٠]، ولأنّه مات ليحيا ويُحيي[١١].

يحدّثنا الأب توما، في مقالاته، عمّا هو ظاهرٍ، أو غير منظور، في شخص الأب الياس. يشرح لنا معنى الإيماءات والدّموع، معنى النّهفات والحرّيّة الدّاخليّة، أشكالَ الجهاد في الصّلاة والفقر والطّاعة والاتّضاع. نحن لسنا أمام تعريف بالرّجل، ولا هي سيرة حياة، بل تدفّقات أسبوعيّة، على مدى ثلاثة وثلاثين أسبوعًا، تُشكّل، للقارئ، دخولاً في سِرّ "رجل اللّه"[١٢] هذا. وقد سلّط

---

[٩] هذه هي ترويسة المقالات المنشورة على الموقع الإلكترونيّ (holytrinityfamily.org) من الأحد ١٢ أيّار وإلى الأحد ٢٩ كانون الأوّل ٢٠١٩، مع توقّف يوم الأحد الواقع فيه ٢٠ تشرين الأوّل، وباستثناء المقالة بعنوان "محطّة" الواقعة بعد المقالة الرّابعة عشرة، والمقالة الأخيرة بعنوان "من الميلاد إلى الميلاد" الواقعة بعد المقالة الواحدة والثّلاثين.

[١٠] راجع المقالة الأولى: "لا يحمِّل أحدًا همًّا، لكنّه يهتمّ بالتّخفيف من هموم الآخرين".

[١١] راجع المقالة الخامسة والعشرين: "كان ينبغي له أن ينقص وللّه أن يزيد، فيه وفي النّاس. هكذا، أضحت شهادته استشهادًا يوميًّا ليَحيا ويُحيي".

[١٢] راجع المقالة الواحدة والثّلاثين: "قدّم نفسه قدوةً لنا".

الأب توما، عبرها، الضّوء على تعليم الكنيسة وتقليدها، من جهة، وعلى واقعنا المعاصر، العالميّ والأنطاكيّ والكنسيّ والمجتمعيّ، من جهة أخرى. فأتى جهاد الأب الياس ليوضح معالم الطّريق الّتي شقّها في حياته، والّتي يدعونا، اليوم، إلى حذو حذوه[١٣].

* * * * *

لقد انكشف الأب الياس بنور جديد للأب توما. ما كان يعرفه على هذا النّحو. إليك كيف يشهد لبداية الأحداث وتتابعها فيه: "بعدما رقد، صار إليّ أدنى إلى تاريخ! (...) احتاج الأمر إلى ثمانية أعوام ليُكتَب بيننا. شيء فيّ، إذ ذاك، استيقظ. رأيته في روحه كما لم أره من قبل. كان فيّ ولم أعرفه. كان ذلك في أسبوع ميلاده، هذا العام"[١٤]. كما يصرّح الأب توما بنفسه، خرج الأب الياس إليه بنور جديد، في حلّة جديدة، في شخصيّة كاملة. أحبّ الكاتب أن يشاركنا في اكتشافه هذا، فجعل الأب الياس حيًّا بيننا، نستأنس النّظر إليه، والتّمعّن في خبرته، والارتياح إلى حضوره، واستلهام أقواله ومواقفه، واستعادة الكثير ممّا كانه ولم ينتبه له معاصروه.

أُولى لآلئ الأب الياس هي دموعه، الّتي شكّلت نور عينَيه، يرى بها الخالق والمخلوق على صورته. سَرَحَت بصمت، في عتمةٍ، في وحدةٍ، في ألمٍ، في معاناة.

---

[١٣] المقالة الثّامنة.

[١٤] المقالة الثّامنة. بـ"هذا العام" يقصد الكاتب العام ٢٠١٩.

وحّدته باللّه وبالقريب على حدّ سواء[١٥]. كانت أفضل عطاياه الخفيّة على الإطلاق.

أمّا لؤلؤة اللآلئ، والّتي من أجلها دفع الأب الياس الغالي والرّخيص، فهي الصّلاة. هذا هو المشروع الّذي انخرط فيه الأب الياس منذ البداية وحتّى النّهاية: "كلّ سعي الأب الياس كان، لا فقط ليصير رجل صلاة، بل ليصير صلاة"؛ "الإنسان مشروع صلاة، أو لا يكون. اكتشف الأب الياس اللّؤلؤة الواحدة الوحيدة الكثيرة الثّمن: الصّلاة؛ فباع كلّ شيء آخر له واشترى تلك اللّؤلؤة"[١٦].

في هذا السّبيل، جمع الأب الياس المتناقضات، حبًّا باللّه وبمن رافقه المسير أو قصده أو عرفه. فاجتمع فيه الذّكاء والتّباله، الحضور والتّواري، الجدّيّة والمزاح، الصّمت والكلام، وقد بلغ فيها التّوازن الصّحيح "بين الإلهيّات والإنسانيّات في روحه"، وذلك بفضل "الاتّضاع والانكسار أمام اللّه، والصّلاة، والدّموع"[١٧]، كما استشرف ذلك الأب توما من علاقته به. وهذا حصل بتعب، وتضييق على الذّات، سعت المقالات لتضعنا في أساسه، وأرشدتنا إلى روح الأب الياس المجاهدة دون كلل أو هوادة. هذا نتلمّسه في حديث الأب توما عن

---

[١٥] راجع المقالة التّاسعة والعشرين: "دموعك، يا أبانا، تُحدّث عن اتّحادك بالنّاس، كلّ النّاس، عن شموليّتك"؛ وأيضًا المقالة الخامسة عشرة: "تأتي الحرّيّة، كحالة كيان، فتتحوّل الدّموع، إذ ذاك، من دموع للتّنقية إلى دموع لمعاينة وجه اللّه. (...) لا حرّيّة، في العمق، إلاّ حرّيّة الدّموع الّتي يطفر فيها المُجِدّ من دموع المشاعر إلى دموع التّوبة إلى دموع الشّكران. (...) بهذا المعنى، وبهذا المعنى فقط، بلغ الأب الياس الحرّيّة الحقّ".

[١٦] المقالة التّاسعة والمقالة الثّامنة عشرة.

[١٧] المقالة الخامسة.

درجات الفقر لديه في الانطلاق والنّضج والشّيخوخة[١٨]، ودرجات الاتّضاع في البدء وفي سيرورته حتّى الإذلال الأخير في المرض[١٩]. لقد ضيّق على نفسه ليخلع القميص الجلديّ؛ فيستبين ناصعًا رداءُ المسيح الّذي لبسه في المعموديّة. إليك وصفٌ يُخشّع النّفس يلخّص جهادات الأب الياس الخفيّة وغير المنظورة: "ضيّق على نفسه تضييقًا شديدًا، والتمس وجه ربّه التماسًا عنيفًا. جوع إراديّ، تعب جسديّ، وقوف لساعات، سهر في اللّيل، صوم بقسوة، خدمة بصمت، صلاة، صلاة، صلاة... كم تعب الأب الياس في سيرة الرّهبنة؟ هذا ربّك وحده عارف به. ما نعرفه زهيد. لكنّنا نستدلّ على ما لا نعرف ممّا نعرف: نعرف دموعه وصلاته! الثّبات، بشقّ النّفس، ما يزيد على الخمسين عامًا، في سعي حثيث لإتمام عمل اللّه، خلق لديه إيقاعًا إلهيًّا فجّر فيه الدّموع والصّلاة، فبات مُهيّأ لأن يكون من أبناء الملكوت! أعطِ دمًا وخُذ روحًا"[٢٠].

لا بدّ من أن نستدرك أمرًا أساسيًّا. نحن لسنا أمام بطولة بمعايير "روح هذا العالم". فالبطولة في الأب الياس ليست في مغادرتِه منصبًا رفيعًا، وانقطاعِه عن العالم بترهّبه، بل هي كامنة بالضّبط في انقطاعه عن روح العالم. هذا ما يشير إليه الكاتب بإعجاب وفخر: "المعادلة بين النّسك الدّاخليّ والانفتاح الخارجيّ الأصيل على الآخرين هي الدّرّة الّتي عمل الأب الياس على بلورتها

---

[١٨] المقالة الواحدة والعشرون.

[١٩] المقالات السّادسة، والسّادسة عشرة، والواحدة والعشرون، والواحدة والثّلاثون.

[٢٠] المقالة الخامسة عشرة.

والبلوغ بها حدّ السّموّ! الرّهبانيّة لديه، لأجل المفارقة، لم تكن، يومًا، انقطاعًا عن العالم، عن النّاس، عن هموم القوم، بل عن روح العالم"[٢١].

في العمق، نحن أمام إنسان عاجز! نعم، هو العاجز بامتياز، الّذي يدرك عجزه بالعمق، ولكن لا يستسلم له! هذه هي بطولته. أمام الخطيئة المتجذّرة والمعشّشة فيه وفينا، لم يجد الأب توما صرخة تعبّر عن جوارح الأب الياس أفضل من الّتي سمعناها عند بولس الرّسول، فيستعيرها ويضعها على لسان الأب الياس: "ويحي، أنا الإنسان الشّقيّ! مَن ينقذني من جسد هذا الموت؟ أشكر اللّه بيسوع المسيح ربّنا" (رو٧: ٢٤- ٢٥). وربط هذا العجز ربطًا محكمًا بحالة الأب الياس الكيانيّة، وهي "شعوره العميق بعجزه من غير إلهه"[٢٢]. فاختار إذ ذاك أن يموت كلّ يوم قبل أن يموت، فلا يموت عندما يموت، بحسب المقولة الرّهبانيّة المعروفة. لقد أحسن الأب توما في وصف الطّريق الّذي سلكه الأب الياس وصفًا يُظهر بطولته الحقيقيّة في عيش الإنجيل واتّباع المسيح إذ "عرف كيف يموت"، و"لم يعدْ ثمّة مطرح للموت فيه"[٢٣]. هوذا نموذج يتناول وصف الطّريق الضّيّق الّذي سلكه الأب الياس: "وإذ كان يسير من موت إراديّ إلى موت إراديّ آخر، كلّ يوم، كان يصعد، انحداريًّا، من انكسار ذاتيّ إلى انكسار ذاتيّ آخر، من توارٍ إلى توارٍ أبعد! هذا أعانه فيه

---

[٢١] المقالة السّابعة والعشرون.

[٢٢] المقالة السّادسة عشرة.

[٢٣] المقالة الثّانية عشرة.

وهنُ جسده ومرضُه، فزاده شعورًا بالضّعف فوق الضّعف، وألفى نفسه مسمَّرًا على ما فيه، من موت فوق موت، لا حول له ولا قوّة إلاّ بربّه! كلّ هذا دفعه دفعًا إلى الرّجاء، وزاده اتّكاء على اتّكاء على السّيّد، وتسليمًا له فوق تسليم!"[٢٤]. هذا كان انتصاره الكبير والدائم.

* * * * *

لقد بدأت الصّورة تتّضح أمامنا. نحن أمام الأب الياس الإنسان "العاجز المقتدِر". إنّها عبارة تجمع صاحبَي العلاقة، اللّه والإنسان، في عُرى لا تنفصل. ولقد أحسن بولس الرّسول، انطلاقًا من خبرته الشّخصيّة مع المسيح، أن يصفها لنا بتدقيق. فمن جهةٍ، واقع حضور النّعمة في حياتنا: "فقال لي [يسوع]: «تكفيك نعمتي، لأنّ قوّتي في الضّعف تكمل». فبكلّ سرور أفتخر بالحريّ في ضعفاتي لكي تحلّ عليّ قوّة المسيح" (٢كور١٢: ٩)؛ ومن جهة أخرى، واقع الإنسان الشّخصيّ: "لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفيّة ليكون فضلُ القوّة للّه لا منّا" (٢كو٤: ٧). وهكذا يصوّر لنا الأبُ توما أباه: "كذلك كان الأب الياس؛ يعرف أنّه خاطئ وأوّل الخطأة، لكنّه يعرف، أيضًا، أنّ قيثارة روحه وما كان يصدر عنها لم يكن مبتذَلاً البتّة"[٢٥].

هذا "العاجز المقتدر" تعلّم أن يحمل هموم النّاس على حسب ما أوصى

---

[٢٤] المقالة السّادسة عشرة.

[٢٥] المقالة الثّالثة عشرة.

بولس الرّسول: "احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تمّموا ناموس المسيح" (غلاطية ٦: ٢)، وتعلّم أن يسير معهم حتّى يحقّقوا صيرورتهم في المسيح بتعهّده الكامل لهم وتبنّيه إيّاهم والمسير معهم[٢٦]. في لقاءاته بهم، في الصّلاة والأحاديث والاعترافات وعيادة المرضى، كان الرّجاء يحمله وهمّه أن يلدهم فيه من جديد. هكذا كان نفَسه لكلّ مَن رزحتْ نفسه تحت الأتعاب: "كان يحلو للأب الياس أن يردّد أنّ خطايا البشريّة برمّتها ليست أكثر من قبضة رمل ملقاة في أوقيانوس محبّة اللّه! همّه كان أن يبثّ الرّجاء في النّفوس! مهما عظمت خطيئة القادم إليه، لم يكن يبعث أحدًا على اليأس من رحمة اللّه، في شأنها!"[٢٧]. وبناء عليه، حرص الأب الياس أن يترك لنا وصيّتَين لنجسّدهما: "اثبتوا"[٢٨] و"اشكروا"[٢٩].

---

[٢٦] راجع المقالة السّادسة: "الكلام قلّما كان حلاًّ لهموم النّاس، في علاقة الأب الياس بمُسارّيه، ولو خفّف بعضًا من أثقالهم. الأب الياس، في الحقيقة، كما عرفته وخبرته، كان يتبنّى الآخرين ويتابع شؤونهم بالصّلاة والدّموع والسّؤال والافتقاد أبدًا. (...) كان الأب الياس يبدأ، في تبنّيه للنّاس، بنعمة اللّه، من حيث يكونون، ليأخذهم، برفق كبير، إلى حيث كان يرجو أن يجعلوا ربّهم يتولاّهم بالكامل".

[٢٧] المقالة العاشرة.

[٢٨] راجع المقالة الثّانية عشرة: "لمّا اقتبلنا الحياة الرّهبانيّة، في دير مار يوحنّا دوما، قال لنا، وما فتئ، بعد ذلك، سنين، يردّده، في كلّ مناسبة: لا تخافوا! فقط اثبتوا! اللّه هو الفاعل فيكم! أنتم اقتبلوا فقط!"؛ وأيضًا المقالة التّاسعة عشرة: "قلتَها، دائمًا، مباشرة وبصورة غير مباشرة: مسيح الرّبّ أدنى إليكم، وأيسر ممّا تتوقّعون! فقط اثبتوا على الرّجاء!".

[٢٩] راجع المقالة التّاسعة عشرة: "آخر كلمة كبيرة تناهت إلينا وأنتَ على سرير المحطّة الأخيرة: «اشكروا»!".

طبعًا، هذه الكنوز الحيّة لم تأتِ من العدم، بل كانت فيضًا من نفسِ مَن بذل نفسه حتّى الموت. لم يعرض كنوزه على أحد ولا هو تغنّى بها، لكنّه حرص على أن ينفع الآخرين بخبراته، بصمت وخفر كبيرَين[٣٠]. أخفى جهادَه الدّاخليّ وعملَ الرّوح فيه، لكنّه امتلك بجدارة وسائل تعبيريّة مختلفة في خروجه إلى الآخرين: في التّأليف والتّرجمة، في الاعتراف والاسترشاد، في الأحاديث، في اللّعب والمزاح واللّعب على الكلام والحزّورة، كما يلفت الأب توما نظرنا في معرض حديثه عن ذكاء الأب الياس[٣١].

* * * * *

لا شكّ أنّ هناك الكثير الّذي يمكننا التّوقّف عنده في المقالات. على سبيل المثال لا الحصر، هناك مواضيع هامّة جدًّا يطرحها الأب توما على ضوء حياة الأب الياس وخبرته، نذكر منها: الأبوّة الرّوحيّة والاعتراف والإرشاد، تربية الضّمير والحرّيّة، الخدمة والرّئاسة، العلاقة مع الأخويّة في الدّير، العلاقة مع الرّئاسة الرّوحيّة، العلاقة مع حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة والأب أندريه

---

[٣٠] راجع المقالة السّادسة: "هذا ما زاده قناعة أنّ الرّهبنة ليست في أن تكون غير ما أنت عليه في وجدانك ومزاجك. هذا أنت! الرّهبنة أن تشذّب وتنقّح ما أمكنك تشذيبه وتنقيحه، ممّا يضير، وأن تحفظ نفسك من الشّطط، وتجعل الكلّ برسم البنيان، بنيان ذاتك والآخرين"؛ وأيضًا المقالة الثّلاثين: "كان الأب الياس على حكمة فذّة. والحكمة الحقّ تأتي من المحبّة، وغرضها المحبّة. لا تلتمس الحكمةُ العدالةَ، بمعناها البشريّ. تلتمس البرّ. لذلك، همّها البنيان".

[٣١] المقالة السّابعة عشرة.

سكريما، العلاقات المسكونيّة، العلاقة مع النّساء والأقرباء، علاقة الأب الياس بالأب توما، العلم واللاّهوت، الأب الياس والكتاب المقدّس، مساهمات الأب الياس، خبرات مميّزة من حياة الأب الياس، إلخ. هذا ناهيك عن المواضيع الّتي تشكّل العمود الفقريّ للحياة الرّوحيّة، كالعفّة والفقر والطّاعة والتّواضع وغيرها، والّتي لمّحنا إليها في سياق هذه المقدّمة.

في الحقيقة، انصبّ جلّ اهتمامنا على أبرز ما حقّقه الأب الياس، والّذي دعاه الأب توما "الثّورة على النّفس". فقد أحبّ الأب توما أن نولي هذا الأمر كلّ انتباهنا، لأنّ به منفعتنا الكبرى من عرض مسيرة حياته: "اهتمّ بتغيير نفسه بالنّعمة والتّوبة، ليمدّ بجسده خلاص إلهه! جاهد ليحفظ عفّة نفسه ما يزيد على الخمسين عامًا! لذا، أضحى كاروزًا للثّورة الحقّ الوحيدة في كلّ العالم، إلى سنين كثيرة"[٣٢].

حسبنا أن نكتفي بهذا المقدار، حتّى لا نرهق القارئ بأكثر، تحدونا الرّغبة في أن نفسح له المجال ليكتشف الكثير بنفسه، سواء لم يقرأ المقالات سابقًا، أو إذا شاء الآن أن يعيد قراءتها بنور جديد، بعد أن اكتملت حلقاتها.

---

[٣٢] راجع المقالة الواحدة والثّلاثين: "(...) هذا يجعل ويؤكّد أنّ الثّورة الوحيدة القابلة للنّجاح، بنعمة اللّه، هي الثّورة على النّفس! حاجتنا، في هذا الجهاد، هي، أوّلاً، إلى نعمة اللّه. (...) وحاجتنا، ثانيًا، هي إلى الرّغبة الكيانيّة الثّابتة، العميقة فينا، في أن نصير جُددًا! (...) وحاجتنا، ثالثًا، هي إلى اعتماد الفقر سيرةً على غرار المعلّم! (...) وحاجتنا، رابعًا، هي إلى العفّة! (...) وحاجتنا، خامسًا، هي إلى الطّاعة، طاعة اللّه في مدبّرينا وفي أحدنا الآخر، لأنّ روح اللّه ساكن فينا! كلّ ذلك لأنّ الفقر هو للحرّيّة، والحرّيّة للتّنقّي، والتّنقّي للطّاعة، والطّاعة للصّبر، والصّبر للاتّضاع، والاتّضاع للمحبّة! ثُر على نفسك أوّلاً!".

عند هذا الحدّ، نعترف بأنّ سياق المقالات والعناية الّتي بها سُكبت يدفعاننا إلى القول إنّ ما سبق لا يعدو كونه جزءًا من حياة إنسان دفعها إلينا الأب توما، وقصد بها خيرًا كبيرًا لكنيسته وللعالم. هوذا الأب توما يقدّمه إلينا بهذا الخفر: "حاجة عالمنا، اليوم، هي إلى الإنسان البارّ. الأبرار، لأجلهم، يَصفح ربُّك عن خطايا الأكثرين، ويَسلم البلد في الأزمات الكبرى! في سِفر التّكوين، كان ربّك مستعدًّا بخمسة أبرار أن يصفح عن سدوم وعمورة. (...) حاجتنا، اليوم، إلى البارّ، هي كحاجة المتصحّر إلى نقطة الماء. وحدهم الأبرار ينقذوننا"[٣٣]. نعم، الأب توما يقدّم إلينا بارًّا مولودًا من رحم الكنيسة الأنطاكيّة، والّذي بات والدًا بالرّوح فيها. دفعه إلينا رجاء حيًّا مقيمًا في كنيسته، منارةً تضيء لكلّ أهل البيت. هو للرّهبنة الأنطاكيّة الحديثة "أب"[٣٤]، وللكنيسة الأنطاكيّة "خميرة"[٣٥]، وفي ضمير أبنائها "رجل اللّه"[٣٦].

لكنّ الأب توما لم يندفع ليقول هذا القول، إنّما هو مدفوع ليسلّم رسالة. في قرارة نفسه، هو مستكتَب، وليس مؤلِّفًا. هكذا يعرض علينا قضيّته:

---

[٣٣] المقالة الخامسة والعشرون.

[٣٤] راجع المقالة الواحدة والثّلاثين: "هو أبو الرّهبنة الحديثة، عندنا، في أنطاكية"؛ وأيضًا المقالة العشرين: "دير الحرف، في نشأته، كان وعدًا نبويًّا في أنطاكية المتعَبَة".

[٣٥] راجع المقالة العشرين: "الأب الياس استحال، لأنطاكية، خميرة".

[٣٦] راجع المقالة الحادية عشرة: "رجال اللّه هكذا يتكلّمون. لغتهم واحدة لأنّهم إلى واحد. الأب الياس كان هذا لسانَ حاله، لأنّه سلك كذلك، وإلاّ لا معنى للكلام ولا قيمة. «الكلمة صار جسدًا وحلّ فينا». «لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر»! ولتبقى الشّهادة للّه في أنطاكية حيّة، نابضة بالرّوح"؛ والمقالة التّاسعة عشرة: "كلّ أنطاكية حملتها في اهتمامك صمتًا! لم تترك زاوية فيها حاجة إليك إلاّ تركت عرينك إليها، لتبلسم جراح النّفوس الّتي عبثت بها صروف الدّهر".

"خرج الأب الياس إلى بيت لحم السّماويّة (...). احتاج الأمر إلى ثمانية أعوام ليُكتتَب بيننا. (...) صرتُ كأنّي أكتب أو أرضى أن يستكتبني ذاتَه"، معلّلاً الدّافع وراء كتابته المقالات: "إحساس عميق واحد حادّ يقبض عليّ، أنّ ربّك يشاء لخفيّات الرّجل أن تخرج إلى النّور"، وشارحًا المعنى الّذي اتّخذه احتجاب الأب الياس بعد رقاده، ومن ثمّ انكشافه بعد ثمانية أعوام: "ما انقطع، تدبيرًا وتخميرًا، يعود إلى الوصال من جديد"[٣٧].

لم يتوقّف الأب توما عند مسألة الاستكتاب هذه، بل فتّش عن الغاية من اختباره هذه الحالة. إليك كيف تلقّى أمر المهمّة كما انكشف له: "وهذا يحدث حتّى لأقول لنفسي لا فقط إنّ ثمّة مَن يرافقني في مسعاي، بل إنّه، أيضًا، يرافقني لقصد محدّد، وهو إبراز الأب الياس، بعد أن بقي، بعامّة، مغموراً سنين، في حياته، وحتّى بعد مماته، إلاّ في مناسبات عاطفيّة واحتفاليّة! كأنّ ساعة استحقاق الرّجل قد آنت!"[٣٨]. وأخذ الموضوع منحى جديداً

[٣٧] المقالة الثّامنة. راجع أيضًا ما يرد في المقالة بعنوان "المحطّة": "هكذا بدأت، ثمّ ثبت فيَّ يقين أنّ مَن أكتب عنه (الأب الياس)، أو أكتبه، إذا جاز التّعبير، أو ملاكه، إن كان هو فعلاً مَن يدفعني إلى الكتابة، ويرافقني فيها، فسأستمرّ، ومتى نضب ينبوع الكلام أتوقّف". ويقول في مكان آخر من المقالة نفسها: "كلّ أسبوع أكتب، بنعمة اللّه، ولا أعرف مسبَقًا عمّا سأكتب. (...) من أين يأتي هذا الكلام؟ كأنّ ثمّة، أحيانًا، مَن يُمليه عليّ، حتّى في تفاصيله. (...) متى جلستُ إلى مكتبي ودفتري، أجد القلم يتحرّك بيُسرٍ ووضوح وصحوٍ كأنّ ثمّة مَن يوحي لي بما أقول (...). وأحيانًا، أكتب وأكتب ولا أُدخِل في ما أكتب أيّ تعديل، ما يزيدني يقينًا أنّ ثمّة مَن يشاركني في كتابة المقالة".

[٣٨] المقالة بعنوان "المحطّة".

لديه يوم الإثنين الواقع فيه ١٢ آب ٢٠١٩، حينما، "بين الأرق والنّوم الخفيف والصّلاة"، عاين الأب توما، "ما بين الحلم واليقظة"، أنّه مكلّف مع شخص آخر أن يحمل كأس نبيذ دون أن ينسكب منه شيئًا، الأمر الّذي دفعه إلى تعليل ما عاين على الشّكل التّالي: "خطر ببالي، أيضًا، أنّه إذا كان الرّبّ الإله يريد أن يعلن قداسة الأب الياس فإنّه هو مَن سيعطي كلّ كلمة عنه. وهذا بدأتُ أشعر به تفصيلاً! هذا ليس لأوحي بشيء، بل لأقول الحقّ زُلالاً!"[٣٩]

هل وُفِّق الأب توما في مسعاه؟ هل كان أمينًا؟ لا بدّ من القول إنّه كان نحّاتًا استثنائيًّا. فبينما أخذ الأب توما الإزميل والمطرقة لينحت موضوعه، وجد نفسه أنّ آخر قد نحته قبلاً[٤٠]، وما خرج منه إلى النّور، الآن، في المقالات، إنّما هو بفضل النّحّات الآخر، الّذي سبق له أن اتّخذ من الدّموع إزميلاً ومن الصّلاة مطرقةً، وواضع نفسه، اليوم، كما فعل دائمًا، لكي يصير هو نفسه موضوع حرفته، واضعًا نفسه بين يدَي آخر، فينحته أمامنا ولأجلنا. هكذا بقي الأب الياس أمينًا لنهجه في حياته، وهكذا اكتشف الأب توما عمق الصّلة الّتي تجمعه به، باتّباعه خطاه، واتّخاذه إيّاه قدوة في الحياة بالمسيح. تفرح، عندما تلمس غبطة الأب توما وهو يحدّث، اليوم، الأب الياس ويقرّ أمامه بهذه الحقيقة، وإن فصل بينهما حجاب

---

[٣٩] المقالة بعنوان "المحطّة".

[٤٠] بين الكاتب والأب الياس مسيرة عمرٍ ابتدأت في العام ١٩٦٣، لمّا كان الأب توما في الثّامنة عشرة من عمره، وامتدّت على مدى ٥٨ عامًا، حتّى رقاد الأب الياس يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٣ شباط ٢٠١١. وقد انكشفت هذه العلاقة ببهائها الكبير بعد ثمانية أعوام من رقاد الأب الياس، بفضل المقالات الثّلاثة والثّلاثين موضوع هذا الكتاب.

الموت الواهي: "تعلّمتُكَ! أوليس أنّ ما لمسيح الرّبّ يُؤخَذ بالقدوة؟ [اقتدوا بي كما أنا أيضًا بالمسيح]، على قولة بولس الرّسول؟ بِتَّ مرجعي في الكثير ممّا اعتدتُ أن أفعله وأقوله وأقفه! من شجرتك، بنعمة اللّه، نَمَوْتُ، يا أبانا!"[٤١]

هكذا وصلتنا الرّسالة. من الأب الياس إلى الأب توما، ابنه في الرّوح، ثمّ إلى راعي أبرشيّته، والشّعب المؤمن، وكنيسته الأنطاكيّة! إنّها رسالة منشورة في العام ٢٠١٩ على مدى ثلاثة وثلاثين أسبوعًا، من يوم الأحد الّذي يلي ميلاد الأب الياس إلى يوم الأحد الّذي يلي ميلاد المسيح. ليست سيرة حياة، بل مسيرة ولادة، كما شاء الكاتب أن يوحي من خلال عنوان مقالته الأخيرة "من الميلاد إلى الميلاد". هل قصد بالعنوان تأريخ زمن بدء الكتابة ونهايتها؟ أم بدء سيرةٍ وتجلّيها؟ لنترك الكاتب يجيب بنفسه عن سؤالنا: "في مطلع الكلام، قلتُ قولةَ سِفر التّكوين بشأن آدم: «ملعونة الأرض بسببك. بالتّعب تأكل منها كلّ أيّام حياتك... حتّى تعود إلى الأرض الّتي أُخِذْتَ منها». وفي خاتمته: وكان الأب الياس بَرَكَةَ آدم الجديد لنا..."[٤٢].

أَهذا هو اقتدار ذاك العاجز؟ أم هذه هي براعة ذاك النّحّات؟ أم هذه هي مهارة ذاك المستكتِب؟ أم هو لهيب وجدان ذاك الرّاقد؟ أم هو حنين ذاك الأب؟ لقد غافلَنا النّصّ المكتوب على غير وعي منّا، وفعل فعله فينا،

[٤١] المقالة الأخيرة بعنوان "من الميلاد إلى الميلاد".

[٤٢] المقالة الأخيرة بعنوان "من الميلاد إلى الميلاد".

نحتًا، لكي يصير المسيح فينا كما صار فيه هو، أجمل وأبهى[٤٣]. تبارك اللّٰه!

* * * * *

هل أستطيع أن ألتقط أنفاسي، الآن، وأتنفّس الصّعداء؟ هل يمكنني أن أراجع ما حصل حتّى الآن؟ في الحقيقة، لا يمنعني شيء سوى ما سيأتي. وكيف لي أن أعرف ذلك؟

تستوقفني ثلاث عبارات من وحي المقالات: الأبوّة والولادة والرّوح. إن أحببتَ أن تراها مجتمعةً، فهذا ممكن. من خلال عينَي الابن ترى الأب، وبروح الأب ترى تكوين الابن. أمّا الولادة، فهي مسيرة عمر، مسيرة تكوين ومصيرها. من سيرورة إلى صيرورة! هذه يمكنك أن تتأمّلها في الأب وابنه.

هذا حصل بفضل خبرات ثلاث أُخرى: الطّاحونة والفرن والقربان. رغيف الخبز الشّهيّ، الّذي نأكله، يأتي من الفرن، حيث تتمّ عمليّة شوي العجين. والعجين يتكوّن، بالأساس، من حبّات القمح المطحونة. هكذا، خبرة الطّاحونة وخبرة الفرن مكوّنتان في خبرة صناعة رغيف الخبز، واستطرادًا القربان. هذا ما أخبرنا عنه الابن في استعادة خبرة أبيه في "جامعةِ البرّيّة": "طحين الكلام الإلهيّ كان معجونًا، لدى الأب الياس، بماء الدّموع وعَرَق الأتعاب، مخمّرًا بخمير المحبّة والأمانة للحقّ، مخبوزًا بنار الصّبر والاتّضاع والثّبات إلى المنتهى،

[٤٣] راجع المقالة الأخيرة بعنوان "من الميلاد إلى الميلاد": "همّك كان أن تجعلهم يمسكون بمسيحك، ولا يُخلونه، أو، بالأحرى، أن يمسكهم مسيحُك، بك، والباقي تفاصيل".

ليصير خبزًا لحياةِ جامعة البرّيّة!"[٤٤].

نسيتُ أمر الخميرة! هي محبّة اللّه ودعوته لنا! محبّة مبذولة للمدعوّين الكثيرين وللمختارين القليلين على حدّ سواء! أليست هذه هي الرّسالة الّتي تتركها لنا المقالات بقلم هذا الابن عن مسيرة هذا الأب؟ أليس هذا هو الرّجاء ضدّ كلّ رجاء، الّذي يحرّك الأب بتحريكه الابن مستكتبًا إيّاه؟ أليست هذه هي الدّعوة المرسَلة إلينا لنستكملها، كلٌّ على قدر طاقته، في طاحونته وفرنه، بين مطرقة وإزميل، إلى أن يخرج المنحوت على صورة اللّه إلى النّور، ويستعلن قربانًا مقبولاً على مذبح الرّبّ؟

* * * * *

بودّي أن أساهم بشيء. ولكن، ليس لديّ سوى الشّكر. شكر مَن طلب منّي تقديم مقالاته ومسيرة حياته، أي شكر الأب والابن معًا. أَلعلّي بهذا أفي جزءًا من دَين عليّ؟ لن أستطيع سوى بالشّكر والتّعلّم والطّلب.

أوّلاً، بالشّكر على الإحسان الحاصل عن قرب وعن بُعد، قديمًا وحديثًا؛ وبالتّعلّم، لأنّ الخميرة لا تفعل فعلها إلاّ إذا تمثّلناها في الحياة لنستحيل خميرة بدورنا؛ وبالطّلب، بسببٍ مِن عجزٍ متسمرّ ومدقع، لأنّنا لا نستطيع شيئًا وحدنا.

وثانيًا، بالشّكر على هذه المسيرة الّتي تُحيي القلب؛ بالتّعلّم من صاحبها

[٤٤] المقالة الحادية عشرة.

على الثّبات والشّكر في مسيرة حياتنا؛ بالطّلب إليه أن يرشدنا ويتعهّدنا ويتبنّانا في تحقيقها.

وأخيرًا، بالشّكر على مَن بارك هذا الانطلاق، وعلى مَن رافق هذا السّعي، وعلى مَن توّج هذه المسيرة. بورِكَت كنيسة المسيح بك، يا أبانا الياس! فلنبارك الرّبّ كلّ، حين، على ما صنعتَ وتصنع بيننا ومعنا! تباركتَ، يا أبانا الياس!

في النّهاية، ليس لي سوى أن أستعير من الرّسول بولس هذه الكلمة الأخيرة، فهي تجمعنا. إنّها كلمتك إلينا كما وكلمتنا إليك على ضفّتَي الحياة، ضفّة حياتنا على الأرض وضفّة حياتك في السّماء:

"فإن كنتم قد قمتم مع المسيح، فاطلبوا ما فوق، حيث المسيح جالس عن يمين اللّه.
اهتمّوا بما فوق لا بما على الأرض، لأنّكم قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في اللّه.
متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضًا معه في المجد"
(كولوسي ٣: ١ – ٣).

المسيح قام! حقًّا قام!

في نور الفصح، وفي التّذكار التّاسع والتّسعين لميلاد

الأرشمندريت الياس مرقص.

+ سلوان

متروبوليت جبيل والبترون وما يليهما

(جبل لبنان)

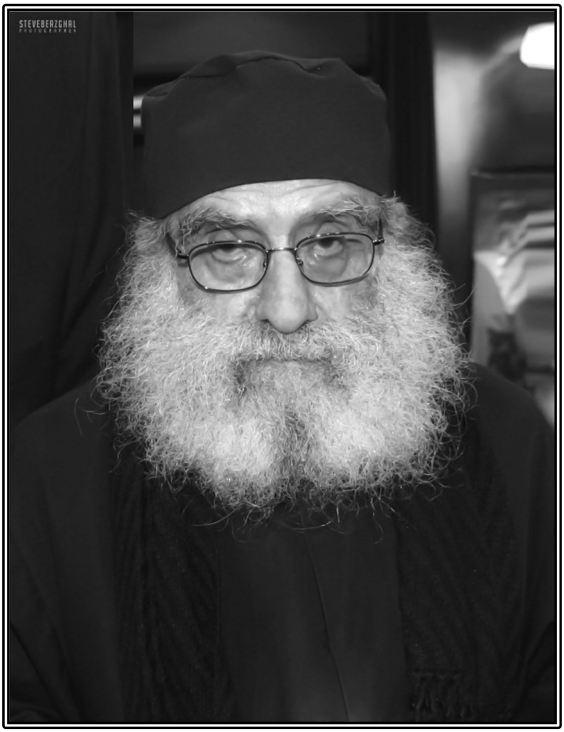

مدخل

باسم الآب والابن والرّوح القدس، الإله الواحد، آمين.

عندما نكتب عن الأب الياس، قدَّس اللّٰهُ روحَهُ، نبتهلُ إلى اللّٰه لكي يجعلنا أهلاً لهذا العمل العسير، لأنّ هذا الإنسانَ لا تسعه الكلماتُ ولا الصّفحات، ولا يمكن لريشتنا البشريّة أن تفيه يومًا حقَّه. هذا الأب الجليل في حكمته، العملاق في محبّته، المنسحق في تواضعه، الجبّار في جهاده، على مثال الآباء الأوّلين.

كان الأب الياس نموذجًا حيًّا للرّاهبِ الأمين، والنّاسكِ المجاهد، والأبِ الحنون، والمعلّم الصّالح، ورئيس الدّير الحكيم. أفنى جسده بالأصوام، والأسهار، والصّلوات؛ فتطايرتْ روحُهُ عشقًا للّٰه. قضى حياته يُرشد، ويُعلِّم، ويهدي إلى "التّوبة والتّواضع"، الّذي كان شعاره. يبكي لبكاءِ أولاده، ويفرح لفرحهم. وكم تَمَخَّض بِنا لكي يَتَصَوَّرَ الْمَسِيحُ فِينا (غلاطية ٤: ١٩)!

أبونا الياس أبٌ روحيّ أدهشتْنا حكمتُه. مفكّرٌ اجتذبَنا توقّدُ ذكائه وعمقُ تفكيره. مؤلّفٌ شاركَنا في خبراته الّتي اكتسبها بدم جهاده، على مدى سنوات العمر المديدة. احتضننا في أحشاء محبّته. شدَّدَنا في التّجارب.

قوَّم اعوجاجاتِنا. أرشدنا في عمق ظلمة الجهل والأهواء. وضع زيتًا على جروحنا. كان على مثال الرّبّ الرّاعي، العطوف، الطّبيب.

يوم التحق الأب الياس بالدّير، وضع يده على المحراث، ولم يعد ينظر سوى إلى الأمام، "ممتدًّا" على الدّوام نحو المسيح. وكان ذلك سنة ١٩٥٧، في ٥ كانون الأوّل، ذكرى القدّيس سابا المتقدّس؛ فأضحى القدّيسُ سابا مثالاً له في جهاده النّسكيّ، إلى درجة أنّنا لا يمكن أن نغفل أوجه الشّبه بين الاثنين، الّتي تُطالعنا بشكل خاصّ في خدمة القدّيس:

"يا سابا الكُلّيّ الغِبْطَة، مِصْباحَ الإِمْساكِ الّذي لا يَنْطَفِئ، وكَوْكَبَ المُتَوَحّدينَ السّاطِعَ النّور؛ أَيّها المُتَلأْلِئُ بِأَشِعّةِ المَحَبّة، بُرْجُ الصّبْرِ غَيْرُ المُتَزَعْزِع... السّاكِنُ فِي القَفْرِ حَقِيقَةً؛ يَا مَنْ أَظْهَرَهُ كَفِرْدَوْسٍ إِلَهِيٍّ، يُقَدِّمُ المُخَلّصينَ ثِمارًا إِلهِيّة..."

"اِفْرَحْ، يَا سابَا، الكُلّيُّ المَديح، لأَنّكَ أَمسَيْتَ، بِالحَقِيقَة، ذَخيرَةً زَكِيّةَ العَرْفِ لِلْجِهاداتِ النُّسْكِيّة؛ لأَنّكَ حَمَلْتَ الصّليبَ عَلَى عاتِقِكَ، واضِعًا ذاتَكَ لِلْمَسيحِ السّيِّد، ووَطِئْتَ أَفْكَارَ الجَسَدِ الدَّنيئَة، وَأَنَرْتَ النّفْسَ بِالفَضائِلِ، وَارْتَقَيْتَ بِهَا نَحوَ العِشْقِ الإِلهِيّ..."

"لَمّا عَرَفْتَ كَيْفَ تَقْتَفِي آثارَ السّيِّد، هَجَرْتَ وَطَنَكَ، يا سابا. وَإِذْ سَكَنْتَ القَفْرَ، رَفَعْتَ رايَةَ الظّفَرِ عَلى المُعانِدين، مُتَشَدِّدًا بِالقُوّةِ الإِلهِيّة..."

"أَيُّهَا الأَبُ سابَا، لَقَدْ أَحرَزْتَ الفَضيلَةَ الّتي تَفُوقُ جَمِيعَ الفَضائِلِ بِغيرِ قِياسٍ،

بَلْ هي رأْسٌ لها؛ أَعْني مَحَبّةَ اللّهِ وَالقَريبِ، مُتَمِّمًا بِذَلِكَ النّاموسَ وَالأَنْبِيَاء..."

"أَيُّهَا الأَبُ سابَا، بِما أَنّكَ أَصْبَحْتَ فَاضِلاً عادِمَ الشّرِّ، وَدِيعًا، بَسِيطًا، ذا سَكِينَةٍ بِمَا يَفوقُ البَشَرَ حَقِيقَةً، شوهِدْتَ وَأَنْتَ في الجسدِ، بَيْتًا للّهِ مُجَرّدًا عَنِ الجسد، كُلِّيَّ الاِسْتِحْقَاقِ، مُرْسِلاً لَنَا بِإِشْفَاقٍ المَوَاهِبَ المَمْنوحَةَ لَكَ مِنْهُ...".

لقد كانت لنا بَرَكةُ بنوّة هذا الأبِ المبارَك، على مدى أكثر من خمسين سنة من الزّمن، نحسبها، اليوم، أيامًا، وكم نودّ لو تعود فنتذوّق حلاوتها، ونتملّأ من نِعَمها ولو للحظات.

أبونا الياس كان عملاقًا، وليس فقط عملاقَ الأمورِ الكبيرة، بل أيضًا عملاق الأمور الصّغيرة، البسيطة، الّتي عرف، بحكمته الفائقة، أنّها المدخل إلى الملكوت. فطوبى لمَن اخترتَهُم، وقبِلتَهُم، ليسكنوا في ديارِكَ، يا ربّ!

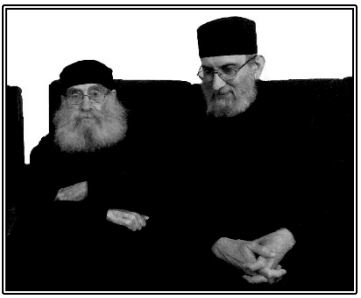

الأرشمندريت يوسف (عبدالله)
رئيس دير القدّيس جاورجيوس
دير الحرف – لبنان
أسبوع الكنعانيّة ٢٠٢١

تقديم

أيّامُ العَشْرَةِ السِّنين

الخَوالي!...

في الذّكرى العاشرة لرقاده.
"الطّاعة... حركة آمين كلّ الكيان".
الأرشمندريت الياس (مرقص)

في الثّالث والعشرين من أيّام هذا الشّهر (شباط)، كتبنا كلماتِ الأيّام الّتي غَيَّبَتْ أبانا الحبيب، الأب الياس (مرقص)... المولود من بطن أُمِّه، وكأنّها عالمة أنّها ستقدِّمه ذبيحة حبٍّ للرّبّ يسوع... والتّفلُّتِ من قيودِ الجسد!!.

ضاق جسده الصّغيرُ عليه!!. فعلَّمَنا كلَّنا، نحن أولادَهُ الآتين من صلواتِه لأَهْلينا، أن نقبَل!!.

والقبولُ، في قاموسِنا، هو أن نقولَ "النَّعَمَ" للإلهِ، صارخين: "ليتَ لي جناحَينِ كالحمامَةِ، فأطيرَ وأستريح"!...

الإنسانُ، مهما ضاقت عليه السّاعات والأيّامُ، عليه أن يحنيَ الرّأسَ قائلاً بتمتمةِ البنوَّةِ: "ربِّي، يا يسوع المسيح، ارحمني وسامحْني، أنا ابنَكَ (عَبْدَكَ) الخاطئ"...

وأصرخُ اليوم، أمامَ ربّي، صرخة الآتي!!. ماذا تقولُ الكنيسةُ لنا، حتّى

يصبحَ كلُّ هذا ناموسَ حياتِنا؟!.

هذا الأحد، الآتي علينا ببركاتِ الصّوم، نبدأ الصّلاةَ بكتابِ "التّريودي"... وتصرخُ الحناجرُ الكلمات!!. كنتُ جالسةً، ذات مرَّة، قربَ "الأب الياس"، في كنيسة الدّير، فاستغاث: "افتحْ لي أبوابَ التّوبة، يا واهبَ الحياة، لأنَّ روحي تَبْتَكِر إلى هيكلِ قُدْسِكَ، آتيًا بهيْكَلِ جسدي، مُدَنَّسًا بِجُملَتِه. لكِنْ، بما أَنَّكَ مُتَعَطِّفٌ، نَقِّني بِتَحَنُّنِ مراحِمِكَ"...

وعلا صوت المرتّلين...

"يا رحيم... ارحمني، يا ألله، كعظيمِ رحمتِك... وكَمِثْلِ كَثرَةِ رأفاتِكَ امْحُ مآثمي"... وأَجْهَشَ بالبكاء... أهذا هو الأب الياس؟!. هذا الّذي يبكي؟! "اغسِلْني كثيرًا من إثمي، ومِن خطيئتي طَهِّرْني"...

استَدارَ إليه رأسي، وغسَلَتْ وجهي دموعي... "أَبَتي، لِمَ تبكي؟!... اُتْرُكِ البُكاءَ والإجهاشَ والدّموعَ لنا، نحن أولادَكَ!".

أَنتَ تَبكينا الآن... لأَنَّنا خَطِئنا، وأَثِمنا، وليس باستطاعتنا أن نرْفَعَ رؤوسَنا... لا إليكَ، ربّي، ولا إلى آبائنا الّذين تدرَّجْنا على كلامِهم؛ فَكُنَّا، كلّما نَصرخهم... يَبتَعِدون عنّا!!.

هذا السِّباقَ والتَّسابُق، ما بينَكِ وبين آبائِكِ، هو علامةُ الصِّحَّة!. كيف، يا أَبانا "القدّيس إلياس"؟!.

الرّوحُ، يا بنيَّتي، لا يُقْبَضُ عليه، لوضعه في قارورة، نُقْفِلُ عليها بفلِّينَةٍ... الرّوح حُرٌّ!!. وهو يريدُنا أَن نصيرَ منه أحرارًا، فلا نبقى في كيانِنا وجِلْدَتِنا،

الّتي تَمنَعُنا من الطَّيران في آفاقِ الحبِّ الإلهيّ، لتُحرِّرَنا إن لَبِسَنا الرّوح!.

مَثَّلَ يسوعُ، الرّبُّ الإلهُ، مخلوقَه، في هذا المَثَل (الفرّيسيّ والعشّار)، بإنسانَين!...

إنسانِ البحثِ عن الكرامَةِ البشريّة وحبِّ الأنا وتبريرِ الذّات!.

وإنسانِ الخطيئَةِ المكشوفةِ بالتّوبةِ للرّجوعِ إلى الذّات، والصّعود إلى الهيكل، لرمي كلّ أَوساخِ النّفْسِ والجسدِ والرّوحِ أَمام عتباتِ بيتِ الإله، طَلَبًا للبُرءِ والمسامحَة!.

"الهيكلُ"، بالمُطلَقِ، مَبْنيٌّ على قمّةِ "جبل ثابور"، حيثُ تجلّى الرّبّ يسوع بملءِ جَلالِ نورِهِ، كاشفًا طبيعتَه الإنسانيّةَ الإلهيّة، مرافَقًا عن يمينه ويساره بنَبيَّي العهد القديم "إيليّا التّسبيتيّ" الغيور و"موسى الكَليم"، كاتب الشّريعة!...

ما كان مسيحُ الرّبِّ ليَظْهَر وحدهُ! لأنَّ البشر لم يكونوا قد شَهدوا، بعدُ، موتَه وقيامتَهُ! كان عليهم أن يتعرَّفوهُ ربًّا وإلهًا، لليهوديّي المنشَأ، كَونيَّ الأُلوهة!...

نحن، في بدء البَدء، هذا الّذي نتقدّم فيه خطوة خطوة، وجفةَ قلبٍ وأُخرى، مسائلين حسّنا الدّاخليّ: مَن هو هذا الآتي إلينا، الّذي هو معنا منذ وعينا حسّنا والحياة؟!. لنجد أَنفسنا، اليوم، أَنّنا أَمام موقع لا ثالث له: حقيقيّة الحقّ والحبّ!!. كيف؟!.

بداياتُ حياتنا مع الرّب يسوع وآلامه كانت في الهيكل!!. وفي ذلك الهيكل، تَستبينُ طبيعتنا البشريّة السّاقطة على حقيقتها!!...

اليوم يوم الدّينونة!!. اليوم يوم بدء مسيرتنا الأرضيّة إلى السّماويّات!!. اليوم يُفرِزنا يسوع الرّبُّ خرفانًا عن يمينه وجداءً عن يساره!!.

اليوم، لا يأتينا سيِّدُنا علانية!!. بل يأتي بنا إلى هيكل قدسه لنعترف بخطايانا!!. ندين نحن أنفسنا!!. إذا وعينا ذواتنا!. لنصير نحن الخطيئة والحلّ منها، بوعينا حبّه!!. حبّ الإله!!.

فإمّا نقف مُنتفخين أمام أبواب سمواته، مُعلنين برَّنا، فيُسقطنا هو ببرِّه!!. أو ندخل خَوفى، خَجْلى ممّا وعيناه من هشاشة هذا الكيان وضعفه... نَقْرَعُ صدورنا لكثرة ما أثمنا وما خطئنا، لأنَّنا نحيا في موتنا بعينَين منفتحتَين، فنبقى تاليًا في موتِ أرواحنا!!.

أو نَنْتَفِضُ بسرِّ حبّه وفدائه لنا، الّذي لم نُدرِكْهُ، بعد، في أعمقِ أعماقِنا! نقف بأثوابنا المرقَّعَةِ بِخِرَقِ هذا العمر، صارخين بِقَرْعِ صُدورنا!!.

يا يسوع، ربَّنا!!. ارحمنا!!. بل ارحمني، أنا الخاطئ، يا سيّدي!!.

هكذا، إمّا يموتُ الإنسانُ، مخلوقُ اللّه، في سرِّ استكبار خطيئَتِه، أو يحيا في امِّحائه أمام ربِّه السّاكنِ حشاهُ، الّذي لا يَسْتَبين له إلاّ بالتّوبة قارعًا قلبه، فكره والقصد، بصمت المعرفة!!...

ربّي، ارحمني، أنا الخاطئ، يا سيّدي!!.

يا سيّدي!!. بداياتُ وقفتنا إليكَ هي تسليمُنا أنفسَنا لَديكَ!!. ليس لنا إلاّكَ ربًّا وسيّدًا وإلهًا!!. ليس بالأقوال والأفعال، بل بصمت الحبِّ!!. هكذا علّم الأب "إلياس"!!.

صالَتْ خيولنا وجالَتْ في حروب الرِّفعة، في مجتمعات الأغنياءِ بالفكرِ، والعلمِ، والفنّ. وبعد عيشٍ قصُرَ أو طال فيها، غادرنا بيوتها إلى مضارب

الصّحاري في أحشائنا!!.

أحشاؤنا أَدَّبَتْنا، إليكَ!!!. يا يسوع!!.

أطلقتنا كُلّنا، ربّي، إلى المسير الطّويل، لنعرف حقّكَ وباطلنا!!.

وما زلنا، كلّنا، نتلمّسُ عتبات الدّرب، نتفادى الوقوعَ في الحُفَرِ الّتي حفرها الشّرّيرُ لأقدامنا، مغطّيها بورود الحقل والشّوك!!. بالياسمين والفلّ وأشجار الغابات!!. وكانت الحياة، في قلوبنا الفريسيّة، تنمو وتَكبُر، لنلقى، في كلّ تجربة مُرّة موجعة، عينَي العشّار، وصوتَهُ قارعًا ضمائرنا: تعالوا، يا إخوتي، نُلقم حيوانات غرائزنا بالفقر، حتّى لا تثور أجسادنا، بالمال والزّنى وحبّ الظّهور، علينا!!.

انفصلنا كلّنا عن أنفسنا!!. شَطَرْنا كياناتنا!!. أضعنا البراءةَ الفردوسيّة. وحين وَعَينا أنّنا لسنا أبكار الوعد الإلهيّ، وأنّ كلّ براءةٍ بشريّةٍ هي كذبةُ الشّرّير لنا... دبّجنا الحقائقَ والقصدَ!!. وإذ تَداخَلَ الخير والشّرّ في قلبِ وفكرِ وحسِّ كلِّ مخلوقٍ بشريٍّ، صرَخْنا بالرّوح القدس الّذي دَفَنّاه في زوايا كياناتنا:

"الآن، أَطلِقْ عبدَكَ، أيُّها السّيّد، على حَسَبِ قَوْلِكَ، بسلام!!. فإنّ عينَي قلبِنا قد أبصرتاك!. إلينا!!. آتيًا لتُخَلِّصَنا من معاصينا!!".

سيّدي، إنّني أُصلّي لأجل كلّ الّذين أعطيتناهم!... اجعل صلاتي صلاةً عشّاريَّةً، تائبة إليكَ بالقلبِ، والفِكْرِ، والحسِّ، والكيان!!.

واجعل حديث قلوبنا، توبتنا ورجعتنا إليكَ، مخبوءَةً في سرِّكَ!!. احفظْ حبّنا، هذا السّاكن في شغافِ ضلوعِنا، ممتدًّا إليكَ!!.

ارحمنا وسامحنا، يا ابنَ داود!!. يا مسيحَنا!!.

ها أَنتَ الممسوحُ من اللّٰه تَمْسَحُنا بغفرانِكَ!!.

توبتنا المقبولة لديك هي حبُّنا المُعمَّد، المُمَيْرَن بحبّك لنا، مهما خطئنا، أَعِدْنا إِليك!!.

ماذا، يا إِلهنا، بعد؟!. نحن عرفناكَ بطريقٍ منكَ لنا ومِنّا إِليكَ!.

نعرفُكَ عشقًا حتّى الموت، موت الصّليب لنا!. لبشريّتنا!... وغفرانًا!... فاقبل، الآن، توبتنا ورجعتنا، وسماحكَ لنا!!... ولا تنسَ مَن معنا... كلّ آبائنا... والأب "إِلياس"... منّا ولنا!!.

يا سيِّدَنا!!. ها نحن مُتْنا فيكَ ولكَ عن ذواتنا!!.

اقبل توبتنا ورجعتنا إِليك!. اقبل عَشَارِيَّتَنا!!. لنسْتَلهمك وعدَ حنان!!. وعدَ دموعٍ تَغسِلُ قدميك!!.

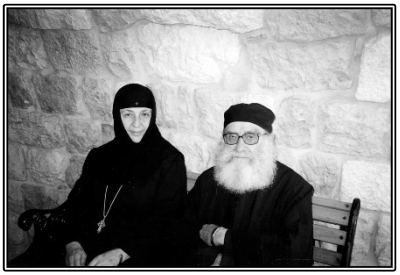

اِحْفَظْ آباءَنا الأحياءَ والّذينَ سَبَقونا بدَعْوَةٍ منكَ، يا يسوع!!.

وارحمنا، يا رحيم، بعظيم رحمتك!!. بآمِينِكَ وَعَدْتنا!. فخلِّصْنا!!.

الأمّ مريم (زكّا)
رئيسة دير القدّيس يوحنّا المعمدان
دوما – لبنان
أسبوع الفرّيسيّ والعشّار

تمهيد

كتاب "السّيرة الرّوحيّة للأب الياس (مرقص)"، لديّ، كان أدنى إلى الاستكتاب منه إلى التّأليف. شعوري العميق كان، ولا يزال، أنّ الأب الياس هو مَن استكتبني روح الكتاب!. التّفاصيل، بالأكثر، منّي، والرّوح منه!. خلال الفترة الّتي وضعته فيها، كانت روح الأب الياس شغلي الشّاغل، ليلاً ونهارًا، حتّى إنّه صحّاني، في أثناء اللّيل، مرّة، لأكتب حلمًا في شأنه!.

خلال تلك الفترة، كان حضور الأب الياس، لديّ، حيًّا، ناشطًا!. كنت أكتب بفرح، وأحيانًا بغبطة!. ما أكاد أبدأ بالكتابة حتّى تراني في سباق مع الكلمات!. كانت الأفكار تسير أمامي، وأنا أتبعها!. هذا يذكّرني بقول كان الأب الياس يحبّ أن يردّده، من سِفر نشيد الأنشاد: "حبيبي يزمّر بمزماره وأنا أتبعه"!. استبانت المعالم، قدّامي، صافية، واضحة، بشكل عجيب!.

هذا لا أكتبه من باب الادّعاء، كمَن يشاء أن يضفي على ما ورد فيه مسحة أسراريّة!. الحقيقة أنّني نشأت، كنسيًّا، لديه، منذ السّابعة عشرة من عمري!. رافقني ورافقته سنوات!. وعلى الرّغم من أنّ مكانته عندي كانت مرموقة، إلاّ أنّني عرفته، بالحريّ، كإنسان!. التّفاصيل، الّتي لاحظتُها فيه، كانت ترسّخ معرفتي به، ولكن... كإنسان!.

لم يخطر في بالي أن أكتب عنه، كما فعلت في ما بعد، خلال ثماني سنوات!. وكثيرًا ما كان يغيب عن ذهني لفترات طويلة!. كأنّي كنت بحاجة إلى أن أنساه جزئيًّا، أوّلاً، لأعود فأكتب عنه، ولكن... في الرّوح!. صبغته الإنسانيّة فيّ كانت قبلُ غلاّبة!. وهذا طبيعيّ!.

ثمّ، فجأة، جاء عيد ميلاده، في أيّار، ٢٠١٨، وجاء معه شعور جديد، حضور جديد!. فحضرتني فكرة الكتابة عنه!. شيء جديد حدث!. أخذت صورته تتروحن لديّ، وأخذتْ نزعة جديدة فيّ تلملم الصّور الفكريّة والتّاريخ والأحداث والتّفاصيل، لتعاينها متروحنة، منقّاة!.

مذ ذاك، أخذت أتخطّى خبرة اللّحم والدّم في علاقتي به، في نظرتي إليه!. وجعلتني أقرأه بغير اللّون الّذي عرفته في ضوئه، كإنسان!.

هكذا، نما لديّ الشّعور، لا بفرادة الرّجل - وهذا كان يقينيًّا لديّ - ولكن بقداسته!.

طبعًا، لست أنا مَن يقول قداسة الأب الياس!. هذا يعطيه روح الرّبّ لأحبار الكرسيّ الأنطاكيّ!. ولكن، ثمّة ما يُعطى لنا، نحن المؤمنين، أيضًا، وأُعطي لي، أنا الحقير في الكهنة والرّهبان، شخصيًّا، يشير بالخبرة والحسّ والموقف إليه!. بلى، الأب الياس بتنا نقربه، بالكلمة والصّلاة، كرجل للّه، لا كراهب، ولو مميّز، نتعلّم منه، ونلوذ به، ونأنس لجلسته، ونفرح لدعابته، ونقرأ ما كتب، أحيانًا بإكبار، وأخرى بشيء من الرّوح النّقديّة!. الأب الياس،

بعد كلّ هذه السّنوات العشر، لم يعد هو إيّاه تمامًا، كما عرفناه!. يسوع، بعد قيامته، لم تتعرّفه مريم المجدليّة، إلاّ بعدما ناداها بالاسم: "يا مريم"!. له كانت المبادرة!. وكان على بعض الاختلاف في الهيئة البشريّة، بعد الّذي طرأ عليه، في الهيئة الدّاخليّة... بالقيامة!.

الأب الياس، اليوم، نقربه بمهابة لم نعرفها لمّا كان بيننا في الجسد!. ثمّة ما يشير فينا إليه أنّ العليّ اختاره منذ الحشا، وأنّه، اليوم، أحد أصفيائه!. لذلك، ردّ فعلنا بإزاء الأب الياس (الرّاقد)، متى ذُكر اسمه بيننا: "يا أبانا الياس، صلِّ لأجلنا"!.

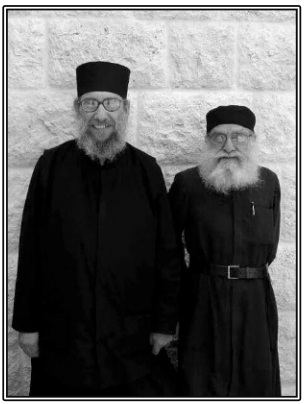

الفتى الّذي قرّبتَه لربّك

توما (عصام)

طالبًا صلاتك، يا أبانا، لي

ولكلّ الموجوعين في كنيستك، اليوم،

ولكلّ العالم!

أسبوع الكنعانيّة ٢٠٢١

الأرشمندريت توما (بيطار)

رئيس دير القدّيس سلوان الآثوسيّ

دوما – لبنان

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة!
(١)

الخامس من أيّار الفائت كان عيد مولد الأب الأرشمندريت الياس مرقص. رقد الأب الياس يوم الأربعاء، ٢٣ شباط، ٢٠١١. عمّر تسعين سنة. هذه بعض كلمات فيه كما عرفته.

أولى مطالعاتي له كانت في العام ١٩٦٣. دعاني أحد رفاق الصّفّ، وكان عضواً في حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة، إلى ما أسماه "خلوة" في دير القدّيس جاورجيوس – دير الحرف. صعدت من باب الفضول. لم أكن، يومذاك، معتاداً ريادة الكنيسة، ولمّا تكن لي إلفة إلاّ بدير صيدنايا، من وقت لآخر. هناك، طالعني وجهٌ أضحى عرّابي إلى معرفة وجه الرّبّ يسوع. كان ذاك وجه الأب الياس. قصير القامة، نحيلاً، رأسه أكبر قليلاً من جسمه، أسود اللّحية، على اعتدال فيها، خفيف شعر الرّأس، كلّه أسود، ويلبس نظّارتين سوداوين، هادئاً، قلّما تكلّم، مختبئاً في مكان ما، تحسب أنّه ينظرك ولا تنظره، فيما هو، كما اكتشفتُ، في ما بعد، يطلب التّواري، جدّيًّا أكثر ممّا يتوقّع المرء.

تلك كانت أولى لقاءاتي بالرّجل: شابّ حدَث يعاين مَن اختفى وراء نظّارتين! كلاّ، ليس لأنّه لا يبالي بالقادمين إليه، بل لأنّ الحنان الّذي انسكب، في ما بعد، منه، كان ينبع من غربة عن الذّات وقسوة عليها!.

لم أسأل مَن يكون، لكنّه لفتني. قالوا: هذا الأب الياس، رئيس الدّير. لست أذكر الكثير من تلك الخلوة. فقط، العمل في تنقية اللّوبياء ونظّارتَيه!.

عدت بعد ثلاثة أشهر. فقط، لأنّه قال لي: إذا أحببتَ، فبإمكانك أن تأتي إلينا، وتبقى بضعة أيّام معنا.

كنت، يومها، في الثّامنة عشرة. واستمرّت العلاقة به إلى اليوم، عبورًا بالثّلاثاء، قبل رقاده بيوم. ركعنا، أمامه، في غرفته في المستشفى، أنا والأمّ مريم. جعل يده علينا، وبارك، وصلّى بدموع. تلك كانت حجّة الوداع. في اليوم التّالي، بعد مساهمة القدسات، رقد، إنّما في قلاّيته الّتي أصرّ أن يصعد إليها قبل اليوم الموعود!.

ثمانيةٌ وأربعون عامًا قصّةُ حياة. علّمني الكثير، وتعلّمت منه الكثير. أدين له بالكثير. لم يفرض نفسه عليّ، مرّة، في شيء. كان خَفِرًا، حرًّا، حاضرًا، يسأل، يستفقد، قليل الكلام، كثير السّماع، يوحي، يتابع. علّمني، إلى الصّلاة والوداد، الكلمة، والجرأة، والحرّيّة، والأمانة. في الحقيقة، لأنّه هو كان كذلك، فيما كنت أنا إنسانًا جامحًا. كان محبًّا لأنّه أحبّ اللّه. لم أحتجْ أن يعلّمني طريقة الصّلاة، ولو علّمني إيّاها أيضًا. الأهمّ أنّه كان يصلّي. كانت

الصّلاة سهلة عليه، على صعوبتها، لأنّها أتت من دم. كان يقسو على نفسه. قلّما يقسو على أحد، ولو كان ينفجر، من وقت لآخر، أمام الجماعة!. كانت صعبةً على الشّركة الطّاعةُ. الفردانيّة، بالأحرى، سادت!. كان، في الدّير، راهب واحد، يطيع: هو!. كان يطيع الجميع!. يرى المرءُ أموراً ناقصة!. على الرّغم من ذلك، قَبِل الأمور على عِلاّتها!. لم يرفض أحداً البتّة!. كان يقبل الجميع، ويشرِّع قلبه للجميع!. كان يحنّ، بخاصّة، على صعاب الأطوار، ولا ييأس من رحمة اللّه على المتردّدين والمرذولين والضّعاف!.

تلك الزّاوية من كنيسة القدّيس جاورجيوس لم تفرغ يوماً من حضوره. كان دائماً هناك. ولمّا كنت أُمعن النّظر فيه، كنت كثيراً ما أُلاحظ دموعه تسحّ من عينيه بصمت، كحمامة موجوعة. خرج من اللاّذقيّة ولمّا يعد إليها في روحه!. آثر الغربة!. والحقيقة أنّ قِلّةً عرفته، ولو كان يضحك، ويمزح، ويرحّب بالنّاس!. كان يلبس، روحيًّا، نظّارتَيه السّوداوين، فلا يعرف أحدٌ ما وراءهما!. لكنّنا كثيراً ما كنّا نترافق إلى اللاّذقيّة، وليس فقط إليها، ولكن إلى الشّام وحمص وحلب أيضًا!. كان يترك الشّركة لديه لحرّيّتها، ويذهب ليعرِّف، خاصّة الشّبّان. تدوم اعترافاته، كلّ يوم، عشراً إلى اثنتي عشرة ساعة. يسمع ويسمع ويبكي ويعزّي ويشدّد!. وكان يزور النّاس. يفتقد المرضى. يحمل آلام الآخرين. ومع ذلك، كان يفرح. الموسيقى الكلاسيكيّة تعنيه، لا سيّما موزار، على الرّغم من أنّه لم يكن متعلّقًا بشيء!. كان يحبّ اللّقمة الطّيّبة، على الرّغم من أنّ أكله كان قليلاً. لم يدع أحداً يشعر أنّه

ليس منه وإليه. يفرح مع الفرحين ويبكي مع الباكين. رجلٌ لكلّ الفصول. كأنّه لم يكن راهبًا في ديرا. في عين العاديّين كان عاديًّا!. كنزه مخفيّ!. كنّا، أحيانًا، نلعب النّردا. يفرح ويضحك و"يزرّك"!. ثمّ ينتهي دور طاولة الزّهر، ولا تترك أثرًا!. كأنّه لم يغادر مكانه!. روحه إلى هناك، وصلاته يستدعيها بسهولة!. يفرح ويضحك، وبعد عشر دقائق يبكي ويصلّي!. هذا منه وتلك منه!. لا موانع لديه إلاّ الخطيئة!. الباقي كلّه من الحياة!. لم يعرف التّزمّت، لكنّه كان متمسّكًا، بالرّوح، بأهداب المعلّم!.

لا شيء أوقف الأب الياس أو أعاده إلى الوراء!. كان، أبدًا، في سيرورة!. لا تعرف إلاّ إذا تسنّى لك أن تدخل، إن أزاح نظّارتيه، إلى عينيه المكسورتين! لا أعرف أحدًا آخر عرف أن يغيِّب نفسه كما غيَّب الأب الياس نفسه!. حادّ الذّكاء، كثير المعرفة، يقرأ روح الأحداث والكلمات، على جَلَد كبيرا. كان، في دنياه، رفيع الشّأن، مسؤولاً عن إدارة شؤون المحافظة، في اللاّذقيّة!. نال شهادة المحاماة، من مدرسة القانون في بيروت، بتفوّق، بالمراسلة!. كان مُجلّيًا!. له سائقه وسيّارته ووقاره!. الرّوائح الطّيّبة استبدلها بالاهتمام بتنظيف حمّامات الدّيرا. التّسيّد استعاض عنه بالمكنسة والمجرود، يمتشقهما، كلّ يوم، لينظّف الغبائر ما بين حجارة ساحة الدّيرا. الرّاحة، في العالم، حلّ محلّها التّعب حتّى الإرهاق!. العِلم، في العالم، أعطى مكانه للجهل من أجل المسيح!. أُصيب بالسّلّ وبصق دمًا!. مَن اعتاد الطّيّبات في المأكول صار يأكل ما لا يُزدَرَد بسهولة!. والأهمّ أنّ مالئ دنياه وشاغل النّاس

جعل نفسه نسيًا منسيًّا، حتّى لو ظهر على شاشة النّاس!. لم يكن محتاجًا إلى أن يكسره أحد! كسر نفسه! على الرّغم من ذلك، كانت له كلمة يقولها غير الكلمات، ويسمعها مَن لهم آذان للسّمع بشغف!. أضحت له شهادته الخاصّة!. الأب الياس دخل في نسيج أنطاكية من حيث لا يعلمون! عندما دخل المتروبوليت أفرام (كرياكوس) الكنيسةَ، حيث سُجِّيَ، قبَّل قدمه، ونِعمّا ما فعل!.

صراعه مع أهواء نفسه كان عنيفًا!. لا يحمِّل أحدًا همًّا، لكنّه يهتمّ بالتّخفيف من هموم الآخرين!. في أوائل أيّامه، كان كتاب صلاته المزامير. وقد بقي كذلك. صلاة يسوع زادت في النّصف الثّاني من جهاده. لم يعرف السّهرانات إلاّ في سنواته الأخيرة. لكن، كانت له سهراناته الشّخصيّة.

هذا رجل عرف أن يكون مبذولاً. رحم اللّه أبا طارق. كان كلّ ليلة يرافقه في آهات قلبه، في القاعة الصّغرى. يجالسه، فيما يحتسي أبو طارق شيئًا من "عرق الكيف" ولديه بعض قطع من الخيار والجزر وحبّات من المكسّرات، على وقع أغاني أمّ كلثوم والسّيّد درويش. هكذا كان ينفّس أبو طارق عن وهج جرح عماه، وكان الأب الياس دائمًا إليه بالكلمةِ، والضّحكةِ، ونَقْفِ

الإصبع، والـ"آه" لطلعات أمّ كلثوم!. ساعاتٍ كان الأب الياس يقضيها وأبا طارق، أحيانًا إلى العاشرة أو الحادية عشرة أو حتّى الثّانية عشرة ليلاً، ليكون في الكنيسة عند الرّابعة صباحًا!. هذا كان بعضًا من نسكه، أن يخفّف من ألم المألومين!. كان أبو طارق يدخل إلى الكنيسة ويوقفونه قدّام أيقونة السّيّد. كان هذا الرّجل "الأيّوبيّ" يدخل في نشيج قدّام السّيّد: "يا معلّم!. لا تذلّني أكثر من ذلك!". وكان الأب الياس حاملاً سرّه بدموع وفرح!. بقي كذلك سنوات!. لم يعبِّر عن امتعاض يومًا!. جعل نفسه شريكًا في آلامه كصديق للعريس!.

وتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٢ أيّار ٢٠١٩

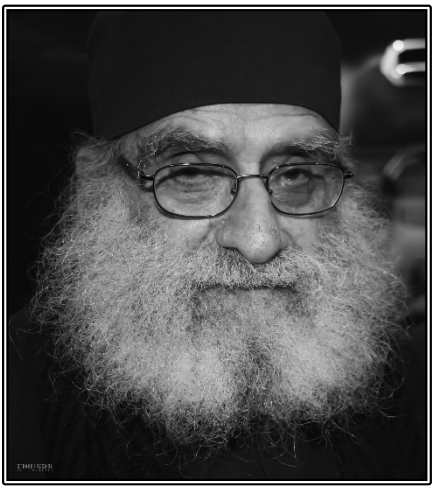

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢)

أتى الأب الياس من اللاّذقيّة، ومن حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة الّتي كان أحد مؤسّيسها. اللاّذقيّة، كأهمّ منبع أنطاكيّ للبدايات الحديثة للنّهضة الكنسيّة، بحاجة إلى دراسة خاصّة. أمّا حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة، فخرجت إلى حيِّز الوجود من هاجس البحث عن الهويّة الأرثوذكسيّة، في وقت واحد، في اللاّذقيّة وطرابلس وبيروت. في مناخ المدارس الكاثوليكيّة، والحركة الطّالبيّة الكاثوليكيّة، نبتت مجموعة شبّان استبدّ بها هاجس الأرثوذكسيّة، أبرز أسمائها في اللاّذقيّة كابي سعادة ومرسيل مرقص (الأب الياس)، وفي لبنان جورج خضر (المتروبوليت جورج) وألبير لحّام (المحامي)... كنيستنا، يومذاك، في أربعينات القرن العشرين، كانت في حال من الرّكود. لا شكّ في أنّ نشوء الحركة، في تلك الأيّام العجاف، كان افتقاداً إلهيًّا. كانت الكثلكة، بتوجّه مدروس، إضافة إلى البروتستانتيّة، تشكّلان تهديداً حقيقيًّا للأرثوذكسيّة، في هذه الدّيار!.

على هذا، أتى الأب الياس من ثقافة فرنسيّة مميَّزة. معرفته الفرنسيّة، لغةً، كانت ممتازة. قَرّاء جيّد. يعرف الأدب الفرنسيّ. يقرض الشّعر. يعرف الموسيقى الكلاسيكيّة. ما تهمّه معرفته كان يتقنه. هذا حتّى لا نتكلّم على دراسة القانون. الكنيسة عرفها كأسًا مقدّسة وقراءة. قرأ عن الرّهبنة أوّلاً، وعزم على تكريس نفسه لها، قبل خروجه إلى دير مار جرجس الحرف بزمن ليس بقصير. رتّب، أوّلاً، أمور أهل بيته، وبعد ذلك انسحب. عمليًّا، هجرانُه العالم كان كهجران القدّيس أنطونيوس الكبير. كيف؟. لأنّه لم يكن ثمّة نموذج قبله وأمامه يحذو حذوه، رهبانيًّا. غيرته، على بيت اللّه، من ناحية، وحركة روح الرّبّ فيه، من ناحية أخرى، فعلتا ذلك!.

جاء إلى دير الحرف في العام ١٩٥٨. قبله بسنة، كانت مجموعة أخوات، جُلُّها لاذقيّ، قد استقرّت في دير القدّيس يعقوب الفارسيّ المقطّع في ددّه. وقبل ذلك بسنوات، حاول جورج خضر وبولس بندلي وقسطنطين باباستيفانو الاستقرار في دير الحرف ببركة المطران إيليا كرم. فلمّا درى البطريرك ألكسندروس الطّحّان بأمرهم، أمر بطردهم فورًا!. من جهة أخرى، كان الأب أنطونيوس منصور المزرعانيّ (اللاّذقيّة)، الّذي انضمّ، في ما بعد، إلى دير الحرف، قد قام بأولى محاولاته الرّهبانيّة في دير بكفتين، لكنّ الأمور هناك لم تسِر كما يُشتهى. هذا كلّه نما، لأنّ الوعي زاد أنّ الكنيسة لا تنهض من دون رهبنة؛ هذا علاوة على درجة مرتفعة من الحماس جعلت الحسّ يزداد بأهمّيّة التّكريس الكامل، وحرّكت الأكباد للخروج إلى الصّحراء، بمعنى!.

البداية، في دير الحرف، كانت قاسية. كان في الدّير كاهن مُقام عليه. هذا، بقدوم بعض الشّبّان إلى المكان، شعر بخطر إلقائه خارجًا. كان هو الكاهن الوحيد. لذا، عامل طلاّب الرّهبنة الجدد بفظاظة. عانى الأب الياس الكثير، حتّى لا نتكلّم على مَن كانوا معه. لكنّهم عاملوا الكاهن باحترام كبير وصبر فائق. بذل الأب الياس دمًا ليثبت!. كان هذا لديه من عناية ربّه ليتمرّس في الاتّضاع، والصّبر، والصّمت، والفقر، والمحبّة!. أخيرًا، غيّر الرّبّ الإله قلب الكاهن الّذي ما لبث أن مرض، فاعتنى به الرّهبان الجدد عناية كبيرة، وقبل أن يفارق، عبَّر عن محبّته ورضاه، وباركهم!.

من الصّعوبات الّتي واجهها الأب الياس، في مطلع رهبانيّته، أنّ الجماعة لم تكن متجانسة، لا ثقافيًّا ولا اجتماعيًّا. هذا لم يكن سهلاً!. حال الغربة اقتبلها بوعي كبير وحسّ رهبانيّ مرهف، لكنّها، طبعًا، كلّفته غاليًا!. ثمّ، أوّل الأمر، لم تكن لدى المجموعة فكرة كيف ينتظمون. كانت الرّئاسة دوريّة؛ وهذا خلق جوًّا مضطربًا في الشّركة النّاشئة!. لكنّ الجماعة تمسّكت بصلاتها وفقرها!. لم تكن الشّركة، أوّلاً، بنظامها، بل بتقوى أفرادها وجهادهم الشّخصيّ!. حتّى، في ما بعد، روح الشّركة لم تَنْمُ، كما يشتهي المرء. أضحى الدّير، إلى حدّ بعيد، هو الأب الياس!. استمرار الدّير، بعده، كان، بلا شكّ، من عمل اللّه!. بشريًّا، كان يمكن الدّير أن يتفكّك!. فقط عظام مَن ربضوا تحت الكنيسة أمّنوا، بالبركة، استمراره، وهم الأب الياس والأب أنطون والأب أغابيوس، إضافة إلى الشّمّاس اسبيرو (جبّور)!.

وافتقد الرّبّ الإله الدّير بالأرشمندريت أندره سكريما الرّومانيّ. هذا خرج إلى الهند في منحة لتعلّم السّنسكريتيّة. وإذ كانت رومانيا في وضع صعب، ولم يشأ الأب سكريما العودة إليها، جاء إلى لبنان وبقي فيه سنين يذهب إلى أوروبا وأميركا ويعود. وفي لبنان، أضحى معلّمًا لرهبان دير الحرف. أخذوا منه الكثير، وشكّل ما أخذوه مادّة عدّة مؤلّفات، أبرزها كتاب "أصول الحياة الرّوحيّة" الّذي طُبع، في ما بعد، بعنوان: "في حياة التّوحّد"!. وقد بقي الأب أندره يذهب ويعود، إلى أن سقط النّظام الشّيوعيّ في رومانيا، عام ١٩٨٩، فعاد إليها، وهناك رقد.

تمسّك الأب الياس بحياة الفقر، في النّصف الأوّل من سيرته، تمسّكًا كبيرًا. فقط ما هو ضروريّ، كان لديه نصيب الجماعة. لم يهتمّ بتزيين المكان. عينه كانت على ضبط النّفس وتزيين القلب بالفضائل، على حياة الصّوم والصّلاة. لم تنفتح الشّركة على تجميل الدّير ومشاريع البنيان والزّراعة، إلاّ لاحقًا، لأنّ "هذا ما كان يليق بالرّهبنة"، على حدّ تعبيره!. شخصيًّا، سلك في التّقشّف ولمّا يبالِ بقنية شيء. بالعكس، ما كان يشعر بشيء من الميل إليه كان يعطيه، أو يتخلّص منه. في المقابل، كان يهتمّ بالعطاء. لم يردّ مرّة سائلاً. يعطيه ولو قليلاً. الفقير كان لديه قضيّة مقدّسة. حكى ما وجده في مخطوط، أوّل ما قدم الدّير، هو وصحبه، أنّ هذا الدّير احترق لأنّ رهبانه كانوا بخلاء. أحد المتردّدين عليه لم يكن له بيت وكان يشتهي أن يكون له ليدبّر أمره وأمر أمّه وأخته. هذا جعله الأب الياس يعمل في الدّير. وإذ أخذ

يرتفع مشروع بناء في الضّيعة، ضيعة دير الحرف، شرع يزوّده بالأقساط الشّهريّة لتملّك شقة فيه؛ وبقي على هذه الحال، سنوات!.

الاهتمام بالشّباب كان أساسيًّا لديه. دير الحرف كان عامرًا بالخلوات الرّوحيّة. وكان الأب الياس يخرج ليعطي أحاديث، كلّما طُلب منه ذلك. في الكلام والكتابة كان، دائمًا، صاحب قول نافع ومميّز. ما كان يبالي به هو تفتيق المعاني الرّوحيّة، سواء في الكتاب المقدّس، وبخاصّة المزامير، أم في القراءة الرّوحيّة للعبادة واللّيتورجيا. لم يُكثر الكلام. نَفَسُه كان قصيرًا. لكنّه كان يُخرج المعاني من حيث كان القول، لدى الأكثرين، عاديًّا!. يقول الكثير بكلمات قليلة. صوته، بعامّة، كان يميل إلى الضّآلة، خاصّة بعدما ضعفت رئتاه، إلاّ عندما تجيش نفسه، فيهدر هدرًا!. وفي الكتابة، كان جَلودًا. استغرقت ترجمته لسلّم الفضائل ما يزيد على الثّلاث سنوات. تجدر الإشارة هنا إلى أنّه كان يمرّر ترجمته على بعض الإخوة والزّوّار، وأنا كنت واحدًا منهم، ليراجعوها له بتواضع كبير. كان يحبّ أن يفيد من قدرات سواه، ولم يستخفّ، البتّة، بأحد!.

اهتمّ الأب الياس اهتمامًا ملحوظًا بإصدار نشرة غير دوريّة، هي "نشرة دير الحرف"، كما اهتمّ بالتّرجمة والتّأليف. الثّقافة الكنسيّة عنت له الكثير. كلّ الأحاديث الّتي كان يلقيها الأرشمندريت أندره سكريما كان يدوّنها ثمّ يترجمها، لأنّها كانت تُلقى بالفرنسيّة. من هنا، من هذا الاهتمام، نمت منشورات دير الحرف.

عينُ الأب الياس كانت، أبدًا، على مسيح الرّبّ، كما كانت على النّاس. في عينيه دائمًا دمعة!. يفرح مع الفرحين ويبكي مع الباكين!. لم يحمل، البتّة، ضغينة ضدّ أحد. يُساء إليه ولا يُسيء إلى أحد!. وكانت له صلاته، من الأعماق، من أجل مَن يسألون ومَن لا يسألون...

وتستمرّ القصّة...

الأحد ١٩ أيّار ٢٠١٩

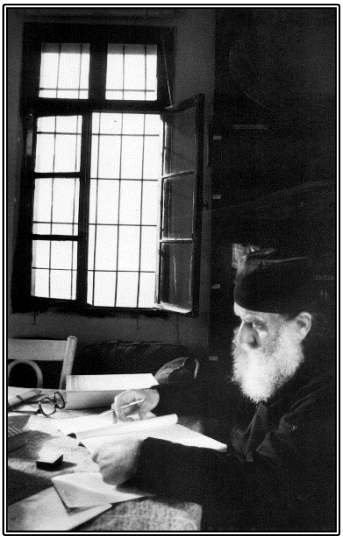

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة!!...
(٣)

حرّيّة الضّمير في مسار الغيرة على كنيسة المسيح، لدى الأب الياس، كانت شأنًا مقدّسًا. لم يقتحم الأب الياس أحدًا اقتحامًا. يشير إلى الحَمَل، ولا يتصرّف كأنّ طاعته هي من طاعة المرء للحمل. يكتفي بالإيحاء، بالتّنقيح، بالتّصحيح. يقدّم نفسه شاهدًا، مثالاً، لمَن يسمع، ولمَن يبصر، دونما تصريح. بعد ذلك، مَن أراد أن ينتفع كان بإمكانه أن ينتفع، ولكنْ كان ذلك رهنًا بعمل روح اللّه فيه وبإرادته. لم يسْعَ إلى أسر الضّمير باسم اللّه، بل إلى تحريك الضّمير. الباقي يصنعه الرّوح في النّفس. في ذلك، كان الأب الياس، على خفر كبير. هكذا، تمثّل دورُ الأب الرّوحيّ لديه في علاقته بأبناء اللّه. الطّاعة المعتبرة رهبانيّة لم تكن شأن قاصديه من العامّة. لا فرضها، ولا طلبها، ولا توقّعها. ما يلتزمونه يأتي من ضمير، لا ممّا يحدّده هو لهم كمَن لا ثقة له بعمل روح اللّه. قولٌ كالقول: "أذهب إلى أبي الرّوحيّ لآخذ بركته في هذا الأمر أو ذاك"، كما لو كنتُ ألتمس أن يسمح لي به أو لا يسمح لأُريح، أو بالحريّ،

لأخدّر ضميري، لم يكن واردًا. أُعلمه، أسأل نُصْحَه، آخذ مشورته، أطلب بركته على ما فكّرت فيه أو عزمت عليه، هذا، وحده، ما كان متوقَّعًا في التّعاطي معه. ينقّحني، ينبّهني، عند اللّزوم، هذا طبيعيّ في علاقتي به. بعد ذلك، أفعل ما هو من قناعتي الشّخصيّة. علاقة الأب الياس بالقادمين إليه كانت قائمة على أساس التّناضح الرّوحيّ، لا على أساس الفرض، واستئسار حرّيّة الضّمير، والإلزام، وعدم الثّقة بكفاية عمل روح اللّه في الآخرين!.

على هذا، خلال السّبعة والعشرين عامًا، الّتي عرفتُه فيها، إلى أن صرتُ راهبًا، في السّنة ١٩٩٠، لم يطلب منّي، ولا مرّة، لا تصريحًا ولا تلميحًا، أن أصير راهبًا، ولَدَيه، في ديره!. لعلّك تقول إنّه لم يحسب أنّي أَصْلُح للرّهبنة؛ لا أظنّ!. أنا صرت راهبًا بيد الأرشمندريت "صفروني سخاروف". وعندما أعلمته بالأمر، فرح جدًّا!. لا أحسب أنّه خطر في باله أنّ الأمر كان ينبغي أن يكون من خلاله هو، لأنّه طالما عدّ نفسه صديق العريس الّذي يفرح بصوت العريس، في الآخرين، يأتيهم بطرق يرتأيها علاّم القلوب وحده لهم. ربّك، في النّهاية، هو المبتغى، والأهمّ أن نُقبل إليه، بغضّ النّظر عن الكيفيّة. "طرقي ليست طرقكم"، قال ربّك. بهذا يفرح، ويفرح الّذين ساروا ويسيرون على خطى المعمدان!. حسبُك أن توحي: "هذا هو حمل اللّه الرّافع خطيئة العالم"!.

حتّى، عندما كنت على حفافي اقتبال خدمة الكهنوت، لم يدفعني إلى اقتبال السّيامة الكهنوتيّة دفعًا. كان ذلك في العام ١٩٧٦. يومها، برفق وخفر جميلَين، سألني، وكنّا سويّة في الشّام: "ماذا تريد أن تعمل؟". أجبتُ: "أستطيع،

بعون اللّٰه، أن أقتبل الكهنوت، متزوّجًا، وأستطيع أن أقتبله غير متزوّج!". كنت، يومها، متردّدًا!. فقال لي ما حسبته صوتًا من اللّٰه: "لم يعد موافقًا لك أن تتريّث أكثر من ذلك. ما أنت مزمع أن تفعله فافعله سريعًا!". قلت له: "أهذا ما تراه مناسبًا؟". قال: "أجل!". فأجبته: "ليكن!. على كلمتك أُلقي شبكتي!".

جرت سيامتي شمّاسًا، بعد أيّام قليلة، في مريميّة الشّام، في ٩ تمّوز ١٩٧٦، بيد المثلّث الرّحمات البطريرك الياس الرّابع (معوّض)!.

كان الأب الياس أبًا، وصنوًا، وصديقًا، ورفيقًا. كنت أستودعه أفراحي وشجوني. يسمع، ولا يكفّ عن السّمع. لا يأتي كمن علياء، ولا يُسقط عليّ، ولا على أحد، تصوّره في شأنهم. كان رفيق درب، أرتاح إليه وأفرح به. يحملني في محبّته وصلاته كأخ صغير له. فكان نِعْمَ الرّفيق والصّديق. ولو كان غير ما كان عليه، لَجَفلتُ وفررتُ، لأنّي كنت جامحًا كحصان برّيّ، حسّاسًا كظبية تجفل من نأمة. راضني بلطفه، وصبره، وتواضعه، وأبوّته، وأخوّته، وطيب معشره، وثباته في خفره ومحبّته!. صنعني، رويدًا رويدًا، من روح اللّٰه وفكره ومثاله!. تعلّموا منّي... الأب الياس أضحى إليّ، بمرور الأيّام، نَفَسًا، ونمطَ فكرٍ وعيشٍ وجرأةٍ، ودليلاً إلى وجه مسيح الرّبّ، يعرف أن يستبين ويعرف أن يتوارى!. لم يفرض عليّ أبوّته. فرضتُ على نفسي البنوّة إليه!. هذه، لديّ، الصّورة الأمثل لعلاقة الإنسان باللّٰه!. ليست الكنيسة حزبًا، بل مدرسة يتربّى فيها المؤمن على "الآمين" للّٰه!. "ليكن لي بحسب قولك"!. أمّا أنتم فجميعكم إخوة!.

لم يأتِ الأب الياس من تيبيكون رهبانيّ، ولو تكمّل، في ما بعد، ببعض الممارسات الرّهبانيّة الشّائعة، هنا وثمّة. نزعة البنوّة للّه والتّوق إلى الحريّة الدّاخليّة كانا المنطلق والمضمون والأساس لديه. هذا انطبع فيّ منه، في الذّهن، شيئًا من هويّة أنطاكيّة!. لم يكن على تقليد رهبانيّ متوارث!. هذا يمكن أن يعين ويطلق، كما يمكن أن يأسر ويخنق ويقولب، بحيث يؤخَذ المرء بالشّكل، في تفاصيله، بدل أن يسترسل في ما للكيان!. رهبنة الأب الياس كانت كيانيّة!. انطلقت من الدّاخل إلى الخارج!. هذه ميزة مَن يأتي من حركة القلب، ولو كانت مشوبة بلا معرفة للأصول، لأنّ مقاربة الأصول تكون، إذ ذاك، للمنفعة، لا لأنّها شائعة!. والرّهبنة، في الأساس، تؤخذ بالمثال، أو يعلّمها اللّه بالرّوح!. ومتى لقي طالب الرّهبنة ما يفيده اتّخذه، كمَن ينتقي من حدائق النّاس أزاهير للّه!.

ثمّ الجرأة والغيرة على ما للّه ومسيحه كانا دَيْدَنَ الأب الياس في كلّ أمر. في السّبعينات، من القرن الماضي، بعد السّتّينات، عانت كنيستنا انقسامًا، إثر خروج أربعة مطارنة عن إرادة المجمع المقدّس، وإقبالهم على سيامة أساقفة جدد. البلبلة، يومها، بلغت حدّ الصّدام سقط من جرّائه قتلى وجرحى. فلمّا جرى اختيار المثلّث الرّحمات البطريرك أغناطيوس الرّابع (هزيم)، عمد والمجمع المقدّس، يومذاك، إلى تقنين وتطبيع وضع الأساقفة كأساقفة، الّذين سبق لهم أن سيموا على نحو مخالف للقانون. هذا أثار جدلاً واعتراضًا، هنا وثمّة. وكان الأب الياس من بين الّذين اعترضوا على الإجراء

المجمعيّ هذا، لأنّه رأى فيه محاولة "لرأب الصّدع"، في الكنيسة، تشجّع على التّفلّت، وكأنّ المرء يمكن أن يخرج عن طاعة الكنيسة، ثمّ، بعد ذلك، يسامَح بيسر، ويُقونَن وضعُه مخافة أن تكون لتأديبه ذيول انقساميّة، ما عانيناه، وما زلنا نعانيه، في الحقيقة، إلى اليوم!. السّؤال، هنا، طبعًا، هو: أبالمسامحة السّهلة تزول المفاسد وذيولها، في الكنيسة، بذريعة الرّحمة، أم بالتّأديب والتّوبة الحقّ، فيصير تدبير الكنيسة للرّدع، من جهة، ولشفاء الأنفس، من جهة أخرى؟. كان الأب الياس يرى في موقف المجمع المقدّس، بناء لاقتراح البطريرك أغناطيوس، يومها، خطرًا حقيقيًّا على الممارسة الكنسيّة، وعلى مستقبل الكنيسة!. لذلك، أعلن الصّيام، هو والأمّ سلام الرّاقدة (دير مار يعقوب دده)، عن الرّهبان والرّاهبات، وبعث إلى المجمع المقدّس برسالة اعتراضيّة في الشّأن المذكور. وعندما جاء غبطة البطريرك إلى مطرانيّة بيروت، طلب مقابلته، ونزل إليه، وكنت أنا معه، وعبّر عن موقفه من الأمر بشكل واضح صريح!. كلّ ما يعني الكنيسة، لديه، كان يعنيه. لذلك، لم يحسب أنّ عليه أن يسكت، كما ظنّ قوم، بل أن يتكلّم بالأكثر، متى دعت الحاجة!. قالوا: عمل الرّهبان الصّوم والصّلاة بصمت. غيرهم يتولّى المواجهة!. فقال: لو صمت الرّهبان، في الملمّات، في تاريخ الكنيسة، لَما بقيت كنيسة!.

وتستمرّ القصّة...

الأحد ٢٦ أيّار ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة!
(٤)

الأب الياس، بلا شكّ، ظاهرة روحيّة جديدة. في حقيقته، لم يكن معروفًا تمامًا. الحكم عليه، بحسب الظّاهر والمألوف، لا يفيه حقّه، ولا ينقل عنه صورة أمينة. هذا بادٍ، لمَن يعرفه، بما له علاقة، مثلاً، بموضوع جدليّ وحرِج، اليوم، هو "المسكونيّات". لا أظنّ أنّ الأب الياس قابل للتّصنيف، في هذا السّياق، أو أنّه يليق أو يصحّ إلحاقه في فئة من الفئات ذات المواقف الشّائعة من موضوع "العلاقات المسكونيّة". لا هو "مسكونيّ" يقارب الأمر مقاربة فكرِ المندرجين في "المجالس المسكونيّة". هذا، بكلّ تأكيد، لم يكن ليخوض فيه الأب الياس، البتّة، ولمّا يَعْنِه، كما تمثّل، لا مباشرة ولا مداورة. كان يقول إنّ في العلاقات المسكونيّة مجالاً رحبًا للمحبّة الإنجيليّة، لكنّه كان يعي، بألم، ما يعتور تلك العلاقات من شكليّة وكلاميّة فيها "تسطيح" لتلك العلاقات، ما يجعلها، إلى حدّ بعيد، بلا روح، غريبة عن الإنجيل والتّراث، ولو تمسّحت بهما. المناخ المسكونيّ، في نظره، كان

ملتبسًا، ضبابيًّا، في واقعه. كان يسمع، طبعًا، ولمّا يُبْدِ عداء. كان، بالأحرى، يمتنع!. أساسًا، الأب الياس يقول كلمته، إذا كانت لديه كلمة، ثمّ بعد ذلك، يترك الآخرين يسلكون وفق قناعاتهم. فقط، متى أحسّ بخطر على الكنيسة المقدّسة، يخرج عن صمته، بوضوح وقوّة!.

إذًا، لم يكن الأب الياس "مسكونيًّا"، ولا كان تكفيريًّا زمّيتًا!. كان، طبعًا، متمسِّكًا بالتّراث والعقيدة والآباء، شاهدًا لكنيسته. في لقاء للرّهبنة البندكتيّة، في العالم، دُعي إليه، ضمّ الآلاف، أُعطي أن يتكلّم. لم يُسمَح لأحد قبله بالكلام لأكثر من خمس دقائق. بعد ذلك يُقرع الجرس. تُرك على سجيّته خمس عشرة دقيقة وسط هدوء أخّاذ!. تكلّم بفرنسيّة بديعة. ولم يُقرَع الجرس! أثّر كلامه في الحاضرين لدرجة أنّهم أخذوا في التّصفيق!. وعمّ تكلّم؟ عن القدّيس غريغوريوس بالاماس والهدوئيّة والنّور غير المخلوق!. ومَن هو القدّيس غريغوريوس بالاماس لدى الكثلكة الرّسميّة؟. ليس أكثر من هرطوقيّ!. لم يكن الأب الياس تكفيريًّا، إذًا، لأنّه أحبّ بصدق – المكفِّرون يتعاطون النّاس كمقولات، تتماهى ومقولاتهم أو لا تتماهى – ولا كان، بكلّ تأكيد، زمّيتًا. كان واسعًا، منفتحًا، يعرف أنّ الرّوح ينفخ حيث يشاء. حسبُه، بتواضع قلب، أن يلتقط التماعات الرّوح القدس حيثما تراءت. الميوعة في الموقف، لديه، ممجوجة، وكذا التّصلّب والتّكلّس.

العلاقة بغير الأرثوذكس، من المسيحيّين، حتّى لا نتكلّم على غير المسيحيّين، ليست مقاربتها جائزة إلاّ روحيًّا. لا العاطفيّة المجوّفة، المتمظهرة

بالكلاميّة الرّوحيّة، كان لها موقع لدى الأب الياس، ولا العقديّة المتقسِّية الّتي تُضمر أنّ الصّيغ التّعبيريّة الصّحيحة، لبنود الإيمان القويم، كافية لاستقامة الرّأي، كما لو كانت لتنتج، على نحو تلقائيّ، سيرة روحيّة قويمة!. بالنّسبة للأب الياس، العقيدة قائمة في الرّوح!. الرّوح هو ضامن استقامة الإيمان، لا الصّيغ التّعبيريّة، مهما كانت دقيقة!. الهرطقة تضرب العقيدة، لأنّها، في العمق، تكفر بالرّوح!. إذا كانت العقيدة تحدّث عن استقامة الرّوح، فالرّوح هو الّذي يضمن الاستقامة الدّاخليّة العميقة للعقيدة، فلا تضحى كلامًا في الهواء، ولو عن اللّه!. لذا، كان، وحده، مَن سكن الرّوح فيه، حاملاً للعقيدة القويمة!. لا فصل، إذًا، بين العقيدة القويمة والسّيرة الرّوحيّة القويمة، والمبادرة لروح اللّه، حتّى لا تضحى العقيدة "نحاسًا يطنّ أو صنجًا يرنّ"!.

هذا القول الأخير ورد، عند الرّسول بولس، عن المحبّة. في الحقيقة، إذا لم تكن المحبّة هي الّتي تحدِّث عن الرّوح، فلا شيء، البتّة، يحدِّث عنه. حامل "العقيدة"، إذا لم يكن محمولاً من الرّوح الفاعل بالمحبّة، فإنّه يوجد متعدّيًا!. يتكلّم على اللّه ولا يعرف اللّه. يؤمن لكنّ إيمانه ميت!. أليس أنّ الإيمان بدون أعمال ميت؟. وما عملُ اللّه؟. أن نؤمن بابن اللّه بالرّوح والحقّ!. أن يكون لنا ابن اللّه الألفَ والياء في كلّ أمر!. وإلاّ أيّة منفعة؟!. الشّياطين، أيضًا، يؤمنون ويقشعرّون (يعقوب ٢: ١٩)!.

يحزن المرء عندما يرى التّكفيريّين، بالأكثر، كأنّه لا قلب لهم ولا حسّ ولا روح!. لم يكن ليخطر في بال الأب الياس أن يكون أحدٌ قويمًا في عقيدته،

وليس قويمًا في كيانه!. مَن لم يكن ليقصف قصبة مرضوضة، أو يطفئ فتيلاً مدخّنًا، كيف لأحد، باسمه، أن يلغي النّاس، ويقطع ما بينهم وبين اللّه من منطلق التّعابير النّصّيّة؟!. ألعلّ الإنسان نصّ؟. سلطان التّعليم المعطى للأرثوذكسيّة هو في خدمة الكرازة والخلاص لا بغرض الدّينونة!. وحده ربّك يدين، ويدين لأنّه علاّم القلوب!. أمّا نحن فلمّا يُعْطَ لنا إلاّ أن نشهد للحقّ، ولكنْ بمحبّة غامرة وغيرة متّقدة على خلاص العباد، مَن مات المسيح من أجلهم! "أغار عليكم غيرة اللّه"، على حدّ تعبير الرّسول المصطفى (٢كور١١: ٢)!

على هذا، كانت مسكونيّة الأب الياس، على تمسّكها الكامل الرّصين المستنير ببنود الإيمان القويم، مسكونيّة روحيّة، بالدّرجة الأولى!. عدم ثقة "المسكونيّين الشّكليّين"، وكذا الّذين يحدّون أنفسهم بالحرف الّذي يقتل (٢كور٣: ٦)، بعمل روح اللّه، وكلاهما، في العمق، واحد، غريب عن روح اللّه، أقول، عدم الثّقة، تلك، كانت غريبة، بالكامل، عن رؤية الأب الياس وفكره، ومن ثمّ عن كيفيّة تعاطيه الأرثوذكسيّة في علاقته بالأرثوذكس وغير الأرثوذكس، سواء بسواء.

في الدّير، راهب، هو الأخ خليل (زمكحل)، أتى من خلفيّة كاثوليكيّة يسوعيّة. طلب الالتحاق بالشّركة، لأنّه رغب، في روحه، في أن يجمع الكثلكة إلى الأرثوذكسيّة. لم يتخلّ عن كاثوليكيّته. بقي طويلاً لا يلبس الثّوب الرّهبانيّ الأرثوذكسيّ، على الرّغم من اشتراكه في مناحي حياة الدّير إلى حدّ بعيد. هذا سمح له الأب الياس بأن يكون كما أراد، حتّى إنّه سمح له

بمساهمة القدسات في الشّركة وفي الكنيسة الكاثوليكيّة، سواء بسواء. استبان رجلَ صلاة ممتازًا. وقليلاً قليلاً، لبس الغمباز والجبّة، وترك ذقنه يشعر. هذه، طبعًا، لا تصنع راهبًا. الأهمّ هو الرّحابة الّتي أبداها الأب الياس. لكن، أثار وجود الأخ خليل بعض التّساؤلات والمخاوف، هنا وثمّة. طبعًا، هذا موقف لا ينتمي إلى المواقف المألوفة. بإمكان قاصري الفهم، بيسر، أن يدينوه. لكنّ الأيّام أبانت أنّ وجود الأخ خليل، في الشّركة، في الحقيقة، كان غنًى ولم يكن تهديدًا!. وأكثر ما تأثّر الأخ خليل كان بوجه أرثوذكسيّ بارز هو الأب الأرشمندريت أندره سكريما. زبدة القول أنّ مَن كان وراء هذه الخبرة الفذّة وهذا التّعاطي الرّاقي لانقطاع الشّركة بين الأرثوذكسيّة والكثلكة، على نحو مبدِع، كان الأب الياس!. هذا، ربّما، لم يُحدث أيّ تغيير في خارطة الصّراع التّاريخيّ بينهما، لكن الشّهادة المؤدّاة استبانت علامة فارقة أنّ الرّوح يهبّ حيث يشاء، وبمن يشاء، وأنّ ثمّة مَن ليس مستعدًّا لأن يسلّم بآخريّة حال التّكلّس الدّاخليّ المستحكمة بالعلاقات بين الأرثوذكسيّة، كنيسةً، ومَن ليسوا منها، من المسيحيّين!. وفي ذلك دينونة لمن يقيمون في فرّيسيّة جديدة، مهما كانت منتظمة، في ظاهرها!. في اعتماد ما يتراءى معيارًا رياءٌ قاتل!. وما رجال اللّه إلاّ هداة لمَن يبحثون عن الحقّ في حركة روح اللّه، ويستمرّون...

وتستمرّ القصّة...

الأحد ٢ حزيران ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة!.
(٥)

"ليس الخلاص في المعرفة الذّهنيّة
بل في بذل الكيان للّه".
الأب الياس مرقص

في مقدّمة كتاب "السّلّم إلى اللّه"، المنقول إلى العربيّة في دير الحرف، استهلّ النّاقل كلامه بالقول: "هذا الكتاب ليس للمطالعة". وفي مقدّمة كتاب "أصول الحياة الرّوحيّة"، إنّ هذه السّطور هي قبل كلّ شيء قطعة حياة. هذا الكلام هو في أساس هذه المقالة هنا، أيضًا، وإلاّ شرد القارئ عن روحها!.

الخطر الأكبر على الكنيسة أن تتحوّل، بمؤمنيها وخدّامها، إلى كنيسة أهواء!. هذا، إن حصل، يجعل التّركيز على الشّكل دون المضمون؛ ويعوِّض عن الوهن في الرّوح بالتّشدّد في ما للمظهر!. فيُصار إلى المبالغة في طلب ما للحرف - والحرف يقتل - وتسييب ما للرّوح، وإلى تأكيد ما لأصول (التّيبيكون) الطّقوس والتّغاضي عن روح العبادة!. هذا يُعتبر، في المناخ الحاصل، أنّه هو النّهضة!. وتتحوّل الأرثوذكسيّة، على أرض الواقع، إلى

أرثوبراكسيّة: عمليًّا، استقامة الأداء وفق الأصول في مقابل استقامة الرّأي والتّمجيد وفق التّراث الحيّ (في الرّوح والحقّ).

الجهاد الشّخصيّ للأب الياس، ومنحى الأبوّة الرّوحيّة، لديه، تركّزا في وعي أوهان النّفس ومقاومة أهوائها في فعل استئسار لكلّ فكر (هوى) إلى طاعة المسيح (٢كور١٠: ٥). لم يكن الأب الياس بلا هوى. كانت له تجاربه، لا شكّ في ذلك!. اهتمامه برعاية النّفوس جعله عرضة لما يتأتّى عن الاختلاط بالنّاس من تجارب!. في العادة، يُصوَّر الآباء الرّوحيّون كمَن لا يُتعاطى ما فيهم من عيوب، كما لو كانوا بلا خطيئة، أو يعثر الآخرون بزلاّتهم، وبخاصّة الضّعفاء. الأب الياس كان إنسانًا... على رقيّ، طبعًا!. لكنّه لم يكن بمثابة "سوبرمان"!. أتى، كسواه، من بيئة منفتحة، ثقافيّة، اجتماعيّة، ملتزمة كنسيًّا وأخلاقيًّا، لكن دون تزمّت، وعلى جانب كبير من الاهتمام الفنّيّ والأدبيّ والعلميّ. كان في حدود السّابعة والثّلاثين، عندما ترهّب. إذًا، حمل إرثًا إنسانيًّا ذا معالم واضحة وأبعاد محدّدة. طبعًا، الرّهبنة جعلته يُقلع عمّا يمكن أن يكون، في السّلوك العامّ، نافرًا، غير لائق بالرّهبنة. لكنّ مواقفه وطبيعة علاقاته الأساسيّة بالنّاس، في شخصيّته، كانت، بعامّة، قد ارتسمت، قبل مجيئه إلى الدّير. على أنّ جهاد الأب الياس ووعيه الرّهبانيّين جعلا بعض ما كان عاديًّا، في سيرته السّابقة للرّهبنة، يستدعي جهدًا وتعبًا ليس بقليل في حياته الرّوحيّة ذات المدى الرّهبانيّ المستجِدّ ليبلّغه إلى ملئه!.

من ذلك علاقته بالمرأة، بعامّة.

كانت المرأة، قبل الدّير، لديه، أختًا ورفيقة وأنثى!. في الدّير، لمّا يعتزلِ الأب الياس بالكامل وينسكْ!. بالعكس، زادته الحياة الرّهبانيّة حنانًا، ورأفة، ورِفقًا، واهتمامًا برعاية النّفوس!. البعد الرّعائيّ لرهبانيّته تبلور! موقفه العميق من المرأة لم يتغيّر!. الأخوّة للمرأة استمرّت لديه، بكلّ تأكيد. أمّا الرّفقة، فلم يكن لها، وضْعًا، محلّ من الإعراب. ولكن، كيف تحفظ الأخوّة وتنعتق من أثر أنوثة المرأة عليك؟. هذا ليس بالأمر السّهل الميسّر، لأنّ التّاريخ والجغرافيا فيك أنّ الدّنيا رجل وامرأة!. أنت بإزاء حالة غير مستقرّة نفذت فيك بالتّنشئة، وهي قائمة فيك باطّراد، ولا يمكنك أن تواجهها، رهبانيًّا، إلاّ بالصّحو المبين، والجهاد الدّاخليّ الثّابت، والاتّضاع والدّموع، لتنقّحها على خير ما يمكنك!. النّساء اللّواتي بتن يعتمدن على الأب الياس، في بثّ همومهنّ، زدن كثيرًا، من خلال الاعتراف والاسترشاد، وقلّما ردّ الأب الياس أحدًا!. هذا لم يكن من دون دمٍ ثمنًا!.

ثمّ، لا يخفى أنّ للمرأة، في هذا الشّرق، شجونها التّاريخيّة: مجروحة، مقموعة، مستغلّة، بعامّة، يتراوح موقعها بين أمومة، كثيرًا ما يُبخَس حقّها، وكونها "مُستخدَمة" وجسدًا! هذا أثّر، عميقًا، في وجدانها، وجعلها، بالأكثر، تستمرّ، في التّاريخ، على ردّات الفعل، ينقصها، أبدًا، الشّعور بالأمان، وتبقى بحاجة إلى أن تتّكئ على الرّجل بتواتر!. الأخوّة الحقّ، بين الرّجل والمرأة، كوجه من وجوه العلاقة بينهما، تكاد تكون مغيّبة عندنا. المسيحيّة، في هذا الصّدد، تركت بصمتها، بالحريّ، على الأمومة. أمّا الأخوّة، فاستبانت،

بمرور الزّمن، شبه محالة أو اسميّة!. أهذا من السّقوط؟. إلى حدّ ما!. ولكن، هذا من الوهن في الرّوح، بكلّ تأكيد، ما جعل الطّابع الجسدانفسانيّ يطغى الطّابع الرّوحيّ في العلاقة بين الرّجل والمرأة، بعامّة، كما جعل المرأة، في المجتمع الرّجليّ، عنوانًا للظّلم، إلى حدّ ليس بقليل!.

لم يكن للأب الياس، بإزاء ذلك، في روحه، أن يحوّل نظره في غير اتّجاه!

في بيئة محافظة ومنفتحة ومثقّفة ومطعّمة بالإنجيل، في آن، وضمن عائلة مميَّزة قلّما اعترتها عقدة أفضليّة الذّكور على الإناث، ضمّت أربع أولاد وثلاث بنات، تهيّأت للأب الياس فرصة تكوين نظرة والدّخول في علاقة بالمرأة، كأخت، أكثر من الكثيرين، من أترابه، هنا وثمّة. وإذا أخذنا في الاعتبار رصانته وميله إلى الإلهيّات، منذ الشّبابيّة المبكّرة، فإنّه لأمر تلقائيّ أن يكون غريبًا، في رهبانيّته، عن النّظر إلى المرأة كتهديد لمسراه، كما هو حال مَن يعتبرون المرأة من الأخطار الّتي تهدّد، جدّيًّا، سعي الرّهبنة الرّجليّة. وهذا لم يكن قليلاً بالأمس، ولا هو قليلاً اليوم. الأب الياس، في وجدانه، لم يكن من هذه الطّينة!. لذا، لم يعرف التّحفّظ من المرأة مسرًى، في المبدأ!. كان، في داخله، على حرّيّة، ومن دون عقد، في تعامله معها!. الصّورة الأكمل لديه لم تكن في عزلة الرّجل، رهبانيًّا، عن المرأة، ولا المرأة عن الرّجل، بل في نقاوةٍ يقتنيها كلّ منهما تجاه الآخر، بالوعي والحرص وسلامة المسرى الرّوحيّ والمحبّة الإنجيليّة... ما يفضي إلى أخوّة في الرّوح بينهما!. هذا أدنى إلى الواقع الفردوسيّ المشتهى بين النّاس!. بالنّسبة إلى الأكثرين، هذا كان

حلم يقظة!. بالنّسبة إلى الأب الياس، هذا كان وعد الحياة الجديدة، هنا والآن!. "وأنتم جميعًا إخوة"!. لذا، إلى تلك الأرض أبحر!. الكبار يسيرون وحيدين أوّلاً، متى احتدّت قناعاتهم في الرّوح، فيهم، وبعد ذلك يتبع مَن يتبع!. الحياة المسيحيّة شهادة أوّلاً!.

كثيرات تحلّقن حوله والتصقن به!. الحنان يستدعي الطّيور الجريحة!. والأب الياس كان على حنان كبير!. هذا كان خطِرًا، والأب الياس، ببصيرته، كان يعرف ذلك!. وعلى الرّغم من ذلك، لم يشأ إلاّ أن يخوض المخاطر!. كيف تُخضع العواطف الإنسانيّة فيك للحنان الإلهيّ؟. التّجربة أن تجمح المشاعر البشريّة عندك، لتستبين كأنّها الحلّ لهموم الآخرين، وهي ليست كذلك!. كيف كان الأب الياس يحفظ التّوازن بين الإلهيّات والإنسانيّات في روحه؟. هنا بيت القصيد في الجهاد الرّوحيّ للرّجل!. قلّما تحدّث الأب الياس في الأمر!. فقط، بعض كلمات كانت تخرج منه تشير إلى حجم معاناته!. والجواب، كما استبان لي من علاقتي به، كان ثلاثيًّا: الاتّضاع والانكسار أمام اللّه، والصّلاة، والدّموع!. وكما استمرّ إيليّا النّبيّ أربعين يومًا بأكلة من ملاك الرّبّ، استمرّ الأب الياس بتلك الأكلة الثّلاثيّة إلى أن بلغ مشارف أرض الميعاد، أورشليم السّماويّة!.

في هذا الّذي خاض فيه، قلّما كان مفهومًا، أو حتّى مقبولاً، لا من الأبعدين فقط، بل من الأقربين أيضًا، ولكن هذه كانت، بالنّسبة إليه، شهادة!. والمسيحيّة شهادة أوّلاً!. كيف يكون قويمًا، في الحقّ، وربّه، إن لم يستمرّ

قويمًا، في قناعاته، حيال نفسه، وهذا لديه وعد الحياة الجديدة، كما أسبقنا؟!

وحاول الأب الياس، تجسيدًا لقناعاته، في هذا الصّدد، أن يقتبل أخوات في ديره، وفق ترتيب مكانيّ معيّن. هذا استمرّ ردحًا، لكنّه أثار لغطًا وانتقادًا. قلّة كانت على موجة الأب الياس. ما أتاه لم يكن للجميع. وبعد حين توقّف! لكنّه بقي حيًّا ينبض في قلب الأب الياس! النّضج نصيب القلّة! الأكمل ليس للجميع!. لكنّك تنتهي في وضع تكتفي به بمراعاة ضعف الضّعفاء!. "لئلاّ نعثرهم"، على قولة الرّبّ يسوع، ما يجعل الرّائدين، في روحهم، غرباء، في كلّ حين!. النّسور تعاني على رؤوس الجبال، لكنّها تتجدّد!. "أعطني هذا الغريب"!.

نجح الأب الياس أم فشل في مسعاه؟. هذا يحكم فيه ربّك!. لا تعرف الكلمة إلى أين تصل، أو متى تثمر؟. المهمّ أنّ الأب الياس قال كلمته، من خوضه في حقّ اللّه، ومشى، والباقي للّه ومَن يسمعون! والكبار لنتعلّم منهم!.

... وتستمرّ القصّة!...

الأحد ٩ حزيران ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة!
(٦)

كان الأب الياس يحبّ المزاح. كان هذا إرثًا عائليًّا!. كلّ أهل بيته كانوا كذلك. يأتيه عفويًّا. لا سيّما في مستوى اللّعب على الكلام. روى أنّ أولى عفويّاته، في هذا الصّدد، كانت أنّ والدته سألته، ذات مرّة، وكان في حدود الخامسة عشرة: "أُترى، أبوك حَلَق؟". فأجابها: "لا بل، إسوارة!".

يبدو أنّ الأب الياس لم يتغيّر، في هذا الأمر. عرفتُه، كراهب، مجتمعًا إلى واحد وعائلته، أو أكثر، من إخوته. عائلة مُحبّةٌ للفرح بامتياز!. جوّ غير عاديّ!. على أنّ المزاح لم يَعْنِ ابتذالاً، البتّة، بالنّسبة إلى الأب الياس. لا تَعقبه لا ميوعة ولا تراخٍ!. هذا تعاطاه الأب الياس لا فقط في لقاءاته العائليّة، بل كان، إلى ذلك، ميزة في تعامله والنّاس. شيء من هذا طبع شخصيّته، فكان سمة لازمته كلّ أيّام حياته. نزل، مرّة، إلى المستشفى لإجراء فحوصات طبّيّة. وقع، أثناء اللّيل، عن سريره، القليل العرض. في اليوم التّالي، جاءه أحبّة للزّيارة، فعلّق: "جئنا لنعمل check up، فعملنا check down!".

غير أنّ المزاح حمل الأب الياس، الرّاهب، وسط النّاس، وبإزاء غيره من الرّهبان والإكليروس، على التّساؤل: "أفي المزاح ما يضير؟". عندما تكون على غير ما يكون أترابك، وعلى شيء من الاتّضاع، يخزيك ضميرك: "أيليق بي أن أكون مختلفًا عن الآخرين في المسرى، في هذا الصّدد؟". على هذا، في زيارةٍ جمعتنا، أنا وإيّاه، إلى جبل آثوس، جئنا إلى الأب بائيسيوس (القدّيس بائيسيوس الآثوسيّ)، فسأله الأب الياس، عبر الأب إسحق الأنطاكيّ الآثوسيّ: "إنّي كثير المزاح، فماذا عليّ أن أعمل؟". ماذا كان جواب القدّيس بائيسيوس؟". "ألعلّك تمزح أكثر منّي؟". "المزاح، في النّاس، يساعد في التّخفيف من ضغوط الحياة المعاصرة، وما أكثرها!". وهذا، بالضّبط، ما كانت عليه قناعة الأب الياس!. هذا ما زاده قناعة أنّ الرّهبنة ليست في أن تكون غير ما أنت عليه في وجدانك ومزاجك. هذا أنت!. الرّهبنة أن تشذِّب وتنقِّح ما أمكنك تشذيبه وتنقيحه، ممّا يضير، وأن تحفظ نفسك من الشّطط، وتجعل الكلّ برسم البنيان، بنيان ذاتك والآخرين!.

لم يتكلّف الأب الياس المزاح، بل يوحي الظّرف به. الظّرْف من الظّرْف! لذا، لم يأتِ من تخلّعٍ في النّفس، وقلّما كان يُحدث مجرى. يأتي في معرض الكلام، وبعد ذلك يمضي، ويعود الأب الياس ومَن معه إلى الكلام الرّصين. وكما لم يتكلّف الأب الياس المزاح، لم يتكلّف الرّصانة. لا يبحث عن المزاح نظير المتهكّمين، بل يقوله، أحيانًا كثيرة، متى رأى تصنّعًا في الرّصانة لدى محدّثه، أو حزنًا، أو قلقًا. ولعلّي لا أبالغ، إن قلت إنّ المزاح لديه كان محكومًا

بحسِّه الرّوحيّ، بالأحرى!. من جهة أخرى، كان أداة لديه لتنفيس احتقاناته الخاصّة. أوجاع نفسه كان، تارة، يواجهها بالبكاء، ودموعه كانت تسيل بيسر، من حيث إنّ حزنه كان يلتقي والغضب فيه!. وغضبه كان، بالأحرى، داخليًّا!. قلّما سمح له بأن يخرج إلى خارج!. أجل، كان الأب الياس على أنفة كبيرة. ويُخيَّل لك كأنّ الأنفة مساوية للكبرياء. هذا غير صحيح. الكبرياء تأتي من تعظّم وتعالٍ، فيما تأتي الأنفة من كِبَر يقترن، في الإنسان الأصيل، باستعداد لكسر النّفس، والسّلوك في تواضع القلب!. هناك فرق هائل بين الكِبَر والكبرياء!. إن لم تكن في كيانك على كِبر، ما أمكنكَ، في الحقيقة، أن تأتي إلى اتّضاع!. تأتي إلى خنوع!. تمثّل الاتّضاع تمثيلاً ولا تتمثّله! فيما الكبرياء شرود كامل أخرق عن اللّه في فعل تقدير للّذات فوق كلّ تقدير، ما لا يترك للّه مجالاً لولوج النّفس!. قلتُ، أوجاع نفسه كان، تارة، يواجهها بالبكاء، لكنّه كان، تارة أخرى، يواجهها بالمزاح والضّحك!. كيف ذلك؟ سَلِ "المهرّجين" في السّيرك!. يتقنّعون بالسّلوك في الضّحك، ويُضحكون الكثيرين. لكنّك، إن كنت لَمِحًا، أحسست بأنّ وراء حركات المهرّجين آلامًا ليست بقليلة!. هذا، وكثيرًا ما لحظ قوم أنّ في سلوك الأب الياس، في هذا الصّدد، شيئًا من التّباله!. ويبقى القصد، في كلّ حال، في قلب صاحبه!.

على أنّ مَن يعرف الأب الياس، حقّ المعرفة، يعرف أنّ الحزن الكبير والفرح الكبير يلتقيان فيه، كما يلتقيان، بعامّة، في النّفوس الّتي تنفذ إليها أنعام اللّه وألطافه. نفسُه تُبكيه لا فقط لأنّ الوقوف الحيّ، في حضرة اللّه

الحيّ، يجعلك مشمولاً بحنان لا يوصف، بل، في آن معًا، لأنّ نفسك تضيق فيك على قسوة نفسك، فتصرخ، بتأوّه، في أنين عميق، كما صرخ بولس الرّسول: "ويحي، مَن ينقذني من جسد الموت هذا؟!"... الآخرون كانوا له وجعًا، أبدًا، لا فقط شركةً في آلامهم ومعاناتهم، بل، بالأكثر، لأنّه قلّما وجد مَن يطلب، حقًّا، أن يخرج من نفسه ومن خطيئته. وكثيرًا ما كان، كمَن يقرِّر، يقول، من منطلق معرفته بنفسه والآخرين:" الإنسان لا يتغيّر!". يتلطّف بالأوجاع ونعمة اللّه ولا يتغيّر!. كنّا نتجادل في الأمر، بمَن حضر حوله، دون أن نجد، في العمق، جوابًا شافيًا للتّسآل!.

قسوة قلب الإنسان، بعامّة، وغلاظة رقبته، كانتا تضنيان الأب الياس، الّذي زادت معرفته بالنّاس لأنّ معرفته بذاته زادت!. على هذا، وجد الأب الياس نفسه، بإزاء المقبلين إليه، بالأحرى، كأنّه حائط مبكى. يأتون لينفّسوا، بالأكثر، احتقاناتهم، بالشّكوى والبكاء. وكان الأب الياس يسمع ولا يكفّ عن السّماع. ثمّ يذهبون. هؤلاء كانوا، إلاّ بعضًا منهم، أبناءه الرّوحيّين وبناته الرّوحيّات!. وعلى الرّغم من ذلك، لم يصرف أحدًا!. في متناول الجميع أبدًا!. طبعًا، كان يقول كلمته لمَن يسمع، وقلّة كانت تسمع حقًّا!. على أنّ الكلمة إن لم تفعل لتوّها، فإنّها تبقى بين الضّلوع، ولا تعرف أين ولا متى تنقدح في وجدان صاحبها!. الكلمة تقولها، ربّما، في غير أوانها، لأنّ ساعة تأتي تحرّكها نعمة اللّه وشجون النّفس، فتثمر!. خرج الزّارع ليزرع!.

ولكن، كان الأب الياس رجل الفرح الكبير لأنّه كان رجل الرّجاء الكبير!

في وجدان الكثيرين، يقفون عند معاناتهم، فلا يعرفون الفرح في الرّوح. يبقى سعيهم في حدود النّفسانيّات. ولا غرو، لأنّك ما لم تعِ أنّ مسيحك مفتقدُك، أوّلاً، بالآلام التّدبيريّة، لينقّيك، فكيف تعي أنّه بالصّليب يأتي الفرح إلى كلّ العالم، لا فقط صليب المسيح، بل صليبك اليوميّ أيضًا؟. "مَن أراد أن يتبعني، فليحمل صليبه، كلّ يوم، ويأتِ ورائي!".

الكلام قلّما كان حلاًّ لهموم النّاس، في علاقة الأب الياس بمُسارّيه، ولو خفّف بعضًا من أثقالهم. الأب الياس، في الحقيقة، كما عرفته وخبرته، كان يتبنّى الآخرين ويتابع شؤونهم بالصّلاة والدّموع والسّؤال والافتقاد أبدًا. علّقت إحدى الأخوات على نهجه، ذات مرّة، بالقول: "لم يحمل أحدًا على اليأس يومًا!". كان الأب الياس يبدأ، في تبنّيه للنّاس، بنعمة اللّه، من حيث يكونون، ليأخذهم، برفق كبير، إلى حيث كان يرجو أن يجعلوا ربّهم يتولاّهم بالكامل!. وكثيرًا ما رأى زرعًا ينمو حيث لم يتوقّع، لأنّ الحجر الّذي رذله البنّاؤون هو صار رأسًا للزّاوية!. لذا، زرع تعهّدًا ولمّا يكفّ عن التّعهّد، لأنّه علم أنّ الآتي هو في يد ربّه!. أما قال بولس الرّسول: "أنا زرعت وأبلّوس سقى، لكنّ اللّه كان ينمي؟".

مزاح الأب الياس فهمته القلّة، وكثيرون لم يفهموا!. بعضهم كان يستهجن ما يأتيه عفوًا، ويحكم عليه بما لا يليق!. لا بأس!. بالعكس، هذا كان نافعًا، لأنّه يخز النّفس فتراعي الضّعفاء بالأكثر، الغرباء عن أمداء الحياة الدّاخليّة!. لكلٍّ كتابه يقرأ فيه!. كثيرون يكتفون من حقّ الإنجيل بالسّلوك

المعلّب، لأنّهم لا يعلمون، والأب الياس كان على حرّيّة داخليّة فذّة!. فلا عجب إن بقي غريبًا عن أكثر مَن عرفوه!. الحرّيّة دائمًا مخوفة، لأنّ قلّة تعرف أن تتعاطاها، إلاّ عشراء ربّهم!. "الأصول" في التّصرّف تريح أكثر!. أن تبقى في حدود المألوف!. لكنّ الأب الياس خرج عن المألوف، لذا، صار، في نظر الكثيرين، معلّمًا مرموقًا للرّوحيّات من المعلّم!.

... وتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٦ حزيران ٢٠١٩

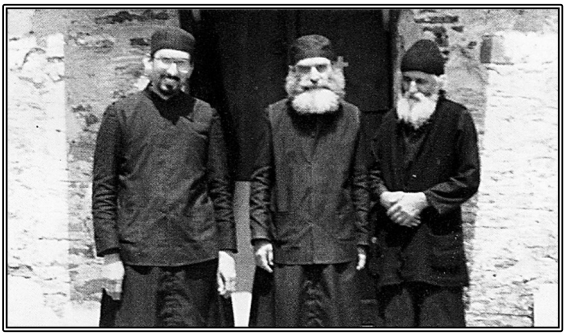

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاليّة
(٧)

الإنسان عين. يتجلّى في عينيه. تواصلُ الكيان بالكيان لا يكون إلاّ بتلاقي العين بالعين!. لغة العين أبرز لغات الإنسان ومحورها. لا بديل عنها ولا مثيل لها. كلّ معرفة، من دون لغة العين، ناقصة سطحيّة. لا تعرف ما في الإنسان إلاّ من خلال عين الإنسان!. العين لا تكذب، وإن تعاطى صاحبها الكذب. تُظهِر الإنسان على حقيقته... لمَن يعرف كيف يقرأ!. هذا في ما خصّ الإنسان. الكلام في روح اللّه وقلب الإنسان شيء آخر.

كانت عين الأب الياس على بلاغة فذّة!.

لبس نظّارتين قاتمتين في أوائله، لكنّه تخلّى عنهما في ما بعد. أعرف، كانت عيناه على شيء من الضّعف. يقرأ كثيراً ويكتب كثيراً. لكنّهما، إلى ذلك، أدّتا وظيفة أخرى. هذا لا تعرفه إلاّ متى تسنّى لك أن تعرف الأب الياس عن كثب، لا فقط في مستوى المعرفة الفكريّة. المعرفة السّطحيّة الظّواهريّة لست أذكرها لأنّها عابرة. إذًا، لا فقط تعرف الأب الياس، في مستوى ما للفكر، بل، بالأولى،

في مستوى ما للقلب والكيان. لذا، كان أبلغ في ما للعين ممّا كان في ما للّسان!. وأبلغ ما في خطابه دموعه وصلاته!. والدّمع والصّلاة، لقلب لمسه روح الرّبّ، جناحا طائر واحد!. كلّ ألفاظ العين، لدى الأب الياس، كانت فصيحة!.

قلت، في مقال سابق، إنّ معرفتي الأولى به كانت وهو في توار وراء زجاجتين سوداوين. كلّه، يومها، حتّى بقيّة شعره، كان أسود!. بالنّسبة إليّ، لم يكن هذا من دون مغزى. هذا ختم صحراء! خرج بالكامل من عالم الأحياء! اقتبل الموت عن نفسه بالكامل! وبما أنّ هذا لا يقتصر على ما للظّاهر، فإنّه أسدل ستارًا على عينيه. لا فقط حَجَب رؤية النّاس له، بل حجب، بالأولى، رؤيته هو للعالم، حتّى لا تكون مسيرته في ما للظّاهر، بل في ما للقلب، ما ينبغي أن تكون عليه الأمور، أصلاً، وإلاّ لا معنى لمغادرته "لاذقيّته"!. كانت نظّارتاه مؤشّر دخوله إلى أغوار عفّ عنها التّاريخ الحديث عندنا!.

كان الأب الياس حييًّا في نشأته. هذا إلى رصانته. هاتان الصّفتان، لمّا اقترنتا بالرّغبة في الخروج من العالم، تبلورتا طلبًا للملء!. البرّيّة كانت لديه ملتقى السّماء بالأرض. وإذ لم تكن الصّحراء الماديّة تعنيه، إلاّ بمقدار ما تساعده على ولوج الصّحراء الدّاخليّة، في نفسه، لأنّه لم يشأ أن يغادر العالم إلاّ بقصد الاتّحاد بالنّاس، لا سيّما ناس كنيسته، ومن ثمّ بذْل ذاته، بخاصّة لرعاية الشّباب، أقبل على عنف مع نفسه، لا هوادة فيه. الأب الياس، لا سيّما في أوائله الدّيريّة، طلب أن يوتّر حبل نفسه، حتّى بصق دمًا!. عندي أنّ الأب الياس، في عمقه، صار، في ما بعد، عطوفًا، كما صار، أو قل ازداد

رفقًا بالنّاس، في أوهان نفوسهم، لأنّه عرف هشاشة نفسه أوّلاً وبالأكثر، ومجّها، وقسا على ذاته قسوة كبيرة في المرحلة الذّهبيّة من حبّه الأوّل.

قليلون يعرفون أنّ الأب الياس كان يتوق إلى الكمال، بتصميم لا يلين، وكان، في آن، يحتقر نزوع نفسه إلى أوهان الضّعف، لا فقط لأنّه ازداد سريعًا، لتشدّده مع نفسه، معرفةً بنفسه، بل لأنّه كان يحمل، في قرارة نفسه، جراح كنيسته وتكلّسها، وروحَ الرّيادة في سبر أغوار الحياة الدّاخليّة الّتي اعتبرها أساسًا لكلّ نهضة ممكنة لشعب كنيسته، توسّمًا لحلم طائر الفينيق في قيامته من رماد التّخلّف والتّردّي!. وفي ذلك، تخطّى الأب الياس نفسه واندفع إلى صحرائه الدّاخليّة بهمّة ونشاط كبيرَين. كان، معًا، يرى بلادة نفسه ويمجّها ويرى إلى زمن جديد، اشتهاه وعدًا لكنيسته القعيد!.

بالعودة إلى النّظّارتين السّوداوين، وما ربض وراءهما من أسرار النّفس، هذا، وعلى الرّغم من أنّ أعماق الأب الياس، قليلاً ما كشفها لأحد، فإنّ مَن رافقه كان بإمكانه أن يلاحظ الكثير ممّا وراء الحجاب، بخاصّة بعدما نزع الأب الياس نظّارتيه، ولو بصورة غير نهائيّة. صلاته الآتية بيسر ودموعه الّتي تسيل بصمت ووفرة كانت من معين كيانه بعدما استغرق سنينَ في التّوغّل في صخريّة نفسه. بلى، بذل دمًا قبل أن يستنبع ماء للعين وصلاة للقلب!.

في جلوسك إليه، كان بإمكانك أن تلمح أنّ النّظرة، في عينيه، لم تكن إلى ما أمامه بل إلى البعيد وإلى داخله في آن، كمَن يستحضر ما هناك إلى ما هنا، ويحمل ما لديه هنا إلى ما لدى ربّه هناك، في فعل ترجٍّ، يتلألأ في عين

مرطّبة بالدّمع أبدًا، لا سيّما في الملمّات، والآلام والأحزان، الّتي يلقيها عليه الموجوعون في اعترافاتهم. صحيح، كان يقول عن نفسه إنّه سلّة مهملات للنّاس، لكنّه كان، بنعمة اللّه، يرفع المهملات إلى ربّه، بأنين كيان، ليحوّلها سمادًا لزرع جديد في النّاس. لم يكن يسمع ليسمع فقط، بل، بالأولى، ليسأل ربّه أن يرطّب نفوس قاصديه، حتّى لا تذهب معاناتهم سدى!. عينا الأب الياس، في كلّ حال، في تركيبة وجهه، لم تكونا نافرتين أو مسطّحتين، كأنهما من صفحة الوجه، بلا نتوء، بل كانتا إلى الدّاخل، بشكل ملحوظ، تحدّثان، بالأحرى، عمّا يعتمل في داخله، في قلبه!.

في عينيه، أيضًا، كان سكون وثبات. كان ضنينًا بصون هدوء نفسه، مهما اضطربت الأمور لديه ومن حوله. لم أعرفه، يومًا، يترك عواطفه دون لجام. يخاف؟ لا شكّ! كما قلت سابقًا، لم يكن بلا هوى، لكنّه يمسك نفسه فلا ينفرط عقدها!. ومتى اشتدّت عليه الصّعاب يبكي!. الصّلاة كانت منفذه وربيبته في كلّ حال. ولا صلاة لديه من دون دمعة ولو داخليّة، لأنّه كان يمجّ الصّلاة بلا إحساس! الكلام عينه يوافق سائر العواطف لديه. يفرح ويحزن ويصدر صيحات ابتهاج مع نَقْفِ الإصبع: "Allons nous à la marchandise"! في ذلك كلّه، في كلّ حال، كان، بحسّه الدّاخليّ، يحفظ نفسه في توازن أخّاذ!.

وماذا أقول في حنان عينيه؟. يضمّ الآخرين برفق وحنان كبيرين، لا سيّما متى كانوا موجوعين!. يبثّهم الأمان والرّجاء!. يَفهمهم. يُلازمهم. يَتّخذهم. ويأبى أن يُخليهم. فلا غرو إن قصده العديدون. لم يعطهم حلولاً، بالضّرورة، لهمومهم.

همّه، أوّلاً، كان أن ينقل إليهم محبّة الرّبّ يسوع ومحبّته هو، أنّ فيها الحلّ لكلّ ما يعانون. لذا، كانوا يغادرونه بسلام. يدلّهم إلى مَن بيده الحلّ والرّبط، وبعد ذلك، إن وعوا، تنحلّ همومهم!. القاعدة أنّ الكلّ هو من أجل أن نأتي إلى السّيّد، فإن تفقّهنا بالألم، إن كانت المعاناة ألمًا، فلا يعود للألم مبرّر وجود. يرتحل! ربّك هو المرتجى في كلّ ما تعبر به، فمتى جئتَه تَحقّق الغرضُ ممّا جاء بك إليه. هذا، إذ ذاك، إمّا يتبدّد كأنّه لم يكن، أو يبقى، من باب تدبير ربّك، دون أن يضنيك! تعايشه لأنّك تتعلّم أنّنا إن عشنا فللرّبّ نحيا وإن متنا فللرّبّ نموت!

لبس الأب الياس نظّارتيه لكي لا يعود ثمّة ستار بينه وبين النّاس. القريب من ربّه قريب من الجميع. ومَن أعطاه ربّه أن يعاينه بحسّه، أوّلاً، ثمّ وجهًا لوجه، فإنّه، تلقائيًّا، يعاين النّاس في أوجاعهم، معاناةً، إذ يضحى كأنّه شريك لهم فيها. هذه لغة الوداد!. لغة العين هي لغة القلب بامتياز!. تُعلّمُ الحبَّ. تُشرق نورَ مَن أحبّ على مَن يرومون المحبّة. في نهاية المطاف، كان الأب الياس إلى ربّه، أو، على نحو أدقّ، يتيمًا إلى ربّه!. عرف معنى قول السّيّد لتلاميذه: لا أترككم يتامى لأنّي آتي إليكم!. لذلك عرف، عرف الأب الياس أن يتبنّى النّاس فلا يكسر اليُتمُ قلوبهم!. يسمح ربّك بأن تقع في اليتم لتعود إليه متيّمًا!. لَعمري، ذاق الأب الياس الوَجْدَ الإلهيّ ورحل وقلبه يردّد ما طالما ردّده لدينا: "حبيبي يزمّر لي وأنا أتبعه" (نشيد الأنشاد)!.

وتستمرّ القصّة...

الأحد ٢٣ حزيران ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٨)

تتكلّم على الموت أو لا تتكلّم عليه، يبقى إحساسُك بأنّك مائت كامنًا وراء كلّ ما تعمل. يدفعك إلى كلّ ما تأتيه. إمّا تستسلم له فتحيا على "المخدّرات"، من كلّ نوع، في مسعى للهرب منه. حياتك، إذ ذاك، سلاسل هروب!. وإمّا تتعلّم أن تحبّ لتقوى عليه. وحده الحبّ أقوى من الموت!. هذا وحده هو الصّليب اليوميّ المشروع والنّافع الّذي دعاك الرّبّ يسوع المسيح إلى حمله، إذا أردت اتّباعه، لأنّه بالصّليب وحده أتى الفرح إلى كلّ العالم!. للحبّ عناؤه، طبعًا. ولكنْ، ما لم تكن حياتك عناء من أجل الحبّ، فلا حياة تأتيك. تسير من موت إلى موت إلى الموت!. التّعب، التماسَ الحبّ، هو وحده الدّواء المرّ الّذي يقوى على الأمرّ. بالموت الإراديّ، وحده، من أجل الحبّ يقوى المرء على الموت المفروض عليه بالطّبيعة المائتة!. الحبّ، متى سكن في الموت الّذي يعتمل فينا، كلّ يوم، يحقّق قولة السّيّد: "مَن كان حيًّا وآمن بي، فلن يرى الموت إلى الأبد". حتّى موت الجسد يصير في

خدمة الحياة!. أمّا بعد، فالحياة تأتي من الحبّ. المحبّة تسبق الحياة. المحبّة هي الكيان. والحياة نتيجة. المحبّة تُحيي، ولا حياة حيّة من غير محبّة، لأنّ اللّه محبّة!. في ما عدا ذلك كلّ مسعى للإفلات من الموت، مهما كان ذكيًّا، غباء وتفه!.

رجال اللّه لا نفهمهم ولا نفيد ولا نتعلّم منهم إلاّ إذا أحسسنا، في عمق كياناتنا، بما أحسّوا ويحسّون هم به بقوّة. تلاقينا وإيّاهم، في مستوى القناعات والعواطف والأفكار وحدها، لا قيمة له!. نقرأ عنهم، إذ ذاك، ولا نقرأهم!. لذا، لا نعرفهم إلاّ إذا عرفنا ما خرجوا من العالم من أجله!. لا ينتظرون أن يُخرجهم الموت من العالم؛ يَخرجون هم إليه، هنا والآن، بإرادتهم!. وليس أحد إلاّ يعرف، في قرارة نفسه، إن شاء، ما خرجوا من أجله. ما فيهم فيك!. فقط، يحيون في وصيّة المحبّة لأنّهم يأبون أن يموتوا، وأنت تحيا، في استسلامك للموت، وأنت لا تعلم، إن استغبيت المحبّة، إذ تهرب كيانيًّا، بمتع العقل والنّفس والجسد، لتنسى، إلى أن تسقط، أخيرًا، رغمًا عنك، صريعًا!. الباقي تفاصيل!. لكنّنا نبحث عمّا وراء التّفاصيل!.

كان الأب الياس رجل اللّه. بهذا المعنى الّذي أبديته كان رجل اللّه. كلّه كان توقًا للحياة والفرح، وكلّه كان إحساسًا عميقًا بالموت في آن!. والحياة والفرح لديه كان لهما رقيّ. لم يكن بإمكانه أن يكون مبتذلاً. الهرب من الموت لا يكون، في الحقيقة، إلاّ بالابتذال، لأنّ الخطيئة هي في الابتذال، ووحدها الخطيئة شوكة الموت. الحياة والفرح، في رقيّ النّفس، مجبولان،

أبدًا، بالحزن، بسبب الموت!. لذلك، حِدْ عن الخطيئة، يشدّك الفرح والحياة، لا محالة، إلى مسيح الرّبّ!. فلأنّ الأب الياس التزم الحياة والفرح، لذلك خرج من العالم، لأنّ مباهجه مجبولة بالابتذال. في العالم حزن يترسّخ، ومن ثمّ خطيئة تتفشّى حتّى اللاّحسّ!. لا حلّ ولا جواب!. الحياة والفرح، اللّذان لا يُنزعان منّا، ليسا، هناك، في الخارج، في العالم، بل في الدّاخل، في القلب، في عالم القلب، في الحبّ!. من هنا أنّ مذاق الفرح والحياة، لدى الأب الياس، هو ما دفعه إلى التماس الفرح الّذي لا يخبو، والحياة الأبديّة!. ما هو هنا ليس فقط ناقصًا، بل معطوب! لا يمكنك أن تَسلم من الخطيئة، في العالم، لا سيّما في الزّمن الأخير، إلاّ بشقّ النّفس!. أما قيل "محبّة العالم عداوة للّه"؟. وأما قيل أيضًا: "اخرجوا من وسطهم واعتزلوا، يقول الرّبّ. ولا تمسّوا نجسًا فأقبلكم وأكون لكم أبًا، وأنتم تكونون لي بنين وبنات" (٢كور ٦: ١٧ – ١٨)؟.

قلّما تكلّم الأب الياس على الموت، من زاوية ما يعتمل في نفسه في شأنه. فقط، أذكر، في موقف وجدانيّ، أنّي أبديت أنّ الإنسان يعيش مع الآخرين ويموت وحده. وإذ نظرته في عينه، رمقني بإيماءة فيها الموافقة والدّمعة والانكسار!. لَعمري، علّمتني الحياة أنّك بمقدار ما يعظم الحنان فيك يعظم الإحساس الكيانيّ بالموت فيك، والعكس صحيح!. وأقصد بـ"الكيانيّ" ما هو من الواقع العميق، ولكنْ، ما هو من الأصالة الإنسانيّة في آن!. هذا يشدّك إلى النّاس لا عنهم، لأنّه لا جواب غير النّاس، أعني الحبّ!. الطّبيعة البشريّة، متى صدقت، تقول ذلك!. أمّا الهرب من النّاس، فيعكس مسعى

للهرب من الموت على نمط قايين ملعونًا!. إشفاق الأب الياس على الطّبيعة البشريّة حتّى الدّمع كان من قبيل مواجهة الموت في نفسه وفي النّاس!.

وللصّلاة، أيضًا، موقعها في الحرب اللاّمنظورة الّتي مع الموت فينا وفي العالم!. الصّلاة قَبَس من محبّة اللّه، أو قل من اللّه المحبّة. هي روح الحياة يبثّها العليّ فينا. كلمة، حركة، نأمة قلب، طفرة حسّ عميق يحرّك بها ربّك حشا الإنسان، يستعيده إنسانًا أصيلاً، يعلو به على ترّهات الخطيئة، يصله بذاته (بذات اللّه)، ومن ثمّ بذات الإنسان، كلّ إنسان، في انعطاف على بشريّة امتلأت جراحًا!. "أريد رحمة لا ذبيحة"!. بهذا المعنى بالذّات، كان الأب الياس رجل صلاة بامتياز!. صلاته امتلأت دموعًا، من معين الدّم والماء، الخارجَين من قلبٍ انعصر على بشريّة قاسية وجريح في آن!. الدّموع الرّقراقة ترقّق العظام وتجعل الكيان على رقّة أخّاذة!. وبكى يسوع!.

لم أكن مع الأب الياس، عندما أسلم الرّوح. ولست أعلم إن كان مَن جَانبه في ساعته الأخيرة قد درى في لحظة الفراق بما جرى في تلك النّفس الّتي كان الحسّ بالموت، أبدًا، يشتملها قبل كلّ شيء، وفي كلّ شيء، وبعد كلّ شيء، على مدى السّنوات الّتي اعتزل فيها عن نفسه والعالم. أعلم أنّه، في الثّلاثاء عصرًا، قبل صعوده إلى ديره، ليرقد في الأربعاء، كان إلى هناك، هنا، حاضرًا إلى ربّه، لدينا، عندما ركعنا أمامه، وصلّى علينا صلاته الأخيرة. كانت حجّةَ الوداع إلى أن نلتقي، ونحن في اللّقيا، اليوم وغدًا فيه. لا أذكر كلماته. أذكر أنّه سكب روحَه فيما طفر كيانُه في عينيه، وقال الحبّ كلّه!.

لم يكن على أسًى! كان في الرّجاء الكبير! أحببتكم وأُحبّكم! ألا كان مسيح الرّبّ ربيبكم إلى أن نلتقي! بعد ذلك، صعد إلى صومعة ديره واستعدّ! استحمّ بالماء والدّمع! وجلس في سريره ينتظر الآتي. فلمّا أتوه بالكأس المقدّسة، والقدّاس الإلهيّ يُقام في الدّير كلّ أربعاء وسبت، إضافة إلى الآحاد والأعياد، ساهم القدسات، ورفع عينيه إلى فوق، كعادته، وغادر! اللّه معك! اللّه معكم! قد تمّ!. وأحنى رأسه وسافر!. وأسفر اليوم عن روح من الرّوح انبثّ فينا منه من جديد!.

خرج الأب الياس إلى بيت لحم السّماويّة لأنّه كان من أمّة الملوك!. وفي السّنة الثّامنة عاد إلى "ناصرتنا" جديدًا من جِدّة لم أُدركها تمامًا فيه، في حياته. بعدما رقد، صار إليّ أدنى إلى تاريخ!. رائحةً عطرة!. لكنّي لم أعرفه في أعماقه. كان فيّ خبرة، لكنّي لم أكن منه كلمة. احتاج الأمر إلى ثمانية أعوام ليُكتتب بيننا. شيء فيّ، إذ ذاك، استيقظ. رأيته في روحه كما لم أره من قبل. كان فيّ ولم أعرفه. كان ذلك في أسبوع ميلاده، هذا العام. إذ ذاك، امتدّت فيّ الرّغبة في كتابته، وأنا لا أعرف كيف أُبحر. ألفيتُه فيّ وأنا فيه، منّي وأنا منه. لم أعد أدري: أَمِن ذاتي أكتب، أم منه؟. كأنّي، في السّنوات الّتي ربّاني، تكوّن فيّ منه ما صار منّي ولم أَعِه! صرتُ كأنّي أكتب أو أرضى أن يستكتبني ذاتَه، غيرَ عالم بما إذا كان ما يتفتّق لديّ من الكلام، منه أو منّي!. أنّى يكن الأمر، فلست أعرف الكتابة، كما سبق لي أن خبرتُها، على يُسر، ولا من أين تأتي، كما أعرفها هذه الأيّام! إحساس عميق واحد حادّ

يقبض عليّ: أنّ ربّك يشاء لخفيّات الرّجل أن تخرج إلى النّور!. ما انقطع، تدبيرًا وتخميرًا، يعود إلى الوصال من جديد...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٣٠ حزيران ٢٠١٩

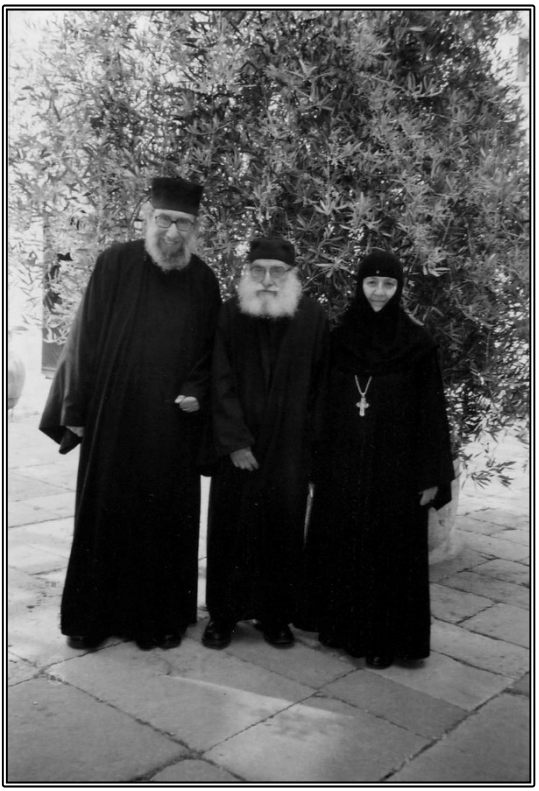

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٩)

الكنيسة صلاة لأنّها صِلات. تصل الإنسانَ باللّه، في روح اللّه، والإنسانَ بالإنسان وسائر خَلْق اللّه. إنّما هي جاذبيّة المحبّة في الصّلاة ما يشدّ قوّات السّماوات والأرض، بعضها إلى بعضها الآخر، وأحدها إلى الآخر، لتحفظ الكلَّ واحدًا، والمسافةَ بين الواحد والواحد، بالقدر الّذي يجمع إلى الواحد، الآب السّماويّ، ليصير الآب الكلّ في الكلّ، وتثبت حرّيّة الواحد في الحقّ إلى الأبد. لذا، كانت القوّة الّتي تسيّر علاقة الخالق بالخَلْق، والخليقة، في ما يتراوح بين أبسط ما فيها وأعقده، هي قوّة الصّلاة من حيث هي قوّة المحبّة. بلاها تختلّ الخليقة وتتضارب المخلوقات في ما بينها فلا تثبت. إذا كانت للخَلق سُنَنُه، فالصّلاة هي سُنّةُ السُّنن، وقوّةُ المحبّة الّتي تضمن استمراريّة فعلِ هذه السُّنن، وإلاّ اختلّت. غاشمةً تكون تلك السُّنن، وتبدو، في ذاتها، كأنّها تأتي من العدم، وكذا الإنسان، فيها وبإزائها!. حاشا أن يكون الأمر

كذلك!. فوراء كلّ ما في الوجود، مهما تفه، في عين الإنسان، ومهما عظم لديه، أقنوميّة لا شكّ فيها!. لا فقط السّموات تذيع بمجد اللّه، والفلك يخبّر بأعمال يديه، بل الخَلْق يسير بقوّة الخالق، في كلّ تفاصيله!. "كلّها إيّاك تترجّى لتعطيها طعامها في حينه. فإن أنت أعطيتَها جمعتْ... تصرف وجهك فيضطربون. تنزع أرواحهم فيفنون وإلى ترابهم يرجعون. تُرسل روحكَ فيُخلَقون وتُجدِّد وجه الأرض" (مز١٠٣: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠). الخَلْق فعلٌ مستمرّ مبتغاه ربُّك، أو يتداعى!. لذا، كانت الصّلاة روح العالم أو يموت!.

كلّ سعي الأب الياس كان، لا فقط ليصير رجل صلاة، بل ليصير صلاة!. أتعب نفسه، لا سيّما في أوائل عبوره، لتصير الصّلاة لديه نَفَسَه!. شكل الصّلاة يساعد، لكنّه لا يصنع المصلّي، وبالأكثر لا يجعله صلاة!. تأتي الصّلاة من توق، من أرق، من شوق!. وجهَك، يا ربّ، أنا ألتمس!. إشكاليّة الصّلاة أنّها ما لم تأتِ من حبّ فإنّها لا تأتي إلى حبّ!. لكنّ الحبّ الّذي يحرّك التّوق في الحشا ما يأتي إلاّ ليزدوج بمخاض لولادة جديدة. كلّ نفس وثّابة إلى جدّة الحياة؛ لأنّها، إن وعت، ألفَتْ ذاتها في عتاقة مضنية بحسّ الموت. كثيرون يهربون، بالهوى، من الضّنك. لكن، ثمّة مَن يصرخون الجدّة بوجع القلب، وإلاّ ما يقدرون أن يستمرّوا! لا حياد في ما لربّك!. تسير معه أو تقوم عليه، وإن كنتَ لا تعلم ولا تعي!. "مَن ليس معي فهو عليّ"!.

على هذا، أقبل الأب الياس على الصّلاة بِنَهَم، وعلى كلّ ما يساعد عليها: النّسك، والتّعب، والفقر، والصّمت... لا تسل عن الصّلاة الّتي كان

يتعاطاها، صلاة يسوع، أم سواها، فالرّغبة العميقة في الصّلاة أخذت بمجامع نفسه. أمّا أيّة صلوات نهل منها، فما كان مألوفًا، لا سيّما الخِدم اليوميّة، والقداديس الإلهيّة، والمزامير، وصلاة يسوع... السّهرانات، في أوائل الدّرب، لم تكن في الممارسة. سرّ الشّكر، إضافة إلى الآحاد والأعياد، كان يُقام كلّ أربعاء وسبت. المزامير، بخاصّة، كان كتاب الصّلاة بامتياز لديه. نقّح ترجمة عرمان (١٩٥٤)، وتولّى دير الحرف، مذ ذاك، الإشراف على نشرها. قال وكتب، في المزامير، كلمات هامّة تعبّر عن كيفيّة تعاطي المؤمن لها. "نجد فيها"، قال، "ما ينطبق على كلّ الحالات الّتي يمكن أن يمرّ بها المرء... حزنًا أو فرحًا، اضطرابًا أو سلامًا، استغفارًا وتضرّعًا، أو شكرًا وتسليمًا، إلخ... فيتعلّم المرء من خلالها كيف يصلّي". ويلفت إلى المزامير كتاريخ ونبوءات في المسيح، لكنّه يؤكّد، إلى ذلك، تلاوتها على الصّعيد الشّخصيّ، "كأنّنا نحن واضعوها"، على حدّ تعبيره. "نتلوها من خلال المسيح ومعه، كما أنّ المسيح يتلوها من خلالنا ومعنا". هنا، يسترسل في إيضاح كيفيّة ذلك، فيبدي أنّ هذا الأمر يحصل لأنّ يسوع تبنّى بشريّتنا ولبسها. وهناك، من أعماق ضعفنا، يتضرّع إلى الآب من أجلنا ومعنا وعنّا. هكذا، نجدنا متّحدين به في نوع من تداخل سرّيّ كيانيّ، فيصلّي الرّوحُ فينا بطراوة وقوّة، فلا تعود صلاتنا نكرة جافّة. ويلاحظ الأب الياس أنّ الرّاهب الّذي يصلّي المزامير دائمًا، في التزام الحياة الرّوحيّة، تعكس له وجهَ وواقعَ الجهاد الدّائم، وكيف أنّ الإيمان، بالنّتيجة، وكذا الاتّكال على اللّه والرّجوعَ الدّائم إليه، يغلب!. "لن يعترينني

الخوف"، قال المرنّم، "لأنّي عليك أتوكّل" (مز٥٥: ٣)!.

ويستكمل الأب الياس مقاربته للمزامير بأنّها، أخيرًا، أداة الصّلاة، على صعيد الكنيسة جمعاء، كجسم واحد في المسيح، تستنجد معًا، وتستغفر، وتتضرّع، وتشكر، وتتهلّل بصوت واحد معه؛ فتقوى وتعيش!.

مرّات، لفتنا الأب الياس إلى أنّ الصّلوات، في الشّركة، طيلة خمسين عامًا، لم تتوقّف إلاّ يومًا واحدًا، عندما مرض كلّ أهل الدّير ولازموا الفراش. وإذا حدث أن وُجد، خارج الدّير، في مهمّة، فإنّه كان يتلو الصّلوات غيبًا، مستعينًا بالسّواعي الصّغير، لما هو متغيّر، متى تيسّر، لعبد اللّه شقير. كم من مرّة فعلنا ذلك سويّة، في السّيّارة، ونحن مسافران!. هذا كان يتعاطاه الأب الياس دون تكلّف، وقوفًا أو قعودًا، أو حتّى فيما كنّا نمشي على سطح صالون الكنيسة المارونيّة الملاصقة للدّير. حتّى في الفناء الخارجيّ، لجهة حرج الدّير، كنّا نصلّي صلاة النّوم الصّغرى، ونحن وقوف، في عتمة المساء وهدوئه، أمام سماء صافية، ونجوم تتلألأ، وقمر مشعّ، وصرّار يئزّ، أو نبقى جُلّسًا منشغلةٌ أيدينا بتنقية الفول واللّوبياء والثّوم، وما سوى ذلك من نتاج زراعيّ!. الهمّ، عند الأب الياس، لم يتوقّف، على نحو صارم، عند حدود الشّكل الخارجيّ الّذي تؤدّى به الصّلاة. كان مرنًا وسهلاً. لكنّه كان يؤكّد الشّكل الداخليّ للصّلاة، بقوّة، في وِقفة القلب لدى اللّه. وفي نهاية المطاف، سعى الأب الياس، في ما لنفسه، وفي ما للآخرين، أن يحفظوا هاجس الصّلاة القلبيّة الدّائمة. "صلّوا في كلّ حين. صلّوا ولا تملّوا"!.

هذا، وأكثر ما يلفت المؤمن الحسّاس، في نظره الأب الياس واقفًا إلى الجهة اليسرى من كنيسة القدّيس جاورجيوس، أنّ الصّلاة لديه كانت تترقرق يسيرًا، في هدوئه وصمته، بخاصّة، وعيناه إلى تحت أو إلى فوق، وفي كلّ حال، إلى الأيقونسطاس، حائدًا عن عيون المصلّين. تلك كانت زاوية الشّيوخ، الأب الياس، والأب أنطون، والأب أغابيوس. كان يتابع الخِدمة بانتباه، كلَّ كلمة، حاضرَ الذّهن، ولكن في حركة صلاة في القلب أوّلاً. اعتاد أن يقرأ النّصوص بروحه. لذلك، كثيرًا ما كان، في آخر مائدة الغداء أو العشاء، يطالعنا بالمعاني الرّوحيّة الّتي كانت تتفتّق لديه من معاينته الدّاخليّة للفظة هنا، أو لقولة هناك، أو لنصّ هنالك، ما كان يُخرج الخِدمة من السّياق الرّصفيّ إلى السّياق المعبِّر عن حركة الرّوح في القلب فيها!. أكثر الأوقات، في العبادة، كنتَ تلقى الأب الياس واقفًا. ومتى ضرب مطّانيّة، ضربها حتّى لامس الأرض بأصابعه. كان، في العادة، أوّل القادمين إلى الكنيسة. حتّى في سنيه المتقدّمة. وصباحًا، متى تثقّلت أتعاب اليوم الفائت على الإخوة، كان هو مَن يدقّ النّاقوس، ويبدأ، أحيانًا، الخِدمة وحده. وإذا بوركتَ، تسنّى لك أن ترى صلاته تتلألأ في بعض دموعه المنسابة بصمت من زاوية عينيه، التماعاتٍ تحدّث عن نورانيّة تترقرق في نفسه. كان الأب الياس رجل صلاة بامتياز!.

عَصَر الأب الياس نفسَه عَصْرًا!. يتوارى متى أمكن التّواري. يصمت، وهو القادر على الكلام والعارف بفهم وعلم بما يُقال، حتّى لا يُقال فيه إنّه من العارفين!. درى، إلى حدّ بعيد، كيف يلجم نفسه، ويمسك بعنان نفسه.

تارة يسكت وعينه إلى داخل نفسه، وطوراً يضحك ويمزح، كما بحماقة، حتّى يصرف الحاضرين عمّا لنفسه بيسير الكلام والتّصرّف. كان واضحًا، مرّات، أنّه يشدّ على نفسه أكثر من العادة، وأنّ نَفْسَه توجعه، مرّة كبرياؤه ومرّة تفهُ الآخرين أو ظلمتهم أو قسوتهم، وفي كلّ حال أوهانُهم!. كان ساعيًا أبدًا لأن يحوِّل نظره في غير اتّجاه!. همّه كان ألاّ يغيب عن وجه المعلّم، أو، بالأحرى، ألاّ يغيب وجه المعلّم عنه!. "لا تصرف وجهك عن عبدك فإنّي حزين. انظر إلى نفسي وخلِّصها"!.

هكذا، استمرّ الأب الياس يضحك، ويلعب، ويلعب على الكلام، ويمدّ رجليه ليُعثر حركة القادمين إليه، أو يشدّهم صوبه، وهو يسلّم عليهم، حتّى ليوقعهم، فيما كانت عينه الدّاخليّة في غير مكان، في غربة، في توق، في شوق، في تنهّد، في تلمّس لِما هو من هناك، إلى الآتي من هناك، إلى المنتهى...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٧ تمّوز ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١٠)

القسوة الجحيميّة، في العالم، من أين هي؟. وما دلالتها؟. الإنسان يحوّل عالم اللّه الفردوسيّ، في ذاته، إلى جحيم!. القسوة في العالم من حبّ الذّات، في تعامل الإنسان مع ذاته والعالم. ماذا يعني ذلك؟. يعني أن يكون الإنسان في وضع المستسلم، كأنّه ليس مِن إله غيره، لنوازع نفسه، لأهوائه، لرغباته، من غير أن يكون لديه حسّ بغيره وضوابط تلجم ما هو مؤذٍ لسواه ولعالمه ولذاته، وتطلق، ولو بشقّ النّفس، ما هو مفيد ونافع، لغيره، وبالنّتيجة لنفسه. فإنّ التّمييز بين ما هو ضارّ ومؤذ وما هو مفيد ونافع يأتي من وداد وضمير صالح وإرادة. فإذا ما ارتحل الحبّ واعتلّ الضّمير، عَمِيت النّفس، وتعطّلت قوّة الإرادة في الحقّ. الإرادة، إذ ذاك، تضحى في خدمة الباطل، إرادةً في الشّرّ. وما الشّرّ؟ لفظة "شرّ" مصدرها "شرارة" ناريّة! هذه، في سياق العلاقات، هي بذرة نار جهنّم!. الإنسان، والحال هذه، يمكن أن يكون، هنا والآن، مصدر جحيم لغيره ولعالمه. هذا لأنّه، هو عينه، يَضحى في قلق على نفسه!.

ثمّ أهواء النّفس، لمَن يستسلم لها، جحيميّة الطّابع!. هذا يعني، من جهة أخرى، أنّ الإنسان قابل وقادر، "بنعمة اللّه"، أن يكون نعيمًا، وفردوسًا، للآخرين ولعالمه، ومن ثمّ لذاته!. أقول "بنعمة اللّه" لأنّه، في الحال الّتي هو فيها، مغمّس في مياه الخطيئة، أي استعداء اللّه في ميل قلبه، وإحاطة إرث الإثم به في عالمه!. له، في نفسه، صدى للفردوس الّذي غادره بالسّقوط في معميّات قلبه. صدًى، لأنّه لم يَفسد بالكامل؛ ولكنْ، ليست له قوّة استعادة الفردوس!. من هنا حاجته إلى نعمة اللّه.

إذًا، القسوة، في العالم، ثمرة استسلام الإنسان لما يكمن وراء جحيميّة نفسه، أعني أهواءه، في إلحاحها، طلبًا، في الظّاهر، لإشباع لا يُفضي، بالنّتيجة، إلاّ إلى جوع كيان أكبر وإلحاح على الإثم أشدّ، ومن ثمّ إلى بثّ فراغ وجحيم متنامٍ في الآخرين والعالم من منطلق طلب متعة كذوب تؤجّج الجحيم وترسّخه في الذّات!. لذا، كانت القسوة، في العالم، دليل استسلام مَن يساهم في إحداثها، أي الإنسان، لرائحة الموت في نفسه!. يستسلم للموت فيه، فتكون المحصّلة، في العالم، قتلاً!. لكنّه، إن قسا على نفسه، عن محبّة، بنعمة اللّه، للّه وخلقه، فإنّه يضحى قادرًا على أن يشيع في العالم، من حوله، وفي البعيد، وفيه، حنانًا إلهيًّا فردوسيًّا عظيمًا!. بكلام آخر، إن تقسُ على العالم، تَمُتْ وتُمِتْ؛ وإن تقسُ على نفسك، تُحْي وتَحْيَ!. أخوك حياتُك، لو كنتَ تَعلم، تعمل على إحيائه فتَحيا!. المآل، في كلّ حال، هو هذا: إمّا المحبّة وإمّا الجحيم!.

لِمَن عرف الأب الياس، كان كتلة حنان!. لا مطرح للاّمبالاة فيه!. قسا على نفسه فوق العادة، حتّى لا يَبقى أثرٌ لقسوة في تعامله مع النّاس، في قلبه!. احتواء الآخرين، للخلاص، كان هاجسًا لديه. لم يكن هذا بالتّمنّي ولا بالكلام ولا بالعواطف. كان بالمجالسة، بالسّماع، بالصّلاة، بالمتابعة، بإشاعة الرّاحة في النّفوس، ببثّ روح الثّقة باللّه، الجزيل الرّحمة، الكثير التّحنّن!. الخطيئة، كما شاء الأب الياس، أبدًا، أن يوحي، ليست بشيء. هذا ليس من باب الاسترخاء والتّشجيع، غير المباشر، على التّمادي فيها!. كلاّ، أبدًا، بل من باب عدم الاستسلام لليأس من لا إمكان تحرّر الإنسان من ربقتها عليه!. هو لا يتحرّر منها بقوّته، بل بتوبته وإصراره وصراخه إلى ربّه ونعمة اللّه!. ليس ربّك في وارد إحصاء خطايا العالمين ليعاقب عليها!. ربّك في وارد تحريك قلب الإنسان، وحثّه على التّوبة، وانتظاره، والاصطبار عليه، وتركه، بألم، يتألّم ممّا نجم عن شروده!. "هل مسرّةً أُسَرّ بموت الشّرّير... إلاّ برجوعه عن طرقه فيحيا؟... كلّ معاصيه الّتي فعلها لا تُذكَر عليه" (حزقيال ١٨: ٢٣، ٢٢)!.

كان يحلو للأب الياس أن يردّد أنّ خطايا البشريّة برمّتها ليست أكثر من قبضة رمل ملقاة في أوقيانوس محبّة اللّه! همّه كان أن يبثّ الرّجاء في النّفوس! مهما عظمت خطيئة القادم إليه، لم يكن يبعث أحدًا على اليأس من رحمة اللّه، في شأنها!. مَن جاء للخطأة جاء، لا من أجل الأبرار، لأنّه ليس من أبرار!. "الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد اللّه"!. والاعتراف بالخطيئة ليس من أجل الحلّ منها وحسب، بل، بالأكثر، من أجل أن يتحرّك القلب إلى ما

تحرّك إليه الابن الشّاطر، لمّا أراد أن يعود إلى أبيه: "أقوم وأعود إلى أبي وأقول له: يا أبي، أخطأت إلى السّماء وأمامك، ولست مستحقًّا، بعد، أن أُدعى لك ابنًا. اجعلني كأحد أجرائك"!. الوعي هو المطلوب!. نَخَس القلب هو المطلوب!. العودة من القلب هي المطلوبة!. الشّعور بعدم الاستحقاق هو المطلوب!. تعلّم الاتّضاع هو المطلوب!. أن يجعل الإنسان نفسه في المقام الأخير هو المطلوب!. أن يتعلّم الخاطئ أن يرأف بالخطأة كما يرأف به ربّه هو المطلوب!. أن يتعلّم كيف يخدم إخوته للخلاص كما جاءه ربّه خادمًا لخلاصه هو المطلوب!.

بين صلاة دامعة ودمعة مصلّية، طلب الأب الياس من أجل مَن كانوا يطلبون العون لديه على حرقة قلوبهم!. كم من مريض قصد الأبُ الياس عيادتَهم، للافتقاد والصّلاة والتّعزية، في بيوتهم والمستشفيات!. لم يكتفِ بمَن هم معارفه!. كان يذهب ليعود مَن أمكنه، قريبًا أو بعيدًا. كان يفرح بالصّلاة من القلب على المرضى! حتّى غير المسيحيّين، إن طلبوا!. رعيّته كانت وِسْع العالم!. وكم فوجئ العديدون من زيارته لهم، وتحرّك فيهم حسّ جميل بثَّ فيهم رجاءات لم يسبق لهم أن عرفوا بمثلها!.

لم يُبدِ البتّة قرفًا من أحد لخطيئته!. على العكس، كان يبكي بمقدار ما يرى عِظَم وَقْع الخطيئة على مرتكبِها!. كان يعي، في قرارة نفسه، أنّ في كلّ نفس ضعفًا، فإن اجتمعت عليها حيل الأبالسة وقسوة الظّروف، فإنّها قلّما تنجو بغير نعمة اللّه، وليس من غير جراح!. نحيا في عالم أميره إبليس،

وهو لا أَحْيَل. لذلك، كان الأب الياس يقول قولة ربّه: "أُريد رحمة لا ذبيحة"، و"لا تدينوا لكي لا تُدانوا"، كما كان في سعي حثيث إلى النّاس، يفرح مع الفرحين منهم ويبكي مع الباكين!.

لِمَ قال "الجامعة": "لا جديد تحت الشّمس"؟. لِمَ "كلّ الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن"؟. لِمَ "الأعوج لا يمكن أن يُقوَّم، والنّقص لا يمكن أن يُجبَر"؟. أصحيح أنّ الكلّ باطل وقبضُ الرّيح (الجامعة ١)؟. هذا إن دلّ على قسوة النّاس، وبالقسوة شِحّ في ماء كلّ الخلق، فقولة ربّك، أيضًا، هي: "هأنذا أُفيض لكم روحي. أعلّمكم كلماتي" (أمثال ١: ٢٣)! وربّك حنان كلّه!. اللّه محبّة!. فمَن سكن فيه روح اللّه، سكن فيه حنان اللّه، فتجري من بطنه أنهار ماء حيّ!. البحر، في الخارج، أيقونة البحر الّذي في الدّاخل، فمتى امتلأ بحر القلب من ماء روح اللّه، امتلأت بحار الأرض قاطبة مياه بما يوافق خلْق اللّه، حتّى يخرج الماءُ من الصّخرة ولا يقضي أحد في الصّحراء عطشًا!.

نبحث عن الإنسان الجديد، إنسان القلب الخفيّ!. لذا، خرج الأب الياس من مصر، وسار في الصّحراء ما يزيد على الخمسين عامًا، التماس الأرض الّتي تفيض، بالرّوح، لبنًا وعسلاً!. قلّة لم يسقها الأب الياس كأس ماء بارد!. كان يذهب إليها!. رجال الرّوح، في زمانه، كانوا قلّة عندنا!. وعندما كان يأتي مَن يأتي إليه، كان يسهر عليه!. أذكر، في ما أذكر، صديقًا اسمه سيمون خوري، أُصيب بالإرهاق الشّديد من جرّاء عمله. بقي سحابة أسبوعين في الدّير، والأب الياس ساهر عليه، ليل نهار، حتّى تعافى! يذهب النّاس كلّ في سبيله، وتُنتسى

البركات في أزمنة الضّيق!. ولكنْ، إن سكت هؤلاء، فحجارة الدّير تصرخ!.

الحنان، اليوم، بالأكثر، في غربة!. يعرف الأكثرون، في زمن الشّحّ، التّهذيب، والتّهذيبُ، حيث لا حنان، اصطناعُ لطف!. أمّا فيض القلب باللّطْف والحنان، فقلّما تلقاه!. كلّ مياه الأرض لا تروي عَطِشًا واحدًا إلى الحنان، وكلّ خيراتها لا تُشبع جائعًا واحدًا إلى اللّطْف!. ربّك جاء غريبًا ومات غريبًا!. ترك الأب الياس كلّ شيء وتبع ذاك الغريب، لأنّه رأى فيه، في سرّه، اللّؤلؤة الكثيرة الثّمن!. نجح، فشل، تعثّر في مشيته؟ ما همّ!. المهمّ أنّه ثبت إلى المنتهى باسطًا نفسه لمَن عرفوه، ولم يعرفوه، علامة تُحتذى، واستودع روحَه مسيحَه، الّذي استودع، أوّلاً، أباه روحه، ومَن يثبت إلى المنتهى، فهذا يخلص!.

ليست القداسة فضائل، تزيد أو تنقص، بل أن يكون عنوان مسيرك بالرّوح ودم الشّهادة: "ليكن لي بحسب قولك"!. هذا، ربّاه، إن قصّرتُ فيه، وأنا مقصِّر، فأنت أكمِل؛ وقبل أن تردّني إلى التّراب، ردّني إليك!. على هذا، أخذ الأب الياس ما كلّفه به ربّه وأعطاه وسلّم الوديعة وعبَر...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٤ تمّوز ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١١)

هذا الزّمن هو زمن العلم بامتياز. ما بات موفوراً للبشريّة، على هذا الصّعيد، خلال المئة عام الفائتة، يفوق التّصوّر، قياساً بما حصّلته البشريّة، عبر تاريخها، من مطلع مسيرتها الحضاريّة، إلى اليوم، لجهة تراكم معارفها. تفجّرٌ، كأنّه غير محدود، للعلوم، وتوق إلى العلوم، وسعي إلى اقتناء العلوم، أو ما تخرج به تكنولوجيا العلوم، كلّ يوم، أو ما تُسلّط عليه العلوم، ومكتشفاتها، وآليّاتها، الضّوءَ، يوماً بعد يوم.

السّؤال، في خضمّ التّقدّم العلميّ الهائل للبشريّة، هو: إلى أين؟. أأضحى الإنسان أكثر إنسانيّة من ذي قبل؟. أتراه، كذا، يحقّق إنسانيّته؟. شريحةٌ رقيقة من البشر تستخدم التّطوّر الحاصل لخدمة الإنسان!. وبالأكثر، بما لا يقاس، تذهب العلوم مذهب الاستهلاك، بلا حدود، لغرض الاستهلاك، كنمط حياة، وتستبين أداة للسّيطرة والافتخار وتحكّم القويّ بالضّعيف والغنيّ بالفقير.

هكذا، بعامّة، يوضع الذّكاء، في مسرى العلوم، في خدمة المال، ويؤخذ

الأكثرون بحذر العِلم بديلاً عن اللّه وكلّ فضل وفضيلة، كما ليكرِّس فيهم النّزعة إلى الاكتفاء بالذّات، بالفردانيّة الخانقة، مطيحًا كلّ حاجة لديهم إلى فسحة الشّراكة، ومن ثمّ إلى مروج المحبّة، وكلّ حسّ بالآخر وأهمّيّته وقيمته ومعاناته، في تأكيد لنظريّةٍ زيف أُشيعت، من روح الغريب، في تزوير للعلم، منذ مئة وخمسين عامًا، وفُرضت، عُرفت بالدّاروينيّة، أو نظريّة النّشوء والارتقاء، أنّ الإنسان آت من مصدر الحيوان ذاته، ومصدره العدم لأنّه مرفوض، في وجدان القابضين على التّربية والتّعليم، أن يكون هناك إله! "فيتو" على اللّه!

بين علم بات غرضه أن يأتي كلّ يوم بجديد، لا لغرض إلاّ للحداثة، ونزعةٍ إلى محبّة المال تقبض على كلّ ما هو حيويّ في الإنسان، وجماحٍ إلى استهلاكٍ لخلق اللّه وخليقته لا يقف عند حدّ، وكأنّه وباء، تسير البشريّة، بخطى ثابتة وسريعة، إلى "عدميّة" أضحت، في حسّ الإنسان، كأنّها ذروة تحقيقه لذاته، المفرَغة باطّراد من كلّ معنى، مستهزئًا مستخفًّا بكلّ قيمة من جهة اللّه!. "في الزّمان الأخير سيكون قوم مستهزئون، سالكين بحسب شهوات فجورهم. هؤلاء هم المعتزلون بأنفسهم، نفسانيّون لا روح لهم" (يهوذا ١٨ – ١٩)!

متى قدّم الإنسان العِلم، بما في ذلك علم اللاّهوت، على الإيمان بمسيح الرّبّ، فاعلاً بالمحبّة، أو اعتبره كافيًا للإيمان بابن اللّه، قتل روح اللّه في نفسه وحوّل إنجيل الخلاص إلى كلام في الهواء!.

في زمن شيوع علم اللاّهوت، وسواه من المعارف والعلوم، كان الأب الياس صاحب اطّلاع ليس بقليل، على ما له علاقة بالآباء والكتاب والعقيدة

والتّاريخ والقانون والطّقوس، وما سواها، في الكنيسة، إضافة إلى المعارف العامّة النّافعة. لم تكن له شهادة لاهوت. لكنّه كان مشبعًا بالمعرفة اللاّهوتيّة! وإذ كان على حدّة في الذّكاء، رصينًا، جدّيًّا، مدقّقًا، لا يشاء أن يُقبل على علم إلاّ لينهل منه ما ينفعه، ويأبى أن يعبر به عبورًا طفيفًا، كان يدرك، في زمن العقلنة، أنّ ثمّة جنوحًا عارمًا إلى التّنظير، وتحويل ما ليس من العلوم التّطبيقيّة الدّقيقة إلى مقولات فكريّة قابلة للجدل. هذا رأى فيه خطَرًا كبيرًا على الكنيسة والمسيحيّة. فالمسيحيّة حياة جديدة لا فكر دماغيّ جديد، ولو كان لها، بطبيعة الحال، فكرُها الخاصّ، لكنّ الفكر نابع من جدّة الرّوح والحياة فيها، ولا تقوم له قائمة من دون هذه الجدّة. بهذا المعنى، وليس بأيّ معنى فلسفيّ آخر، تكلّم الرّسول بولس على كون المؤمنين لهم فكر المسيح (١كور٢: ١٦)!

ما تتعاطاه في العلم مهمّ، طبعًا، ما إذا كان صحيحًا أم لا، دقيقًا أم لا. لكنّ الأهمّ، لا سيّما في علم اللاّهوت، هو كيف تتعاطاه، بأيّ روح، بأيّ فكر، بأيّ قصد؟. دونك، مثلاً، مقاربة الأب الياس للكتاب المقدّس. الموقف الأكّاديميّ السّائد منه هو دراسيّ نقديّ تاريخيّ... هذا، بمقدار، نافع ولا بدّ منه، شرط أن يكون في إطار قصد اللّه والحياة الرّوحيّة التّراثيّة كما عرفتها الكنيسة وخبرتها، جيلاً بعد جيل. من دون هذا الإطار، توجد دراسة الكتاب المقدّس خارج سياقها. الكتاب المقدّس، إذ ذاك، يُتعاطى نصًّا كسواه من النّصوص الدّهريّة. الكتاب المقدّس ليس كذلك. نحن، فيه، بإزاء كلمة اللّه. صحيح أنّ لهذه الكلمة بُعدَها الإنسانيّ، الّذي هو من هذا الدّهر،

لكن لها، أيضًا، بُعدها الإلهيّ، الّذي هو من الدّهر الآتي. هذان لا يجوز ولا يليق الفصل في ما بينهما. ما هو إلهيّ فيها يُتعاطى بشريًّا، وما هو بشريّ يُتعاطى إلهيًّا!. هذا كان واضحًا في ذهن الأب الياس، ولا مساومة فيه. لا يمكنك أن تتعاطى الكتاب، ولو مرحليًّا، كنصّ وحسب. ليس النّصّ الكتابيّ بمعناه، فقط، عندنا، بل بحضور اللّه وعمله فيه أوّلاً!. هذا، إن فعلتَه، غضضتَ عن تجسّديّته الإلهيّة الآتية من تجسّد ابن اللّه. لا فقط مسيح الرّبّ إله وإنسان، معًا، وفي آن واحد، بل كلّ ما له علاقة، من قريب أو من بعيد، بكنيسة المسيح، جسده، هو إلهيّ وبشريّ، وإلاّ سقط المرء في نسطوريّة فعليّة!. على هذا، كان الأب الياس علميًّا في ما للرّوح، في كلمة اللّه، كما كان روحيًّا، إلهيًّا، في ما للنّصّ، في هذه الكلمة!.

تعاطى الأب الياس، في ما تعاطى، القانون الكنسيّ، بعلم وشفافيّة، عندما دعاه المتروبوليت جورج (خضر) إلى استلام دفّة المحكمة الرّوحيّة البدائيّة، في أبرشيّة جبل لبنان. وما توقّف عن أداء مهمّته إلاّ بعدما أقلعت السّفينة وتسنّى لآخر أن يأخذ عنه. كان رجلاً للكنيسة، وما التزم الحياة الرّهبانيّة لينقطع عنها (أي عن الكنيسة)، ما استبانت بحاجة إليه، خارج الدّير، بل لينقطع إلى وجه ربّه، بإزاء اهتمامات هذا الدّهر!.

كان يدعوني، من وقت لآخر، لأتحدّث إلى رهبان الدّير، في موضوعات كتابيّة. لكنّه كان يلفتني إلى اجتناب الدّخول في المتاهات الأكّاديميّة النّقديّة للنّصوص الكتابيّة، لأنّها لا تساعد في البنيان وإغناء الحياة الرّوحيّة، بل أن

أهتمّ بالمعاني النّافعة للنّفس، لي وللرّهبان...

كان يهمّ الأب الياس أن يَبعد، في قراءته لكلمة اللّه، إلى العمق، على نحو ما أشار الرّبّ يسوع إلى بطرس الرّسول، في السّفينة، أوّل ما عرفه: "ابعدْ إلى العمق وألقوا شباككم للصّيد" (لو٥: ٤)، إلى عمق القلب، إلى عمق الكيان!. دونك عيّنة من هذا التّوغّل إلى الدّاخل. في تعليقه، مرّة، على قولة يوحنّا في إنجيله: "آمنوا بالنّور لتصيروا أبناء النّور" (١٢: ٣٦)، فتّق، في ما فتّق، هذه المعاني:

- أيّ إيمان يقصد الرّبّ يسوع؟. أما يعني إيمانًا عضويًّا، كيانيًّا؟. كيانًا آخر، عالمًا آخر، ولادة جديدة؟...

- لم يأتِ يسوع لنؤمن إيمانًا عقليًّا، أيديولوجيًّا خارجيًّا... أكان هذا يستأهل نزول اللّه؟.

- أما جاء ليغيِّر الإنسان ويغيِّره في العمق والكيان، ليحلّ الجديد محلّ العتيق؟. بل هذه هي مهمّتنا الأولى والأساسيّة...

- لكن، هذا لا يتمّ إلاّ من طريق إنكار الذّات، عمليًّا وكلّيًّا ومدى الحياة. الفكر فينا، وكذلك الأهواء المتجذّرة... لا بدّ أن ندخل في بوتقة احتمال المشقّات والصّبر على التّضحيات... والبذل المجانيّ لكي تُحرَق جراثيم خطايانا... وإلاّ نبقى كما نحن. لا نصير أبناء النّور... أبناء اللّه!.

- ذبيحةُ المسيح هي الباقية محور الحياة المسيحيّة... وتبنّي الصّليب،

في كلّ عمل، في روحانيّة يوميّة مستمرّة، هو الّذي يغيِّرنا ويحيينا!.

- فقط عندما ننكر أنفسنا ونعمل ما يرضي الآب، يصير لنا "أبّا"، أبانا، وإلاّ نموت في خطايانا...

طحين الكلام الإلهيّ كان معجونًا، لدى الأب الياس، بماء الدّموع وعَرَق الأتعاب، مخمّرًا بخمير المحبّة والأمانة للحقّ، مخبوزًا بنار الصّبر والاتّضاع والثّبات إلى المنتهى، ليصير خبزًا لحياة جديدة وإنسان جديد. هذا هو العلم الّذي اندفع لتلقّيه في جامعة البرّيّة!. لم يكن يعنيه أن يخوض في دراسة "أنواع القمح"، بمعنى، والمقارنة في ما بينها، أن يسطّر تطوّر زراعتها في تاريخ الحضارات... همّه كان أن يأكل، لأنّه جائع إلى اللّه!. الكلمة الإلهيّة أُلقيت لتكون للموت والحياة!. في لقاء، هذا الأسبوع، مع سيّدنا جورج، في برمانا، سألناه: ما أهمّ شيء اكتشفتَه في حياتك؟ قال: الموت!. قلنا: لِمَ الموت؟. أجاب: لأنّه مكان اللّقاء بالآب السّماويّ!.

رجال اللّه هكذا يتكلّمون!. لغتهم واحدة لأنّهم إلى واحد!. الأب الياس كان هذا لسانَ حاله، لأنّه سلك كذلك، وإلاّ لا معنى للكلام ولا قيمة!. "الكلمة صار جسدًا وحلّ فينا"!. "لتكون لهم الحياة وتكون لهم أوفر"!. ولتبقى الشّهادة للّه في أنطاكية حيّة، نابضة بالرّوح...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٢١ تمّوز ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١٢)

الثّبات وحده يثبِّت حضور اللّه في النّفس!. في الخطيئة، شيمة النّفس التّردّد!. لا يثبت الإنسان على حال، ولا يقدر، طالما لا مسيح!. لا يعرف المرء ما يريد، إذ ذاك. المسيح أو لا شيء!. لذا، يرتع ابن آدم، من دون آدم الجديد، في القلق!. يقيم في التّردّد. تشتهي نفسه أمرًا، فيظنّ أنّ به يبلغ المرام. فمتى حصَّله، إن حصّله، خاب ظنّه!. ليس هو!. فيطلب غيره، بجهد، بحماس، بشوق، فيخيب من جديد. وهكذا ثانية وثالثة، ولا ما ينفع. لا ما يشيع سلامًا عميقًا في القلب. وحده المسيح سلامنا (أف٢: ١٤)!.

حتّى، متى طلب الإنسانُ المسيحَ، فأوّل المسير ذبذبةٌ، صعودٌ ونزولٌ، دخولٌ وخروجٌ، حرارةٌ وفتور، حماسٌ وبرودة، تعزية وخيبة... تستدعي المسيح فيأتي ويذهب، يحضر ويغيب، يفرّح وينحسر... لا طاقة تكون في النّفس لتحتفظ به طويلاً!. اللّه روح، فإن أنعم علينا بذاته، فكمذاق، في

البداية، لا أكثر، وإلاّ حَسِبَ المرء الرّوحيّات نفسانيّات، لأنّ النّفس بحاجة إلى مسار ووقت لتعتاد الرّوحيّات، وإلاّ تسيء قراءتها، وتسيء، من ثمّ، إلى الرّبّ الرّوح!.

لذا، كان الثّبات لازمًا. ولا يثبت الإنسان، بإزاء المسيح الرّبّ، إلاّ بالإيمان. أن تذوق الأمان بجانبه. أن تأمن له. أن تُسلم أمرك وذاتك إليه. أن تدرك أنّه يُقبل إليك ثمّ يُدْبر عنك، لتخرج إليه، لتبحث عنه، مصطبرًا. يغادرك إلى حين، ولكنْ، فقط، من باب التّدبير!. يكون في انتظارك. لا يحتجب إلاّ بمقدار ما يجعل الشّوق فيك إليه محترًا!. ثمّ، في اللّحظة الّتي تجدك فيها محتارًا، تضرب أخماسًا بأسداس، وقد بذلتَ كلَّ جهدك، ولم تُصِبْ نجاحًا، لأنّ البلوغ ليس منك، على بعض الرّجاء، لكن كأنّك مشرف على خيبة، وفي حال حرجة، لا تقدر أن تتقدّم أكثر، ولا تستطيع، أو لا ترغب في أن تتراجع، يأتيك، من جديد، في لحظة، من حيث لا تدري!.

وكيف تثبت؟. تسلك في وصاياه وتنتظر!. مهما قالت لك نفسك: لا نفع(!)، تصمد وتستمر، وتجاهد لتحفظ نفسك من كلّ فكر غريب، وتصرّف غريب، ومنحى غريب!. تُفرِغ نفسك من كلّ ما ليس من ربّك. وَعَدَك في السّابق ووفى بوعده. ربّك هو المبادر. يسلِّفك أوّلاً لتتعلّم أن تأمن له، ثمّ ينسحب، لتتعلّم أن تقول: "على كلمتك أُلقي شبكتي"!. هذه هي اللّحظات الحاسمة، فإن عبرت بها بثبات قلب، شققتَ طريقك إلى وجهه!. مسيرك، من هناك، يضحى أيسر!. فقط تحتاج إلى وقت لترسخ فيك العادات الطّيّبة، صبرًا واتّضاعًا

وإفراغ ذات، ورضًى ورضًى ورضًى، في كلّ حال!. هكذا، تثبت وتتشرّب ثناياك سلامَ مسيحك ولطفَه ووداعَه، كما الجِلْدُ الزّيت، لتتملأ من حضوره!

ثبت الأب الياس في مسيره إلى المنتهى. هكذا سلك وهكذا علّم. فقط اثبتوا!. الثّبات ينقّي من كلّ خَبَث!. مَن يثبت إلى المنتهى، فهذا يخلص! كان مساويًا لنفسه في كلّ حال. لا ينفعل إلاّ ليعود إلى هدوئه سريعًا. مزاج الرّجل كان الاستكانة والخفر، طبعًا، لكنّ ركونه إلى مسيحه، في كلّ حين، كان حجر الزّاوية، في بنيانه الدّاخليّ. ولنقلها بصراحة، كان يعرف أنّ لديه استعدادًا كبيرًا لأن يكون مستكبِرًا، لكنّه كان صارمًا، عنيفًا في تعامله مع نفسه. يضبطها، بعامّة، دون تسريب. يكسر ذاته حيث ينبغي ولا ينبغي. ثباته في مسيح الرّبّ بثّه وعيًا بحدّة. جعل نفسه حارسًا على نفسه لئلاّ تشرد. ولم يكن، بالطّبع، سهلاً عليه، كصاحب مواهب طبيعيّة عديدة فذّة، أن يغيِّب ذاته ويكسر نفسه، لكنّه فعل ذلك لأنّه تبنّى بالكامل أنّ الحياة له هي المسيح والموت ربح، ولو مالت نفسه، هنا وثمّة، إلى تجربة فكاك القيود. أيّة قيود؟. القيود الّتي اقتبلها لفكره ونفسه وجسده التماس كلمة اللّه الّتي لا تُقيَّد!. كان الأب الياس يعرف من أين أتى وإلى أين هو ذاهب، نظير معلّمه!. لذلك، عندما خرج من العالم، خرج لِلاعودة، ولَكَمِ ادّعى الجهل وهو العارف، وسلك في شبه تباله وهو الرّاجح الرّوح والعقل!.

مرّات، تعرّض لِما يبعث على الاضطراب، والاضطراب الشّديد، وحافظ، بنعمة اللّه، وإرادة صلبة، على تماسك نفسه، ما يحمل على الاعتقاد أنّه كان،

في داخله، يخوض غمار صراعات عنيفة، وحتّى شرسة!. النّفسانيّون، في العادة، متى بلغوا الحدّ، وفاض حملهم، تزعزعوا أو استبانت لديهم علائم الانهيار. في كلّ ما عرفت الأب الياس، كان، دائمًا، متماسكًا. في الشّدّة يبكي، كما يبكي في الفرح والتّأثّر والألم على المتألّمين ومعهم. ويبكي، أيضًا، في الصّلاة، متى مسّ العليّ قلبه بلَطَفه، ومتى انتصبت خطاياه موجِعةً أمام عينيه، ورغب، من الأعماق، أن يبتهل إلى ربّه، وشعر، في قرارة نفسه، كم كان مهيض الجناح!. متاعبه ومتاعب العالم، كما ساهم في حملها، استحالت في لغته، كما في لغة النّاس الإلهيّين، عادةً، دموعًا!. لذا، كانت دمعته سهلة، صامتة، من الأعماق، من كثرة ما عصر نفسه وانعصر قلبه على النّاس!. وهذا ثبت فيه إلى المنتهى، إذ عرف كيف يموت!. موته كان بهدوء وسلام!. طيّب اللّه ثراك، يا بولس سعيد، لمّا قلتَ، وأنت تدنو من ساعتك الأخيرة: "لطالما كان همّي في حياتي أن أتعلّم كيف أموت"!. هذا تعلّمه الأب الياس بثباته في المسيح إلى النّهاية!. انتقل في حياته من تسليم إلى تسليم، ليأتي إلى لحظة التّسليم الحاسمة الكاملة بالموت!.

في هذا كلّه، تحوّل الأب الياس من النّفسانيّات إلى الرّوحيّات. ما كان بلغ: "في يديك أستودع روحي"، لو لم يكن قد بَلَغَ (نَضَجَ)، في النّعمة والقامة، في الجهاد والثّبات، إلى الأخير!.

مرّة، كما شهدتُ، لأنّنا كنّا معًا، أُطلقت علينا العيارات النّاريّة ولم نُصَب!. مرّة، كدنا أن نُخطَف، لا سيّما أنا!. مرّة، هاجمه، وسط الكنيسة،

أثناء الخدمة، أحدُ زوّار الدّير، المقيمين فيه، ممَّن يعانون صعوبات نفسيّة، وانهال عليه ضربًا!. لم يحرّك ساكنًا، ولا ردّ، ولا جاوب!. بقي صامتًا وأحنى رأسه!. مرّة، ولم أكن معه، خُطِف!. ولمّا عاد، بكى، وأخبر، وشكر على صلاة الأحبّة!. لا شيء ترك نَدَبًا في نفسه!. كان رجلاً إلهيًّا، إلى الأمام!. "أمتدّ إلى الأمام وأنسى ما وراء"، كما كان يحلو له أن يردّد!. ما كان يخلّفه وراءه كانت تتكفّل به صلاته ودموعه في نعمة اللّه!.

لمّا اقتبلنا الحياة الرّهبانيّة، في دير مار يوحنّا دوما، قال لنا، وما فتئ، بعد ذلك، سنين، يردّده، في كلّ مناسبة: لا تخافوا!. فقط اثبتوا!. اللّه هو الفاعل فيكم!. أنتم اقتبلوا فقط!. اللّه هو الفاعل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرّة (في٢: ١٤)!. عندما عاين الشّيخ يوسف الهدوئيّ جنائن الفردوس، بنعمة اللّه، قال: من أين لي أن آتي إلى ههنا ولمّا أتعب في ما أُعطيت؟!. لا تخف أيّها القطيع الصّغير!. لقد سُرَّ الآب أن يعطيكم الملكوت!. بالمجّان، بالمجّان!. لأنّه لا من أتعابكم، مهما عَظُمَتْ، بل من فيض رحمة العليّ عليكم!. هو وحده الصّالح، لو كنتم تعلمون!. يكفينا أن نعرف، في عمق القلب، أنّه ليس صالح إلاّه، وأن تكون خطيئتنا، حتّى وجع الحشا، أمامنا في كلّ حين!.

لا يعرف أحد متى تأتي تلك السّاعة، ولا الأب الياس، على ما أظنّ، كان يعرف!. في كلّ حال، مَن ثبت في ربّه، كلّ يوم، فلا يحتاج إلى أن يعرف! معرفة الأب الياس لم تأتِ من إنباء، بل من ثبات في مَن قال الكلمة، ذات

مرّة، وما فَتِئتْ تتردّد، مذ ذاك، بين دفّتي كتاب اللّه، وبالأَولى في ضلوعه!. نعلم، كما كان الأب الياس يعلم، في كلّ حين، أنّ الآتي حاضر فيه!. عَلِمَ أنّ الحبيب كان مقبلاً لأنّه خَبِرَه آتيًا إليه كلّ يوم!. لا تعود تلك اللّحظة، متى تكون، هي الهمَّ وقطبَ الاهتمام!. خذني في عينك، يا سيّد!. وجهك، يا ربّ، أنا ألتمس!. مات الأب الياس قبل أن ينطلق!. لذا، بعدما انطلق واستغرق في سعيه وثبت، لم يعد ثمّة مطرح للموت فيه!. انتظر عليه ربُّه سعيَه وجهادَه وثباته، لأنّه كان، هو وملائكتُه ورسلُه، في تلك اللّحظة، في الانتظار!. ادخلوا إلى فرح ربّكم!. كنتَ أمينًا حتّى الممات، فأقيمُك على الحياة!. قم إليه، يا قارئي، ولا تُبالِ، لا بما صنعتَ، ولا بما لم تصنع!. قومي إليه، بخطاياكِ وفضائلكِ، يا نفسُ!. هو المرتجى!. هوذا المعلّم واقفٌ يدعوكِ...

... وتستمرّ القصّة!...

الأحد ٢٨ تمّوز ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١٣)

لِمَ الحياة؟. ما الّذي خَلق اللّهُ الإنسان من أجله؟. طبعًا، طبعًا، أفهم أنّ الإنسان جاء من فيض محبّة اللّه وللمحبّة. مِن ذا كانت الحياة، والحياة كانت نور النّاس، والنّور يضيء في الظّلمة، والظّلمة لم تدركه. هذا عن كلمة اللّه، الإله الكلمة، الّذي به كان كلّ شيء وبغيره لم يكن شيء ممّا كان (يوا: ٤، ٥، ٣). أفهم أنّ التّسبيح هو النَّفَس المبتغى. لذا، نعمل، كلّ يوم، منذ الآن، على أن نصلّي ولا نملّ. أعلم، أعلم أنّ عليّ، هنا، أن أتعب، ولا يليق أن آكل بلا تعب، كما لا يمكنني أن أصلّي، أي لا يمكنني أن أبلغ تلك الصّلة باللّه، إلاّ بالتّعب!. لكنّ التّعب كان رهنًا بالسّقوط. فماذا عمّا كان قبل السّقوط، وماذا عمّا سنصير إليه بعد الموت، حيث لا وجع، ولا حزن، ولا تنهّد؟. في أيّ حال كنتُ، كإنسان، وإلى أيّ حال أؤول؟. أنا لست ملاكًا خادمًا للّه، مسبِّحًا إيّاه، وحسب!. أنا أتعب الآن لأتعاطى ما يتعاطاه الملائكة (التّسبيح الشّاروبيميّ) لأعتاد وأستعدّ للملكوت، لأن يكون ذهني بالكامل في اللّه؛

ولكنْ، وأنا أتعاطى شؤوني كبشر!. أصلّي وأنا آكل. أصلّي وأنا أشرب. أصلّي وأنا أمشي، وأنا أكتب، وأنا أفلح، وأنا أتحدّث إلى النّاس، وأنا أُعينهم، وأنا أقتبل عونهم!. أصلّي وأنا أعمل كإنسان!. الصّلاة روح، ولكن، روح ما أعمل!. بكلمة، ما هو إطار كلّ ما أقوم به وأنا أحبّ، وأنا أصلّي، وأنا أُسبِّح، وأنا أمجّد اللّه؟...

هذا سؤال قلّما يطرحه النّاس. أذكر، كما ذكّرتني أمّي، في ما بعد، أنّي، وأنا ولد، في الخامسة، صغير إخوتي الثّلاثة، وعلى مسافة ستّ سنوات من آخرهم، ومن ثمّ وحيداً في البيت، أقول كانت أمّي تعدّ الطّعام، وتضع لي، بقربها، بعض حبّات الحمّص في صحفة، أو ما يعادله، على طاولة صغيرة لأتلهّى بها. فلمّا كانت الحبّات تنفد، كنت أقول لها: "والآن، ماذا أعمل؟". فتجيبني: "صلِّ"!. فأهتف: "سأختنق"!. الصّلاة لا تكفيني!. أنا بحاجة إلى أن ألهو، إلى أن أتسلّى!. العمل، وكلّ شيء آخر، أُعطي لنا، كان بمثابة تعزية!. ربّك، في جنّة عدن، أخذ آدم، وهو مشمول، بالكامل، بنعمته، "ليعملها ويحفظها" (تك٢: ١٥). لم يكن هذا عملاً للتّعب والشّوك والشّقاء!. هذا كان عملاً من نوع آخر!. للّهو، للتّعزية، للفرح، للحياة... لم يكن آدم ليكتفي باللّه. يحيا في اللّه، ولكنْ، في "أشيائه" بمعنى!. كان بحاجة إلى معين نظيره!. سؤالي هو: ما الّذي يحتاج إليه الإنسان، في قرارة نفسه، معيناً، في كلّ أمر، لا فقط في ما خصّ حوّاء، بل في ما خصّ كونه إنساناً؟. الجواب عن ذلك بقي حركة في نفسي سنين طويلة، إلى أن وجدته عند الأب الياس، ذات

يوم، وأنا أبلوره، هنا، للمرّة الأولى.

الجواب هو اللّعب، هو اللّهو!. لفظة "تسلية" تعني، في آن، لهو وتعزية!. لا شيء، في عمق تركيب الإنسان، يعزّيه إلاّ اللّعب!. اللّعب الحلو، الرّصين، المُشْبِع، الّذي يجعل كلّ ما يقوم به الإنسان مفرّحًا للقلب!. كان الأب الياس ينظر إلى القطط الصّغيرة، وهي تلهو في ما بينها، ويقول: "هذا ما خلق اللّه المخلوقات، بما فيها الإنسان، من أجله: اللّعب، اللّهو، التّسلية...". العمل قلّما عاد، بعد السّقوط، للفرح!. العمل، بعامّة، صار علامة لعنة!. ماذا قال اللّه لآدم بعدما سقط؟ "ملعونة الأرض بسببك. بالتّعب تأكل منها... وشوكًا وحسكًا تنبت لك..." (تك٣: ١٧ – ١٨)!. الجدّيّة المفرطة في العمل، وازدياد التّعب، وزيادة ساعات العمل، وحدّ الإنسان بهاجس زيادة الإنتاج، تخنق، تُعلّ النّفس، وتضرب الجسد بأمراض شتّى!. ليست، في الحقيقة، من طبيعة الإنسان!. فلا غرو إن كان النّاس يخترعون شتّى أسباب اللّهو، والجامح، أحيانًا كثيرة، ليهربوا، في الخيال، من عبء همّ العمل، الّذي يحاصرهم من كلّ جهة، أو يلجأون إلى كلّ أنواع المخدّرات لينسوا، لينفّسوا ضغط الحياة العمليّة عليهم، ليهربوا من قسوة واقعهم الخانق المفروض عليهم فرضًا من جرّاء نمط العمل لديهم!.

بكلّ أسف، اللّعب واللّهو والتّسلية باتت، بعامّة، مضروبةً بالمآثم!. كأنّها شيء سالب!. لم تكن في الأساس كذلك، وليس من اللّه أن تكون كذلك!. اللّعنة الّتي أتت بالشّوك والحسك في العمل، أتت باللّهو، كأنّه شيء فاسد

مفسِد!. محبّة المال، وهي لبُّ العمل، أتت بالجنون، في اللّهو!. قلّما عاد العمل "مسلّيًا". لذا، قلّما عاد اللّهو "سويًّا"!. هذا كردّ فعل على ذاك!. في اللّهو، لم يعد المرء يبحث عن البراءة، الّتي وحدها تُفرِح، لأنّها، في الحال الّتي هو فيها، لا ترويه!. يبحث، بالأحرى، عن الإثارة!. الزّواج الحلال، في العمق، قلّما عاد يعزّيه، يُعينه!. أضحى الإنسان بحاجة، بالأحرى، إلى الفجور!. توازن الحياة الإلهيّة في النّاس اختلّ. لذا، يبحثون عن الغريب، في كلّ حين، ليرتووا، ولا ما يرويهم!. العفّة، في هذا السّياق، شأن فطير!. المشتهى سيرة العاشقين! الشّذوذ، بالأحرى، بالمعنى الواسع للكلمة، لا السّويّة! العنف، الكره، المشادّاة، المنافسة بكلّ أشكالها، العدوانيّة، المقامرة، السُّكر، العربدة!... الغريب والاستهلاك والآليّة باتت عنوان الحداثة اليوم!.

فقط، التّعب من أجل اللّه يروي، لأنّه يبثّ ويجدّد حياة اللّه فينا. يكون للفرح لأنّه يصير مرتبطًا، عضويًّا، بالحبّ، حبّ اللّه وحبّ القريب المنسكب فينا. في ما عدا ذلك، العمل والتّعب، ومن ثمّ اللّهو والألعاب، وجوه "ملعونة"، فاسدة مفسِدة، من وجدان قايين الهارب من وجه ربّه، حتّى الفراغ الكامل والضّياع والهلاك!.

كان الأب الياس محبًّا للّعب!. من صغر سنّه كان كذلك. كان يتحدّى أقرانه أن يتمكّنوا من الإمساك به ضمن مساحة محدّدة. كان يتحرّك بحيويّة فائقة. يتحرّك بسرعة يمينًا ويسارًا. يتقدّم إلى الأمام برشاقة، ثمّ يرتدّ إلى الوراء. لذا، قلّما استطاع أحد أن يقبض عليه بيسر. كان يعرف كيف يُفلت!.

وما كان غير مألوف أنّه، في كِبره، عندما كنّا في سفر، على الأوتستراد، كان يحثّني على أن أسابق السّيّارات!. كان يجد متعة في أن أتجاوز السّيّارة الّتي أمامي، ثمّ أن أتحوّل إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار، من جديد، لأتجاوز، أيضًا وأيضًا، السّيّارات الّتي أمامي، وهكذا دواليك!. لا تفسير عندي لهذا المنحى إلاّ كون الأب الياس كان، بكلّ بساطة، "يحبّ اللّعب"!. طبعًا، لم يكن غير مبال بالسّلامة والآخرين!. هو ليس كذلك أبدًا!. كانت فيه، بكلّ بساطة، نزعة طفوليّة استمرّت عزيزة لديه، وهو في سعيه إلى أن ينمو بالنّعمة والقامة الرّوحيّة!. إلى هذه النّزعة عينها، انتمى لعبه على الكلام وضحكه ومدّه، مثلاً، لرجله أمام مَن كان سائرًا بقربه كما ليوقعه، وسؤاله مَن كان مقبلاً إليه أن يساعده على النّهوض عن مقعده، بمدّ يده إليه، ثمّ شدّه في اتّجاهه كما ليوقعه، هو أيضًا!. لم تكن عند الأب الياس عِقَد بشأن سيرة اللّعب هذه!. الجدّيّة المصطنعة لم تكن تعنيه، على الرّغم من كونه رصينًا في ما يعمل. لكنْ، كان واضحًا أنّ الرّبّ يسوع كان قبلة العين لديه، وما يأتيه كان، لديه، في مسار التّنقية، إلى روح اللّه!.

التمس الأب الياس، وهو يسير إلى شيخوخة إلهيّة، أن ينمو في طفوليّة قلبيّة بشريّة حقّ، وحتّى سلوكيّة، أحيانًا، إنفاذًا لقولة ربّه: "إن لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال فلن تدخلوا ملكوت السّموات"!. هذا لم يفهمه الأكثرون، وكان الأب الياس، في قرارة نفسه، يَعرف ذلك ويُسرّ به، لأنّه أراد، في قرباه، من كلّ النّاس، أن يكون غريبًا عنهم، حتّى يبقى في العيون عاديًّا وغير مفهوم!

هذا أعفاه من مديح العديدين الّذين كانوا يجدونه "مسلّيًا"!. الرّوح الكامن وراء مواقفه وسلوكه قلّما نفذ إليه إلاّ القلّة الّتي أدركت، بعد وفاته، أنّها كانت بإزاء قامة روحيّة فذّة!.

بلى، كانت الغربة عنوان الأب الياس بامتياز. عندما حضر فيلم "أماديوس"، الّذي يروي فصولاً من حياة موزار، بكى، في العتمة، بكاءً كثيرًا، لأنّه كان يرى في موزار صورة عن نفسه. أحبّ موزار، الّذي اعتبره أندريه مالرو، الموسيقار "الوحيد" في تاريخ الموسيقى، ولو كان بيتهوفن هو الأعظم، أقول أحبّ موزار لأنّه كان، في موسيقاه، بكلّ بساطة، "يلعب"!. يتنفّس الموسيقى تنفّسًا!. كانت الموسيقى، لديه، مدًى للّعب، للرّاحة، للفرح. لذا، بلغ الذّروة في أدائه!. كان موزار يقول عن نفسه إنّه "مبتذل" (Vulgar) في سلوكه. لكنّ موسيقاه ليست كذلك أبدًا!. كذلك كان الأب الياس؛ يعرف أنّه خاطئ وأوّل الخطأة، لكنّه يعرف أيضًا أنّ قيثارة روحه وما كان يصدر عنها لم يكن مبتذلاً البتّة!.

هكذا تعلّم الأب الياس، الّذي طالما اجتهد، في "لعبه"، ألاّ يمسكه أحد، بيسر، كيف يُسلم نفسه بالكامل، كطفل، لربّه: "في يديك أستودع روحي"...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٤ آب ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١٤)

لا سلطة في الكنيسة!. في الكنيسة خدمة!. وثمّة خدمة، في الكنيسة، لأنّ الكنيسة محبّة! تأتي الكنيسة من محبّة، وتقيم في المحبّة، وتستمرّ بالمحبّة، وتشهد للمحبّة!. خارج المحبّة، لا كنيسة!. همّ الكنيسة الأوحد أن يتكمّل المؤمنون في المحبّة!. "ليكونوا واحدًا كما أنّنا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد" (يو١٧: ٢٢ – ٢٣) (من الصّلاة الكهنوتيّة للرّبّ يسوع، أي صلاته إلى الآب السّماويّ في شأن الكنيسة)!. على هذا، لا سلطة تتسيّد باسم الخدمة، لأنّ الخدمة، إذ ذاك، تستحيل خدمة صوريّة، كلاميّة، شكليّة، مُمَأْسَسة!. السّلطة، باسم الخدمة، إذ ذاك، تقتل الخدمة الحقّ، أي المحبّة، إذ تهمّشها كفعل، وتكتفي منها بالكلام، فتفرغها من مضمونها!. من ذا القول: "سيخرجونكم من المجامع (عمليًّا من الكنائس). تأتي ساعة فيها يظنّ كلّ مَن يقتلكم أنّه يقدّم خدمة للّه، وسيفعلون هذا بكم لأنّهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني" (يو١٦: ٢ – ٣)!.

في الكنيسة، لا خدمة، ولا محبّة في الحقّ، تأتيان من سلطة!. السّلطة لا تسبق الخدمة، ولا يمكنها أن تكون قائمة في ذاتها، ولو باسم الخدمة، أو المحبّة!. هذه، بالضّبط، هي السّلطة الدّهريّة الّتي حذّر منها السّيّد!. "رؤساء الأمم يسودونهم وعظماؤهم يتسلّطون عليهم، فلا يكون هكذا فيكم، بل مَن أراد أن يصير فيكم عظيمًا، يكون لكم خادمًا" (مر١٠: ٤٢ – ٤٣)!. الأوّليّة تأتي من واقع الخدمة، لا الخدمة من موقع الأوّليّة، أي موقع السّلطة!. الأوّل، في الكنيسة، يختارونه لأنّه قدوة في الخدمة، في المحبّة!. أمّا السّلطة الّتي تحكم، ظاهريًّا، باسم الخدمة، فمستقَرٌّ لا للمسيح، بل لضدّ المسيح، أي لمَن له شكل المسيح، لكنّه من روح مضادّ للمسيح!. مثل هذه السّلطة محكومة، بحكم موقعها، بأن تقتل المسيح لا محالة!. "مَن ليس معي فهو عليّ"!. وإن تبوّأها رجال محبّون للّه واستمرّوا كذلك، قضوا شهداء، بحكم موقعهم!. السّلطة، والحال هذه، كينونة مناقِضة للّه، مقاوِمة لروح الآب ومسيحه، وكلّ مَن تبوّأها إمّا أن يصير من روحها المضادّة، أو يخرج منها، أو يَستشهد فيها، لا فرق ماذا كان عليه في سابق عهده!.

السّلطة، والحال هذه، غير قابلة، في عمقها، لا للتّغيير ولا للتّعديل، لأنّ بذرتها رديئة، وهي من استبداد إرث الفتور والتّيهان والانحطاط في تاريخ الكنيسة! نشأت وتبلورت وترسّخت، روحيًّا، لا لتنهض بالكنيسة، بل لتكون بديلاً ظواهريًّا عن الكنيسة!. من هنا خدعة إبليس فيها!. هذا هو المأزق الرّئيس الّذي وقعت الكنيسة فيه، عبر العصور، وإلى اليوم!. وهكذا صارت

العودة، بروح الضّلال، عبر التّاريخ، في الكنيسة، إلى الحال الّتي سادت في زمن رؤساء الكهنة والكتبة والفرّيسيّين، وأدّت إلى صلب المسيح! "إلى خاصّته جاء (ويجيء)، وخاصّته لم تقبله. وأمّا كلّ الّذين قبلوه، فأعطاهم سلطانًا (لاحظوا سلطانًا!) أن يصيروا أولاد اللّه، أي المؤمنون باسمه" (يو١: ١١ – ١٢)!

الأب الياس صار ابنًا للّه، رجلاً للّه، لأنّه كان مؤمنًا باسمه، أي إنّه أفرغ نفسه، نظير معلّمه، وأخذ صورة خادم عبد، وانضمّ إلى مَن صاروا "منظرًا للعالم"، وتبنّى موقف مَن قالوا: "نحن جهّال من أجل المسيح"، وفاخروا بقولهم: "نحن ضعفاء"، وجاهروا بقولهم: "أمّا نحن فبلا كرامة"، على قولة الرّسول بولس إلى أهل كورنثوس (١كور٤: ٩، ١٠)!. هذا سليل مَن وُضع "لعلامةٍ تُقاوَم"(لو٢: ٢٤)!.

خرج الأب الياس من سيادة السّلطة في العالم، حين كان موظّفًا مرموقًا، إلى الفقر الإراديّ والخدمة والمحبّة في الحقّ!. لم يكن "رئيسًا" للدّير، ولو أسمَوه كذلك!. لم يفرض نفسه على أحد، لأنّه كان في موقع السّلطة!. في الواقع، لم يكن في ديره رئيسًا على أحد! ديره كان جملةً من الحالات الفريدة! كلٌّ، بعامّة، بإزاء ضميره!. كان الأب الياس يطيع الجميع للبنيان، وقلّما يطيعونه كرئيس عليهم، ولو وقّروه!. وعندما كان ثمّة مَن يلحّ عليه بأن يفرض نفسه كرئيس، كان يحاول، وهو غير مقتنع بجدوى المحاولة. وإذ يصطدم بكون كلٍّ من الرّهبان ضنينًا بحرّيّته وبما له، كان يخرج عن طوره، بالصّوت الملآن، ويرتدّ عن محاولته لفترة طويلة!. لا قناعته، في رهبانيّته،

دفعته إلى ممارسة السّلطة، ولا وجدان رهبان الدّير شجّعه على ذلك!. ولست أكشف سرًّا، إن قلت إنّ الأب الياس كان يخرج، من الدّير، مرّة في الشّهر، على الأقل، في جولة يقتبل فيها الاعترافات، لا فقط لأنّه كان مقتنعًا بأهمّيّة ما يقوم به، بل لأنّه، أيضًا، كان يؤثر ترك الإخوة لحريّتهم، ولأنّه كان واثقًا أنّهم قادرون على أن يتدبّروا!.

البديل عن السّلطة، بالنّسبة إلى الأب الياس، كان الضّمير الحيّ!. أليست هذه هي الكنيسة؟. يترك الجميع لضميرهم!. اهتمّ، بالأحرى، بالمثال، بإزكاء الضّمير!. يحبّ الجميع، ويخدم الجميع، ويبذل نفسه من أجل الجميع، لكنّه لا يقتحم أحدًا، ولا يفرض نفسه على أحد، لا من أهل الدّير، ولا من الأبناء الرّوحيّين والبنات الرّوحيّات!. كان يحمل الجميع، في المقابل، في دموعه وصلاته!. هذا جعل معاينته الدّاخليّة للآخرين تشفّ!. يتابع الجميع عن كثب، في روحهم! يتركهم ينمون وينضجون من منطلق وعيهم الشّخصيّ والسّرعة الخاصّة الّتي بها يتحرّكون!. بعضهم ينجح ويصير رجلاً، وبعضهم يفشل ويعود إلى العالم!. لا مطرح لثالث بين هذين القطبين!. في كلّ حال، ليست الطّاعة خضوعًا خارجيًّا، من منطلق القواعد والأصول!. هذا لا يبني!. شكل الطّاعة، ما لم يقترن بوعي عميق أنّ المرء يقدّم مشيئته الخاصّة ذبيحة للّه، ليتملّأ من رضى اللّه ومشيئته وروحه، فإنّه (أي شكل الطّاعة) يكون للخنوع والتّحمّل والتّحطيم، ولا يفضي إلى رجولة في القلب، بل إلى اتّكاليّة مقيتة وتشويه في الإرادة والشّخصيّة!. وعوض أبناء اللّه، بالمعنى العميق للكلمة، تحلّ صورة

الأبناء لهذا الدّير أو ذاك، لهذا الرّئيس أو ذاك... ولو باسم اللّه!. وليس أضنى، والحال هذه، من أن نروِّض الآخرين على الدّوران حول ذواتنا، عوض مسيح الرّبّ!. هذا هو حمل اللّه الرّافع خطيئة العالم، لا أنا!.

كان الأب الياس رفيقًا بكلّ مَن لاذ به، ضنينًا به، مبذولاً لأجله!. هكذا عرفته في علاقته بالنّاس، وهكذا خبرتُه في علاقتي به!. كلّ واحد لديه أمانة من فوق!. يتابعه بثبات، بإصرار، ولكن برفق كبير!. لا يشاء أن يثقِّل على ضميره في شيء!. يصطبر، ينتظر أوان الإثمار!. يراه في روحه!. يدعمه بصلاته ودموعه! يسأل عنه! يفتقده! يراسله حيث يلزم! عندما كنت أتابع دراستي اللاّهوتيّة، كان الأب الياس، كلّ أسبوع، يوافيني برسالة قصيرة، ببطاقة عليها بضع كلمات، بصورة، بخبر!. كلماته، في كلّ حال، كانت قليلة، لا لأنّه لم يكن مهتمًّا، بل لأنّ نَفَسَه كان قصيرًا!. أقوال مثل: أرجو أن تكون بخير... اللّه معك... أصلّي لك... تشدّد... اثبت... لا تنظر إلى الوراء... أفكّر فيك... الإخوة يسلِّمون... نحن ماضون في رسم الكنيسة بالأيقونات (أوائل السّبعينات من القرن العشرين)... كانت تعزّيني وتُشعرني بأنّ الأب الياس معي!. لم يطلب منّي شيئًا، ولو علّمني كلّ شيء!. كان يتركني لأكبر، على سجيّتي، في النّعمة والقامة وحسّ الضّمير!.

الأب الياس عرفتُه يعمل في صنع الرِّجال للّه!. صورة يوحنّا المعمدان، بإزاء الرّبّ يسوع، كانت تكفيه مثالاً!. أغدق عليّ كلّ شيء، من روحه، من فكره، من عونه، ولم يطالبني بشيء!. كانت تكفيه تعزية أن يراني ألتصق

بمسيح الرّبّ، وأن أزداد حماسة لحقّ الإنجيل، يومًا بعد يوم!. هأنذا والأولاد الّذين أعطانيهم اللّه! كنت، وأنا أتقدّم في مراقي الكلمة، أشعر بظلّه الخفيف عليّ، أنّي أستطيع أن أمضي قدمًا من دونه!. لا متطلّبات ولا واجبات حياله!. مع ذلك، روحه كانت فيّ!. حضوره في نسيجي!. فكره في وجداني!. مثاله أمامي!. والآن أعي، في قلبي، أنّ هذا كان يكفيه بالكامل عزاءً!. لم يعمل على قَولَبَتي لنفسه، بل عمل على إعدادي لمسيحي وإنجيله!. لا أعرف بكلّ ما كان يعرف في شأني من فوق!. أعرف أنّه علّمني سرّ الكنيسة أن أرعى النّاس في الحرّيّة!. "اِرعَ خرافي"!. وما الرّعاية في الحرّيّة إلاّ أن تكون واثقًا أنّ ثمّة راعيًا واحدًا يرعى الجميع، تفصيلاً، وأنّ ثمّة معلّمًا واحدًا يعلّم الجميع، وأنّ ثمّة سيِّدًا واحدًا يبذل نفسه من أجل الجميع قدوةً!. أمّا نحن، أنا وأنت، فلا نعدو كوننا صوتًا صارخًا في البرّيّة: أعدّوا طريق الرّبّ...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١١ آب ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاليّة
(محطّة)!.

لا أريد أن أتوقّف عن الكلام على الأب الياس، عند هذا الحدّ، ولا أستطيع!. لكنّي أقطعه بخبر ما عاينتُ. منذ بعض الوقت وأنا أتساءل: لماذا، الآن، يأتي هذا الإلحاح الأحشائيّ في الكتابة عن الرّجل؟!. في الحقيقة، لا أعرف تمامًا!. فقط أشعر، في نفسي، أنّ ثمّة جديدًا عندي، في تعاطي الكلمة والمقالة، لم أعهده من قبل...

في العادة، أكتب، ويكرّ الكلام، أحيانًا، كرًّا، وأحيانًا أخرى، بشيء من الصّعوبة كمَن ينحت. هذه المرّة، الأمر مختلف. هاجس الأب الياس في الكتابة يكاد لا يفارقني. ولو لم أفكّر في هذا الأمر أو ذاك، في شأنه، فإنّه حالما يَرِدُ إلى وعيي وانتباهي، أشعرُني، في داخلي، كأنّ ثمّة ما يجري إعداده فيَّ، واعيًا أو غير واعٍ. ثمّ، متى جلستُ لكتابة مقالة "نقاط على الحروف"، وهذا يتمّ في العادة يوم الجمعة من كلّ أسبوع، ألقاني، داخليًّا، وكأنّي تلميذ يؤدّي امتحانًا، ولا أقول لا يجد نفسه مستعدًّا، بل مستعدّ تمامًا، وإن كنت لا أدري كيف يتكمّل هذا الاستعداد لديه!.

إلى أين سيُفضي بي هذا المسعى؟ متى يكون تمامُه؟ لستُ أدري! فقط، أعلم أنّي لستُ وحدي. أنا، في العادة، في تعاطي الكلمة الإلهيّة، لستُ وحدي. ولكن، هذه المرّة، بشكلٍ أنا واثق أنّه مختلف! لا أكشف سرًّا، إن أخبرتُ أنّي أقلعتُ عن الكتابة العقليّة المعلوماتيّة منذ زمان. أقلّه منذ بعض الوقت. ومتى وجدتُ الكلام، بعامّة، لا ينساب انسيابًا، توقّفتُ. وعلى الرّغم من ذلك، بعض الخطاب كان لديّ ولادةً طبيعيّة، وبعضه معاينة داخليّة، وبعضه ولادة قيصريّة. في العادة، قبل الكتابة، ينتابني شيء من القلق. هذه المرّة، هكذا بدأت، ثمّ ثبت فيَّ يقين أنّ مَن أكتب عنه (الأب الياس)، أو أكتبه، إذا جاز التّعبير، أو ملاكه، إن كان هو فعلاً مَن يدفعني إلى الكتابة، ويرافقني فيها، فسأستمرّ، ومتى نضب ينبوع الكلام أتوقّف! إلى الآن، هذا لم يحدث بعد! ثمّ كلّما جلستُ لأخطّ ما يمكن أن يتنزّل عليّ، اكتشفتُ الصّيغة التّعبيريّة تحضرني دقيقةً، بلّوريّة، مشرقة، والأفكار واضحة، جديدة، وجديدة عليّ بخاصّة، وتلقائيّة! ما هذا؟! أين كانت مُخبّأة هذه الالتماعات؟! أتساءل! وهذا يحدث حتّى لأقول لنفسي لا فقط إنّ ثمّة مَن يرافقني في مسعاي، بل إنّه، أيضًا، يرافقني لقصد محدّد، وهو إبراز الأب الياس، بعد أن بقي، بعامّة، مغموراً سنين، في حياته، وحتّى بعد مماته، إلاّ في مناسبات عاطفيّة واحتفاليّة! كأنّ ساعة استحقاق الرّجل قد آنت!.

على هذا، أدفع هذا الجديد، الّذي عبرتُ به، إلى القارئ العزيز، راجيًا أن أتابع، في الأسبوع القادم، بإذن اللّه، ما توقّفتُ عنده في الحلقة الرّابعة عشرة من هذه الالتماعات.

بعد ليلة تقلّبتُ فيها، منذ أيّام، بين الأرق والنّوم الخفيف والصّلاة، عاينتُ، ما بين الحلم واليقظة، ما دوّنتُه بعد صَحْوي. وهذا ما كان عليه الكلام، أدوّنُه ونفسي مرتاحة لذلك تمامًا!.

"أكتب هذه الكلمات يوم الإثنين صباحًا من الثّاني عشر من شهر آب، بدءًا من السّاعة السّادسة والرّبع صباحًا:

استفقتُ من النّوم قبل قليل، بعد ليلة كان نومي فيها خفيفًا. آخر ما عاينتُه قبل صَحْوي كان حلمًا، كأنّه واقع، انطبع في ذهني وهو ماثل أمامي. وجدتُني، على دفعتين، أعاين الأمر عينه بالتّمام: كأس نبيذ بلّوريّ بدا نقيًّا تمامًا إلى الشّفا، والكأس بدت لي مخرَّمَة. كان النّبيذ، عند الشّفا، يهتزّ قليلاً، لكنّ نقطةً منه لم تسقط. لم تبدُ الكأس صغيرةً. كانت كأنّها وعاء كبير!. كان يحملها من جهة كائن ما لم أتبيّن تمامًا مَن يكون. وكان مطلوبًا منّي، في حسّي، في داخلي، أن أشترك في حَملها ونقلها من حيث وُضعت!. شعرتُني كأنّ لذاك الكائن صفة رسميّة!. كان مُقرَّرًا أن أشارك في نقل الكأس!. فعلتُ ذلك وأنا في مهابة، مع أنّي لم ألاحظ أنّي وضعتُ يدي على الكأس، لأنّي رأيتُ الكأس كما هي. فقط، شعوري كان أنّي أشترك فعلاً في نقلها. ورأيتُ الكأس تنتقل!. وكان عليّ أن أحرص على ألاّ تنسكب منها نقطة!. شعرتُني وَجِلاً حريصًا!. وفيما كانت الكأس تنتقل من مائدة ما لا أعرف ما طبيعتها، استفقتُ...

ساءلتُني: ما هذا؟! للحال جاءني فكر أنّها رسالة ذات مغزى! ما خطر في بالي كان أنّ ثمّة ما له علاقة بالأب الياس، الّذي أكتب عنه هذه الأيّام، وأجدُني

أتردّد في كتابة المزيد كمَن ليس له بعدُ شيء يقوله!. كلّ أسبوع أكتب، بنعمة اللّٰه، ولا أعرف مسبَقًا عمّا سأكتب!. كأنّ عليّ أن أكتب ولا أستطيع إلاّ أن أكتب!. من أين يأتي هذا الكلام؟!. كأنّ ثمّة، أحيانًا، مَن يُمليه عليّ، حتّى في تفاصيله!. مَيلي، إلى حدّ ما، أن أتوقّف بحجّة أنّ وعائي قد فرغ. فجأة، تنبت كلمة من هنا وفكرة من هناك، ولا أستطيع إلاّ أن أهذّ بها!. ثمّ، متى جلستُ إلى مكتبي ودفتري، أجد القلم يتحرّك بيُسرٍ ووضوح وصحوٍ، كأنّ ثمّة مَن يوحي لي بما أقول، إلاّ بعض الألفاظ والزّوائد أضيفها، أو بعض الأفكار أنقّحها وتزيد من إبراز المعنى، كما أفهمه. وأحيانًا، أكتب وأكتب، ولا أُدخِل في ما أكتب أيّ تعديل، ما يزيدني يقينًا أنّ ثمّة مَن يشاركني في كتابة المقالة!. الأفكار، من جهة أخرى، تترابط في ما بينها، والفكرة تفتح أفقًا على أفكار جديدة. وهكذا، أجدني بإزاء الولادة تلو الولادة، غير المتوقَّعَة، في كتابة مقالة الأسبوع!

هذا ما خطر في بالي بعدما صحوت، والنّبيذ، عند شفا الكأس، يهتزّ قليلاً على التماعات، في صفاء أخّاذ!. فقلتُ: أدوّن ما رأيت وما شعرت به. فأخذت هذه الورقة، وجلستُ نصف جِلسةٍ في سريري، وكتبت ما كتبته دون تردّد أو تغيير...

السّاعة، الآن، السّادسة وخمس وخمسون دقيقة.

لمجد اللّٰه

توما

١٢ آب ٢٠١٩

ملاحظة: خطر في بالي، أيضًا، أنّه إذا كان الرّبّ الإله يريد أن يعلن قداسة الأب الياس، فإنّه هو مَن سيعطي كلّ كلمة عنه. وهذا بدأت أشعر به تفصيلاً!. هذا ليس لأوحي بشيء، بل لأقول الحقّ زُلالاً!."

لستُ، في العادة، رجل أحلام. معظم أحلامي أنساها، وبعضها يزعجني أو يُقلقني وإن كنت، بعامّة، لا أقيم لِما أراه في المنام وزنًا. لكنّي، بإزاء ظلّ الأب الياس مرقص عليّ هذه الأيّام، تخطر في بالي أفكار وأفكار، وبعضها يأتيني من حيث لا أعلم من أين!. ليست تمامًا منّي، لأنّني لم يسبق لي أن فكّرت فيها في يوم من الأيّام. تأتيني كأنّها تحصيل حاصل، في صفاء ما بعده صفاء، حتّى لأعجب منها، وكأنّي أكتشف فيها مزايا لدى الأب الياس، كما للمرّة الأولى!. أعلم أنّ الأمور الفكريّة تنضج في الوجدان، حتّى، أحيانًا، من غير وعي منّا. وعلى الرّغم من ذلك، أجرؤ أن أقول إنّ ثمّة حضورًا للأب الياس لديّ، هذه الأيّام، لم أعهده من قبل، لا في كثافته ولا في ألوانه!. يأتيني في إلحاح صامتًا على عادته، وهو كان قليل الكلام، في كلّ حال. لكنّ صمته دائمًا ما يأتي مُشبَعًا بالكلام!. هذا أفضيتُ وأفضي به ملتمسًا الأمانة للّه وضميري والرّجل، الّذي كان أبًا لي بكلّ معنى الكلمة، وأنا أعرفه، اليوم، من خلال ما أكتبه عنه، على أعمق ما عرفته في حياتي، في إيلادي في المسيح!.

كيف لي أن أفكّر في اللّه والأحبّة - والأب الياس حبيب - على هذا النّحو؟!. هل هذا وهم، أن أتصوّر أنّ ثمّة ما أو مَن يرافقني، وأنا مُلزَم بمواكبته، في هذا المسعى إلى إضفاء مثل هذه المسحة الأسراريّة على شخص

مَن أتناوله بالكلام؟!. فكر كهذا لا ينتابني البتّة في هذا السّياق!. في الحقيقة، علّمتني الأيّام أن أتعامل مع اللّه حيًّا وسيّدًا ورفيقًا وكولد، إنّما على شيء أو على الكثير من القِحة البنويّة، الآتية ممّا كان يسمّيه الأب الياس "أنفة"!.

مرّة، منذ أكثر من ثلاثين سنة – ولهذا أسمح لنفسي بالكلام عنها الآن – خُطفت امرأة من حيّنا لم يكن لها أولاد. زوجها كان في مأساة لم أعرف مثلها في حياتي!. مَن خطفها؟. لِمَ خطفها؟. ماذا يريد من خطفها؟. كيف نعلم؟. كيف نستردّها؟. كلّ هذا كان في المجهول!.

أُخذتُ بوجع داخليّ ما بعده وجع!. قلتُ: إلى مَن نذهب؟!. قلتُ لربّي: ليس لنا إلاّك!. أنت سيّدنا!. أنت زعيمنا!. أطلب إليك أن تطلقها لأنّك أنت وحدك القادر على كلّ شيء!. هنا، خطوتُ خطوة جسورة لم يسبق لي، في يقين كياني، أن خبرتُ مثلها، ولم أعرف نظيرًا لها، مذ ذاك، إلى اليوم!. هل كانت منّي أو من إلهي؟. اليوم، أميل إلى القول إنّها من الإثنين معًا!. أقول ذلك لأنّي تعلّمت، في ما بعد، أنّ ما حدث لم يكن برسم التّكرار!. إذًا، بقناعة كاملة، يومذاك، قلتُ له، وأنا أعني تمامًا ما أقول: "إن لم تُخرجها من حجزها، فلا أستطيع ولا أريد أن أبقى لك كاهنًا بعد اليوم!. أنا لا أقبل أن يكون لي ربّ وسيّد "عاجز" وأنا أعرف أنّه حيّ وكلّيّ القدرة!". مهما كانت مقاصده ومهما كانت أفكاره، لا أستطيع أن أقبل!. نفسي تتمزّق!. لا يمكنك أن تترك النّاس والحال هذه!. بكاء زوج تلك المرأة كان يفتّت الأكباد!. لا أظنّ أن ترك الأمور على هذه الحال "يليق" بإلهي!. إثر ذلك،

قلتُ له بثقة كبيرة، بدالّة كبيرة، بيقين كبير، بتحدٍّ كبير، ولكن بشيء، لا أفهمه، من الاتّضاع الكبير(!): تُطلقها قبل السّاعة الثّانية من بعد ظهر الغد، أو أترك الكهنوت!!!.

تلك اللّيلة تصارعتُ، في رعونتي، مع اللّه! وأخذني ربّي على قدر عقلي! ترجّحت بين مهابة كبيرة وجسارة فائقة!. لم أشعرني وقحًا بقدر ما شعرتني ابنًا يصارع لأنّ سيّده قال ذات مرّة: "ملكوت السّموات يُؤخَذ غِلابًا"!. في اليوم التّالي، وأنا حافظ الصّلاة بتواتر، دخلت في الانتظار والعدّ العكسيّ!.

أخيرًا، كنت جالسًا أنتظر مصلّيًا، وكان ثمّة، في المكتب، مَن كان جالسًا عند الهاتف يعمل!. وما إن حلّت السّاعة الواحدة من بعد الظّهر، حتّى رنّ الهاتف!. ماذا؟! الآن، جرى إطلاق سراح المرأة!!! صرخت بدموع: "حيّ هو اللّه الّذي أنا واقف قدّامه"!!!. وبكيت، بكيت وبكيت، بكيت وِسعي!!!. شعرتني، في العمق، دودةً لا إنسان، وبعظمة اللّه ومحبّته!.

هذا أنقله، عبر هذه الأسطر، لعينك، يا أبانا الياس... مستسمِحًا ما عهدتَه من رعونتي، مرّة أخرى!...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٨ آب ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة!.
(١٥)

الحرّيّة حرّيتان: الحرّيّة في الضّمير والحرّيّة في الخطيئة. لا ثالثة لهاتين. الحرّيّة الضّميريّة لا يمكنك تعاطيها، ما لم يكن لك ضمير. ما هو الضّمير؟. هو نيّة القلب المُضمَرَة، متى لزمتَ اللّه ومسيحه بالإيمان، والتزمتَ مخافته ووصاياه بالمحبّة، وانصرفت عن الخطيئة، كقصد، انصرافًا كاملاً، وحذرت وجاهدت وِسْعَكَ لكي لا ترتكب المُنكَر في حقّ ضميرك، وربّك، وقريبك، وسائر خلق اللّه. هذا يتضمّن ما هو بشريّ، أي من ناموس الطّبيعة، وما هو إلهيّ، من فعل سرّ الحضرة الإلهيّة بالتّجسّد، لا سيّما لجهة عمل الأسرار الإلهيّة، بدءًا بسرّ المعموديّة. ناموس الطّبيعة فينا، إذا كان غير منثلِم، يشهد كسابق لناموس المحبّة، ويدفع صاحبه إليه؛ وإذا كان مشوَّهًا، ألقى بالإنسان في الخطيئة، فيوجَد، إذ ذاك، مقاوِمًا للّه بصورة تلقائيّة، إلاّ إذا ارتأى ربّك رأيًا آخر ودبّر، لعلمه بميل خفيّ للصّلاح في ابن آدم هذا، فيسلمه، إذ ذاك، لآلام، من خطيئته يكسر بها عناده ليرعوي ويتوب!. بغير ذلك، يتركه يحيا،

في عمى نفسه، في خطيئته، ويموت في خطيئته!.

إذًا، يكون لك ضمير أو لا يكون!. ربّك يُحيي الضّمير، فيكون ضميرك مؤشِّرَ حضوره لديك وعمله فيك؛ أو تذهب الخطيئة بضميرك، فلا يكون لك ضمير، بل كتلة نوازع! إمّا أن تسلك، إذًا، في هذا الاتّجاه، فيموت فيك الضّمير؛ وإمّا أن تسلك في ذاك، فيُحيا ضميرك!. على أنّ القضيّة قضيّة مسير يُفضي إلى مصير! إمّا هذا وإمّا ذاك، تصعد أو تنزل، ولا خِلطة بين هذا وذاك! "مَن ليس معي فهو عليّ، ومَن لا يجمع معي فهو يفرّق"!. وإن كنتَ معه، سلكتَ بما له، بالإيمان لا بالعيان!. لا يرضى ربّك بشيء إلاّ بالإيمان!. أن تثق به، أن تأمن له، أن يضحى هو وحده مصدر الأمان والتّعزية والسّلام والفرح لديك، إذ خارج الإيمان لا أمان، ولا تعزية، ولا سلام، ولا فرح، بل تشويش واضطراب حتّى الموت!

هذه هي حرّيّة الضّمير، أو الحرّيّة في الضّمير!. هذه تتكمّل متى أقبلت بك إلى ملكوت ربّك، وإلى روحه ومحبّته، متى أقام فيك الملكوت نورًا في الرّوح والحقّ، ومتى أضحى روح اللّه هو الفاعل فيك، أن تريد وأن تعمل من أجل المسرّة، متى صرتَ محبّةً من المحبّة "الّذي" هو ربّك!. بغير ذلك، تخدم الحرّيّةُ فيك الخطيئة، إلى أن تموت الحرّيّة وتصير أنت آلة خطيئة! الحرّيّة كانت لتكون أداة للبِرّ، لا غايةً صمّاء في ذاتها!. خلاصة الكلام أنّك، فقط، إن أحببتَ، كنتَ حرًّا. الخطيئة تعدم الحرّيّة وتجعلها عديمة النّفع!. لم تكن الحرّيّة يومًا لتكون حرّيّة في الخيار، في المطلق. لكنّها كانت لتختار المحبّة،

لأنّ المحبّة لا تُفرَض فرضًا. كلّ خيار آخر غير المحبّة يُفقدك الحرّيّة!. هكذا، إن اخترتَ الخطيئة، خسرت المحبّة والحرّيّة سواء بسواء!.

كان الأب الياس رجل حرّيّة بامتياز، بهذا المعنى بامتياز!. تاق إلى الحرّيّة الدّاخليّة بلا حدود!. لذا، ترك كلّ شيء وتبع المسيح!. أراد أن يسلك في الكمال الإنجيليّ!. القول الإلهيّ في هذا الشّأن كان: "إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبِع كلّ شيء لك وتعال اتبعني"!. كان يعلم جيّدًا أنّه لا حرّيّة للإنسان، ما لم يتحرّر أوّلاً ممّا يُعيق حرّيّته أو يعطّلها! لا حرّيّة في الحقّ قبل التّحرّر من هوى الخطيئة!. "تعرفون الحقّ والحقّ يحرّركم". ولكن، ما الّذي يعيق أو يعطّل حرّيّة الإنسان؟ محبّة العالم!. "محبّة العالم عداوة للّه"!. ما محبّة العالم؟ هي تعظّم المعيشة! ما معنى ذلك؟ أدوات المعيشة، في المبدأ، لا تعدو كونها أدوات للعيش. "إن كان لنا قوت وكِسوة، فلنكتفِ بهما"، قال الكتاب. في تعظّم المعيشة، لا يكتفي المرء بسدّ الحاجة، بل كلّ ما هو من الحاجة يحوّله إلى سبب للتّعظّم ومدًى له!. التّوق، توق ابن آدم، هو توق إلى التّعظّم أوّلاً!. الاكتفاء بالطّعام كغذاء، مثلاً، يتحوّل إلى شهوة لإقامة المآدب، ليتعظّم الإنسان في عين نفسه والنّاس!. ويتحوّل اللّباس إلى شهوة لاقتناء كلّ ما هو فاخر أو غريب، في إطار الموضة، ليتعظّم في عين نفسه والنّاس!. على هذا تجد المرء يتعظّم بحذائه، أو بربطة عنقه، أو بقصّة شعره، أو بسيّارته... والنّساء بزينتهنّ أو بـ"مكيجتهنّ"، أو بعلوّ أكعاب أحذيتهنّ، أو بغريب لباسهنّ... كلّ تفصيل من تفاصيل المعيشة يفتح قابليّة الإنسان،

والحال هذه، على هوى جديد يخوض فيه الإنسان خوضًا بعيدًا، التماسَ التّعظّم، أيضًا وأيضًا، ولا شبع يتأتّى، بل ينحدر المرء، في هذا السّبيل، من جوع إلى جوع أعظم!.

لِمَ لم يبقَ الأب الياس في اللاّذقيّة ويسلك هناك في ما للمسيح؟ لسببين: لأنّه كان يعرف كم هو صعب على المرء أن يحفظ نفسه، وسط العالم، من روح العالم، وتاليًا من تعظّم المعيشة... هذا، أقلّه، بحاجة إلى جماعة كالجماعة المسيحيّة الأولى، يؤازر ويشدّد فيها الواحد الآخر، ويوفّر له القوّة الدّاخليّة الّتي تتيح له أن يقف في وجه العالم ويتحدّى روح العالم! وما هذا، بعامّة، بموفور اليوم! لذا، المساومة هي سمة المؤمنين في العالم إلاّ أقلّهم أفرادًا! روح العالم اجتاح الأكثرين، من حيث يعلمون أو لا يعلمون! هذا هو السّبب الأوّل. السّبب الثّاني هو أنّ الأب الياس كان يطلب الملء!. كان يطلب الكمال!. في كلّ أمر، كان الأب الياس كامليًّا!. في دراسته، في عمله، في تطلّعاته... من هنا معاناته في العالم ثمّ تركه كلّ شيء والخروج من العالم!

هكذا، سلك الأب الياس درب التّحرّر. عزم على مصارعة أهواء العالم، ومن خلالها أهواء النّفس، إلى المنتهى. دخل الحرب اللاّمنظورة. لا لمحبّة المال بعد. لا للمآدب والحفلات. لا لطلب الرّاحة واللّباس الفاخر والعطور. لا لدغدغة السّلطة وطلب المعالي. طلّق خدمة الآخرين له. التزم سيرة الفقر والصّوم. انخرط في جهد التّعب وغسل أقدام المتعَبين. خرج من حياة الألق الاجتماعيّ إلى حياة التّوحّد. خرج من مناخ التّعظيم إلى إفراغ النّفس. خرج

من حلقة المساومة إلى حلقة بذل الدّم!

طلب الأب الياس مَن قال: "أنا هو الحقّ"! ضيّق على نفسه تضييقًا شديدًا، والتمس وجه ربّه التماسًا عنيفًا! جوع إراديّ، تعب جسديّ، وقوف لساعات، سهر في اللّيل، صوم بقسوة، خدمة بصمت، صلاة، صلاة، صلاة... كم تعب الأب الياس في سيرة الرّهبنة؟ هذا ربّك وحده عارف به. ما نعرفه زهيد! لكنّنا نستدلّ على ما لا نعرف ممّا نعرف: نعرف دموعه وصلاته! الثّبات، بشقّ النفس، ما يزيد على الخمسين عامًا، في سعي حثيث لإتمام عمل اللّه، خلق لديه إيقاعًا إلهيًّا فجّر فيه الدّموع والصّلاة، فبات مُهيّأً لأن يكون من أبناء الملكوت! أعطِ دمًا وخذ روحًا!

لا زيت إلاّ متى انعصر الزّيتون عصرًا، ولا دموع من القلب، قبل المآقي، إلاّ متى قسا المرء على نفسه بلا هوادة!. سَأَلْنا الأب أنطون، الرّاهب في الدّير، ذات مرّة: قُلْ لنا مَن هو الرّاهب؟ قال: هو الممعوس، "المفعوس"، المدعوس! الأب الياس كان، داخليًّا، من ذاك الرّعيل! على أنّك تبقى مهدّدًا لأن يَفسد الزّيت فيك، ما لم تحرص وتعنف وتثبت إلى المنتهى! كان الأب الياس يُدمع كالحمامة بلا صوت. ينعصر لدى ربّه على خطيئته بتواتر! لا يتلفّظ، في العادة، لمَن حوله، إلاّ بكلمات عزيزة مقتضَبَة! "كنتُ في جحيم"! صوته الدّاخليّ كثيرًا ما كان يختنق بإزاء ربّه! كان يحمل قصوره بألم! لذا، قال: "الإنسان لا يتغيّر... موقفه من نفسه يتغيّر! في العمق، نزعاته الدّاخليّة تبقى هي هي"! هذا عند النّاس وليس عند اللّه. المزمور ٣١، والمزامير بعامّة

في صلاته، كانت تعنيه في تفاصيلها! "ثقلت عليّ يدك نهارًا وليلاً، وغدوت شقيًّا جدًّا، فرجع الألم إلى صدري لكي يقتلني" (٣١: ٤)! لذا، قال: "أنا اعترفت بخطيئتي ولم أكتم جريرتي... وأنت صفحت عن خباثة قلبي" (٣١: ٥)! وفي التياعه، كانت تأتيه تعزية كلمة المرنّم، كما من إلهه، متكلِّمًا: "أنا أدرّبك وأرشدك في هذه الطّريق الّتي تسلك، وأرنو بعينيّ إليك" (٣١: ٨)!

في هذا الاتّجاه، كان الأب الياس لاهوتيًّا، بالمعنى الحيّ للكلمة، بامتياز!. كان يصلّي من قلب انفطر على خطيئته وعلى خطيئة العالم بالحبّ. لذا، صار لاهوتيًّا عن حقّ!. حضر الأب الياس، ذات مرّة، لقاء في اليونان، على ما روى الشّمّاس اسبيرو جبّور، تسنّى له فيه أن يقول كلمةً أثّرت في المشتركين لدرجة أنّ بعضهم هتف: "هذا هو اللاّهوت الّذي نريد"!.

اللاّهوتيّ لاهوتيّ الحبّ والصّلاة، أوّلاً. في ذا تكمن الحرّيّة، لا في الحقّ وحسب، بل الحرّيّة الحقّ. بعد التّحرّر بإفراغ الذّات، بالنّسك، والتّعب، والصّمت، والصّلاة، والدّموع، تأتي الحرّيّة، كحالة كيان، فتتحوّل الدّموع، إذ ذاك، من دموع للتّنقية إلى دموع لمعاينة وجه اللّه. "صارت لي دموعي خبزًا، نهارًا وليلاً"!. لا حرّيّة، في العمق، إلاّ حرّيّة الدّموع الّتي يطفر فيها المُجِدّ من دموع المشاعر إلى دموع التّوبة إلى دموع الشّكران!. اللّه، في نهاية المطاف، يُبكي!... بعد ذلك، تجري من البطن أنهار ماء حيّ!.

بهذا المعنى، وبهذا المعنى فقط، بلغ الأب الياس الحرّيّة الحقّ!. "الرّبّ

يرعاني فلا شيء يعوزني... أسكنني... ربّاني... أصلح نفسي... هداني... لذا، لست أخشى شرًّا لأنّك معي... لكي أسكن في بيت الرّبّ مدى الأيّام..." (المزمور ٢٢).

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٢٥ آب ٢٠١٩

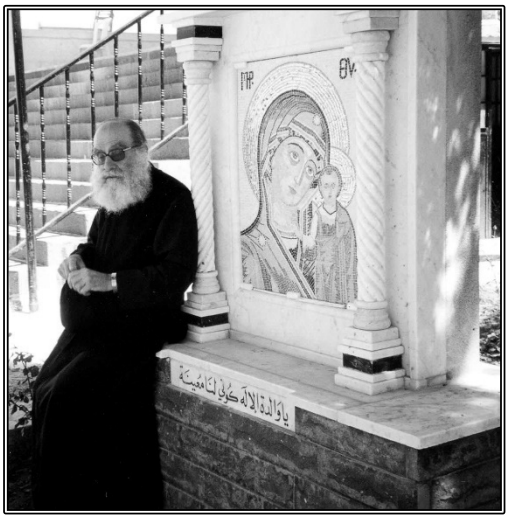

الأب الياس في باحة الدّار الأسقفيّة – السّويداء

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١٦)

خرج الأب الياس من اللاّذقيّة وهو يروم أن يصير إنسانًا جديدًا!.

طبعًا، كان قد بدأ مسيره، في هذا الاتّجاه، قبل ذلك، فكانت له خبراته، وكانت له نجاحات وإخفاقات. الغالب أنّه فتح عينيه، في عائلته، على مسيح الرّبّ. كان حاضرًا هناك. لا ما يشير إلى العكس في سيرته. جوّ اللاّذقيّة وجوّ البيت كانا مؤاتيين. الكنيسة، في حضورها في نفوس أكثر النّاس هناك، كادت تكون، يومذاك، مُعطًى تلقائيًّا. جوّ المدارس الكاثوليكيّة ساعد. النّشاطات الشّبابيّة فيها استوعبت العديد من ناشئة العائلات الأرثوذكسيّة، لكنّها فتحت العين على إمكان إنشاء ما يشبه حركة الشّبيبة الطّالبيّة الكاثوليكيّة أرثوذكسيًّا. الأب الياس عبّ الكثير من الثّقافة الفرنسيّة. لغته الفرنسيّة كانت دون هنّة. كذلك، أخذ الكثير من مدارس "الفرير" الّتي رادها. وبالفعل، كان هو أحد الأوائل الّذين تداعوا لإنشاء حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة، في الأربعينات من القرن العشرين.

الأب الياس، أصلاً، قرّاء، ومن طبعه ألاّ يخوض في أمر إلاّ ليملكه. قابليّته الفكريّة وحسّه الخلاّق وتوقه إلى المعرفة، لا سيّما في ما يثير اهتمامه، أهّله لذلك. مطالعته في الأدب الآبائيّ والنّسكيّ الأرثوذكسيّ ما لبثت أن أخذت بمجامع قلبه. شيئًا فشيئًا، تبرعمت في وجدانه فكرة التّكريس. وقليلاً قليلاً، في سرّه، استبانت الحياة الرّهبانيّة، عبر ما اجتمع لديه من اطّلاع، على خِلابةٍ استهوته، لأنّها كانت دعوة إلى التّماميّة في الحياة المسيحيّة، ما يوافق تطلّعه وتشوّفه للأمور، في العمق. الأب الياس، في الواقع، كان اجتماعيًّا، دمثًا، مرحًا، لطيف المعشر، لكنّه كان يحتفظ لنفسه بفسحة حميمة من التّأمّلات الخاصّة، ما جعله، في آن، مقبِلاً على الصّحبة واهتمامات الدّنيا باعتدال، لكنّه مُدبِر عنها، أيضًا، في خلوة قلبه. شيء ما أخذ يختمر في نفسه من حيث لا يدري به أحد، إلى أن تبلور وآتته الظّروف بعد سنين من الانتظار، فجمع نفسه وبعضَ ضروريّاته، قاطعًا نفسه عمّا تبقّى، وخرج إلى دير الحرف، في عزّ ما يشتهيه العاديّون في موسم الحصاد الدّهريّ.

الحقّ أنّ الأب الياس لم يطلّق النّاس ولا الأماكن الّتي عرفها، في ما فعل، في سيرته السّابقة، بخلاف أكثر مَن يطلبون حياة التّوحّد في التّراث. على العكس، بقي يفرح بصحبه ومعارفه، لكنّ توقه كان إلى هناك، إلى البعيد، إلى الملء، إلى الملكوت، إلى الإنسان الجديد... العاديّات، في اللاّذقيّة، لمّا تكفه، لكنّها كانت تضيّق عليه. لذا، لم يشأ أن تنتهي حكايته فيها. كان بإمكانه أن يتزوّج وأن تكون له عائلة. عديدات كنّ اللّواتي جعلن نظرهنّ عليه. هذا ما كان

ليملأ الفراغ الكيانيّ لديه. أراد أن يمتدّ إلى قدّام، بالكامل، إلى المنتهى. لذا، انطلق، على الرّغم من أنّه بقي يفرح ويرتاح إلى علاقته بالوجوه والأماكن الّتي غادرها. بقيت علاقته باللاّذقيّة هي هي، بعامّة، لكنّها باتت مُملَّحَةً مُطعَّمَةً بنكهة الوداد الإلهيّ، أخويّةً على أعمق بكثير ممّا كانت عليه.

ولكن، ما "الإنسان الجديد"، الّذي صار بؤبؤ العين الدّاخليّة، بالنّسبة إلى الأب الياس؟. في هاجسه، في همّه اليوميّ، في سعيه الدّؤوب إلى وجه ربّه؟. "الإنسان الجديد" فيه صار الخارج، أبدًا، من ذاته، أو بكلام أدقّ، من ذاتيّته، سالِكًا في الموت، كلّ يوم، من جهة ما لنفسه، ملتمسًا ما لربّه، في كلّ آن، ليصير ربّه لديه الكلّ في الكلّ!. أما هذه هي معموديّة الدّم في المسرى، المنبثقة من معموديّة الماء والرّوح؟ أليس "أنّنا كلّ مَن اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدُفنّا معه بالمعموديّة للموت، حتّى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضًا في جدّة الحياة" (رو٦: ٣- ٤)؟. اعتمدنا... دُفنّا... اقتداء بالرّبّ يسوع، لنسلك في مسيرٍ قياميّ، من قيامة مسيح الرّبّ، في جِدّة الحياة، في الإنسان الجديد!.

أيكفي أن يتبحّر المرء في تأمّلاته في ما للصّليب ليتمثّله؟. بل الحاجة إلى العنف، إلى بذل الدّم... العنف، لأنّ عنف السّيّد، في امتصاص عنف إبليس عليه في النّاس، كان أقوى وأجدى!. عنفهم أتى من إثم، وعنفه أتى من حبّ كبير!. في نهاية المطاف، كان عنفهم قد رسّخهم في روح جهنّم. أمّا عنفه، فقد أنجز انسكاب روحه على العالمين!. "أعطِ دمًا وخذ روحًا"!.

على هذا، جاء الأب الياس إلى دير الحرف ليتعاطى الموت، كلّ يوم!. أما كانت هذه كلمة الرّسول بولس إلى أهل كورنثوس: "إنّي، بافتخاركم الّذي لي في يسوع المسيح ربّنا، أموت كلّ يوم" (١كور١٥: ٣١)؟.

وعى الأب الياس ضرورة الخوض في الموت اليوميّ، وضرورة السّلوك في عنف الإرادة في ما لنفسه!. "أقمع جسدي وأستعبده" (١كور٩: ٢٧)، على حدّ تعبير الرّسول!. لكنّ جسده، أعني كيانه كلّه، ما كان ليخضع له بيُسر وتمامًا!. خبر ما عبّر عنه الرّسول المصطفى بالقول "لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه إيّاه أفعل" (رو٧: ١٥)، هذا أنمى فيه الحسّ العميق بجسامة خطيئة آدم العتيق وقسوتها، وجوديًّا، فصار يعرف، في آن، ضِعته، والمعنى الكيانيّ لقول الرّسول إنّه، أي الرّبّ يسوع، جاء ليخلّص الخطأة الّذين هو أوّلهم. كذلك، أخذ يعرف أن لا إمكان أن تستقيم قناة المجاهد من دون شخص الرّبّ يسوع عينه!.

خبر الأب الياس الموت في جسده، وخبر عجزه بإزائه. إذ ذاك، دخل في شركة وجدانيّة والرّسول الّذي صرخ: "ويحي أنا الإنسان الشّقيّ! مَن ينقذني من جسد هذا الموت؟ أشكر اللّه بيسوع المسيح ربّنا" (رو٧: ٢٤- ٢٥)! ساعتذاك، أخذ يدرك، كيانيًّا، أنّ وعي الإنسان لعجزه بإزاء جسد الموت وأنّ مقاومته للموت الّذي فيه، في كلّ حال، لازمان لاستدعاء المخلّص ليكون للإنسان خلاص!.

ليس الجهاد والعنف والتّعب من أجل نيل الخلاص كمكافأة. الخلاص

نعمة لا مكافأة، والنّعمة لا تأتي كثمرة لأتعابنا!. ليست النّعمة منّا ولا من تعبنا، بل هي ثمرة محبّة اللّه المُسبَغَة علينا بالمجّان!. أمّا الجهاد والعنف والتّعب، في التّحليل الأخير، فمن أجل أن يعي الإنسان عجزه الكيانيّ بإزاء الموت الّذي فيه!. كلّ إنسان يحكي البشريّة برمّتها. هذه سيرة العباد. لكن، ليس الجميع يعونها. فمَن وعاها، اتّضع!. الاتّضاع من الوعي العميق للضِّعة الّتي ألقتنا فيها سقطة آدم!. والاتّضاع، وحده، يستدعي روح اللّه!. "من الأعماق صرخت إليك، يا ربّ، فيا ربّ، استمع صوتي" (مزمور)!. هذه هي لجّة الاتّضاع الّتي تنادي لجّة اللّه المحبّة!. هم يسمعون في وجع قلوبهم، وهو يسمعهم في روح محبّته وينجّيهم!.

هذا ما حدا بالأب الياس إلى التّسآل، مرّة بعد مرّة: "أيتغيّر الإنسان؟". لم يكن جوابه، بعامّة، واضحًا، أو كان جزئيًّا، وبقي مثار جدل عندما كان يطرحه على الآخرين. خبرته كانت إلى تكامل ولم تكن، بعد، قد نجزت!. في وعيه المتنامي للموت في كيانه، وفي تعبه بغير هوادة، وفي شعوره العميق بعجزه من غير إلهه، فاضت دموعه وتركّزت صلاته!. وإذ كان يسير من موت إراديّ إلى موت إراديّ آخر، كلّ يوم، كان يصعد، انحداريًّا، من انكسار ذاتيّ إلى انكسار ذاتيّ آخر، من توارٍ إلى توارٍ أبعد!. هذا أعانه فيه وهنُ جسده ومرضُه، فزاده شعورًا بالضّعف فوق الضّعف، وألفى نفسه مسمَّرًا على ما فيه، من موت فوق موت، لا حول له ولا قوّة إلاّ بربّه!. كلّ هذا دفعه دفعًا إلى الرّجاء، وزاده اتّكاء على اتّكاء على السّيّد، وتسليمًا له فوق تسليم!.

الموت الّذي اقتبله، في سني عبوره، عن إرادة، تكمّل أخيرًا بالموات الآتي في جسده، عن غير إرادة. هذا بلّغه ذروة الشّعور بضعف الطّبيعة البشريّة وضعفه، وهذا أتى به إلى التّواضع الّذي طالما تكلّم عليه ولم يدركه تمامًا!. لِمَ لم يدركه؟ لأنّ التّواضع الكامل لا يأتي إلاّ بالتّسليم الكامل، وهذا لا يكون إلاّ بالموت!. كان لا بدّ من الموت، منذ السّقوط، إذ لا نياحة، في العمق، من دونه!. عندما سأل الأرشمندريت صفروني (سخاروف) القدّيس سلوان، في احتضاره: "أستموت، يا أبانا؟"، أجاب: "لم أبلغ، بعد، الاتّضاع"!.

في اليوم الأخير، قبل رقاد الأب الياس، ترك الطّبّ وكلّ عون له منه، ودخل في التّسليم الكامل، هكذا عريانًا من كلّ عون بشريّ. أصرّ أن يصعد إلى ديره. عرف أنّه سيموت. أعدّ نفسه. اغتسل وجلس في فراشه إلى أن جاءه السّيّد في القدسات، فساهمها، وأطبق عينيه، وارتحل! "الآن تطلق عبدك، أيّها السّيّد، حسب قولك بسلام"!. في تلك اللّحظة، أسلم نفسه بالكامل: "في يديك أستودع روحي"!. كان قد بلغ الاتّضاع المُشتهى!.

لا يتغيّر الإنسان إلاّ بالموت... ساعتذاك، يغادر الأرض... إنسانًا جديدًا!...

...لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١ أيلول ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١٧)

الخطيئة حُمقٌ! لذا، المسيحيّة الحقّ، للعالم، خُبْلٌ! ما الخُبل؟ فسادُ العقل! لمّا سمع أقرباء يسوع، خرجوا ليُمسكوه، لأنّهم قالوا إنّه مختلّ (مر٣: ٢١)! الشّيء نفسه قيل في الرّسول المصطفى بولس (أع٢٦: ٢٤)!. هذه هي "جهالةُ" اللّه الأحكم من حكمة هذا الدّهر، وهذا هو خُبل اللّه الأعقل من عُقّال هذا العالم!. حكّام هذا الدّهر، وهم في العادة حكماء، من غير اللّه، ماكرون، فطنتهم مكرٌ. لذا، همّهم التّسلّط. أمّا ربّك، المستخدِم نفسه لك، فهو الآخذ الحكماء بمكرهم!. تلك حكمته!. أحبّة الرّبّ يسوع يتّخذون حكمة "الخُبل الإلهيّ"، سيرةً، قليلاً أو كثيرًا، وفق ما بلغوه من مرقاةٍ في سلّم الفضائل!. يفرحون به وبه يسترون!. "خير لي أن أكون صعلوكًا في بيت إلهي من أن أسكن في مساكن الخطأة" (مزمور)!. والخطأة قائمون حيث ليس إلهي ولا فكر إلهيّ!. هنا يقيم الغنى وهناك يقيم الفقر!. هنا العظمة وهناك التّواري!. هنا الرّاحة وهناك التّعب!. هنا السّيادة وهناك العبوديّة!. "أقمع

نفسي وأستعبدها..."! أحيا ما هناك هنا! لذا، كان التّعقّل هنا وهناك الخُبْلُ!

صعب أن تحفظ الأمانة لربّك ولا تكون على شيء من التّباله!.

هكذا يكون الأخصّاء، وهكذا كان الأب الياس!. "قد متّم وحياتكم مستترة في اللّه"!. يظنّ الأكثرون أنّهم عرفوه، لأنّه قلّما تغيّر في تصرّفه معهم عمّا عرفوه، ولا يعلمون ما هو، بعد أن ترهّب!. ليس الأهمّ، يا صاحِ، ماذا تقرأ، بل كيف تقرأ!. أراد الأب الياس أن يتعلّم أبجديّةً جديدة لم يكن يعرفها!. أما خرج القدّيس أرسانيوس الكبير من القصر إلى البرّيّة للسّبب عينه؟. هذه هي الّتي أخذ يتكلّمها ويقرأ بها كلّ شيء!. لكنّ الأب الياس دفع ثمن التّغرّب غاليًا!. كما يقرأك إلهك لا كما تقرأ أنت إلهك ونفسك والعالم!. والثّمن كان الفقر عن إرادة، وإيثار التّعب، والإقرار بالجهل بما للّه! "غبيّ أنا ولا معرفة عندي"!. ثمّ قَطْعُ المشيئة وقطع المشيئة، والصّبر والصّبر والصّبر دمًا!.

أعندك فكرة كم هو مكلف أن تقول إنّك لا تعرف، أو أن تخرس، وأنت تعرف جيّدًا ما يسألونك عنه، لأنّك تطلب أن تَخفى، وأن يقولوا فيك جاهلاً، ولا يقول أحد فيك حسنًا، ولا يمدحك، لتروّض نفسك على التّواري وإفراغ الذّات؟!. هذا هو الجنون بعينه!. توجعك نفسك، بادئ ذي بدء، وترضى وتتبنّى وتسأل العليّ أن يعينك!. تحتسي العلقم، مرّة بعد مرّة، وقلّما تجد عزاءً غير كلمة مولاك!.

يضغطك عقلك وحسّك، في هذا المسار، فتقبل أن تُهمَّش وأن تقعد في العتمة تنتظر، بصمت، خلاص إلهك!. "لماذا تقلقينني، يا نفسي؟ توكّلي على اللّه..."!. "كثيرون قاموا عليّ. كثيرون يقولون لنفسي: لا خلاص له بإلهه"!. ولا تجد لديك غير وعدك له وترضّض نفسك: "على كلمتك ألقي شبكتي"!. تصلّي، تسجد، تبتهل، تنتظر، تكدّك الأفكار!. نفسك تتعب!. حتّى متى؟!. تسكت!. لا تعرف إلى أين!. يُضنيك العطش في برّيّتك!. "أللّهمّ، بادر إلى معونتي. يا ربّ، أسرع إلى إغاثتي"!. تُسرّ، تتشوّف، تنادي، ليأتيك في نعمته، الآتي إليك أبدًا، من حيث لا تعلم!. كلّ ما في داخلك، لحظة ذاك، يصرخ ربّاه!. فيأتيك بسمك كثير، ملء شبكتك، أكثر من طاقتك، فتبكي، ويختنق الصّوت فيك، وتنزل على ركبتيك مهتزّ الكيان، واعيًا، حتّى الوجع الشّديد، تفهك وعظمة إلهك: "اخرج، يا ربّ، من سفينتي لأنّي رجل خاطئ"!.

هكذا، غار الأب الياس في الأتعاب، ودموعه تشهد، كما في لجّةٍ، يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، شهرًا بعد شهر، سنة بعد سنة، ليل نهار!. جعل الموت حدّه، ولا حياة روحيّة، في العمق، إن لم تفعل!. اللّحظة ما قبل الأخيرة، في العادة، أقسى اللّحظات، إذ يبلغ المجاهد الذّرى شعوراً كيانيًّا بضعفه ونفاذ صبره!. لكنّ اللّحظة تلك هي الأثمن، لأنّه إمّا أن يسلم نفسه أو يستسلم، لا خيار ثالث!. بصق الأب الياس دمًا، ووهنت قواه ولم تخر روحه: "إنّي، ولو سلكت وسط ظلال الموت، لست أخشى شرًّا، لأنّك أنت معي" (مزمور)! لا سلامة حقّ إلاّ بالتّسليم كلّ حين! "في يديك أستودع روحي"!

لك، يا صاحِ، تحدٍّ كبير في جنوحك إلى المزاح، أحيانًا، إن كنت تحبّ كالأب الياس أن تلعب!. بعضهم استأنس فكاهته ولم يلج إلى ما هو أعمق من الضّحك، ففاته وجه الأسى في ما هو فَكِهٌ! وبعضهم استهضمه واستغرب!. وبعضهم استخفّ به، لطويّته غير النّقيّة! وبعضهم أهانه لأنّه كان قاسيًا جاهلاً! "أيّ راهب هو هذا؟!"!. سيّدة، ذات مرّة، ردّت على مزاحه، في وجهه: "بلا جعدنة"!. لمَن لا يألف الكلمة، تعني: "مش مهضوم، بلا طق حنك"!. فلم يُجبها بكلمة!. ارتسمت ابتسامة خفيفة على محيّاه، وأطرق!. لعلّه، في الرّوح، سُرّ!. لكنّه كإنسان شعر بالمهانة، وكأنّه لا حقّ له في أن يشعر كذلك!. متى يطأ عتبات اللاّهوى؟!. كيف يحوّل المهانة إلى مسرّة؟. امتصاص توتّرات النّفس صار، لدى الأب الياس، صِنعةً!. والتّوتّر يعني وجعًا!. هل يرتدّ عن المزاح؟. كلاّ، أبدًا. هذا شيء من تكوينه، وهذا شيء من متنفَّسه في لجّة الضّيقات!. ثمّ كان الأب الياس يعرف بالرّوح أنّ في المزاح تمويهًا جيّدًا!. شيئًا من تباله!. كان يتعاطى الأوجاع ليردّ الأوجاع!. أقصد بالأوجاع الأولى أوجاع النّفس، وبالأوجاع الثّانية أهواء النّفس!. على هذا النّحو، كان يبذل دمًا، كلّ يوم، ليأخذ روحًا!. أحبّ الغربة والغريب، لأنّه جعل نفسه، في القلب، غريبًا!.

مرّة، أوحي إليه، من أحد الأئمّة، بأن يتوارى، فلم يعد يستبين لا في الأحاديث ولا في الكتابة!. كأنّ مَن قال له ما قاله له ذكّره، فوق ما كان يعرف، أنّ عليه أن يموت كلّ يوم!. نسكه الدّاخليّ كان له منه موقف في

غاية الجدّيّة!. كلّ شيء، في وعيه، كان برسم النّسك على رجاء المودّات!.

كلّ هذا جعله، في آن، رجل أوجاع، في حلّة فَكِهة، وشريكًا في أوجاع الآخرين، في حلاوة قلبه!. متنفَّسه، متى ضاق تنفّسه، كان دموعه!. يبكي على خطاياه بعنف، ويبكي في الصّلاة، على وقع كلمات ربّه، بصمت!. يبكي أوجاع الآخرين بنشيج، ويبكي على خطاياهم بتوسّل واسترحام!. هذا كلّه، قصده الأب الياس أن يكون في الخفاء، إلاّ لمَن استرق النّظر إليه خفيةً أو صدف أن سمع نشيجه!. أمّا في النّاس، وبين الجدّيّة في الموقف واللّعب والمزاح، فلديه سحابة رقيقة! ويمرّ التّباله، بقصد ومن دون قصد، هنا وثمّة، فلا تلاحظه إلاّ إذا كنت إليه بروح ربّك!. أمّا هو، فألف بعض التّباله سيرةً!.

حين تكون ذكيًّا وتروم الملء في اللاّهوت، يُضنيك ذكاؤك!. الطّاقات لا أدري إن كان ممكنًا لها أن تموت، لكنّها، بكلّ تأكيد، قابلة لأن تتحوّل من مسارات بشريّة إلى مسارات روحيّة!. الأب الياس كان ذكيًّا جدًّا. لذا، كان في عالمه مُضنَكًا جدًّا، وكان بحاجة إلى بدائل تعبيريّة مقبولة لذكائه!. في التّأليف، كتب وأجاد، وكذا في الاعتراف والاسترشاد، وكذا في الأحاديث! لكنّ بعض ذكائه وجد له بذلك متنفَّسًا وليس كلّه!. اللّعب والمزاح واللّعب على الكلام، وما سوى ذلك، وظّف فيه بعضًا آخر من ذكائه، والباقي تكفّلت به دموعه كمَن يقدّم ذبيحة!. بعض التّباله، في ذلك كلّه، كان أدنى إلى الحاجة، لأنّه كان على دقّة في الفكرة والأداء!. دونك هذا المثل: ما هو الشّيء الأصفر الّذي يصفّر وهو معلّق في السّقف؟. طرح الأب الياس "الحزّورة"

بجدّيّة! لم يعرف أحد الجواب! "كْعينا"! "الجواب"، قال، "السّمكة"! "ماذا؟"، "أجل، السّمكة"! "كيف ذلك؟ كيف كانت صفراء؟". "أنا دهنتها"!. "وكيف كانت معلّقة في السّقف؟". "أنا علّقتها"!. "وكيف كانت تصفّر؟". "هذا من أجل جعل الحزّورة صعبة"!. ها! ها! ها!. الأب الياس لم يضحك!. فقط، ابتسم!. لكنّ عينيه التمعتا!. نظرته كانت كنظرة ولد "رذيل"!. "الحزّورة" كانت بحاجة إلى مستوى من الذّكاء، لا سيّما القصد منها!. فيها سخرية!. وفكاهتها آتية من سخريتها وغرابتها!. وسامعها لا يعرف أن يستسيغها إذا كان عاديًّا!. إذا لم يكن فطنًا، لمحًا، فإنّ المضمون يفوته!. مَن تلقّت الرّسالة، يومذاك، كانت سيّدة جاءت لترى مَن يكون الأب الياس، الرّاهب المعروف! توقّعت الجدّيّة وجاءت بجدّيّة!. أوّل ما سمعت "تنكيته" عثرت!. لم تفهم إلاّ في ما بعد!. أدركت أنّ الجدّيّة، في الحياة الرّوحيّة، ليست في أن تحفظ وجهك مقطّبًا، بل أن تحفظ قلبك يقظًا!. الباقي لا يعني، بالضّرورة، شيئًا! ما في القلب يظهر في المحيّا أو لا يظهر، هذه مسألة أخرى!. المهمّ أن تعتاد على أن تكون عينك على الدّاخل!.

في التّباله شيء من التّظاهر. هذا ليس كذبًا بالمعنى المألوف بين النّاس، ولو كان المرء فيه لا يُظهر الأمر كما هو، بل يطلب ما هو حقّ إلهيّ بالتّظاهر بأنّه فاعلٌ أمرًا آخر، أو كأنّه لا يعرف وهو يعرف جيّدًا!. مثل ذلك سير الرّبّ يسوع، بعد قيامته، مع تلميذي عمواس وتظاهره بأنّه منطلق إلى مكان أبعد (لوقا ٢٤)!. الأب الياس كان، أحيانًا، يتعاطى هذا الأمر بحرّيّة أبناء

اللّه. لا أظنّه كذب مرّة ليخدع، بل كان يخفي ويقول ما هو حاصل للمنفعة، أو احترامًا لشعور الآخرين، أو لئلاّ يجرح أحدًا!. دونك هذا المثل للتّندّر: الأب أغابيوس، في شيخوخته، كان يحبّ، مثلاً، أن يرافق الأب الياس في خروجه من الدّير، كما يتعلّق الأولاد بذويهم. فكان الأب الياس يقول له: قد يأتي السّفير اليوناني، يا أبانا، لزيارتنا!. تمرّن على اليونانيّة لتكلّمه هكذا بلغته!. فيضحك الأب أغابيوس ويضحك الأب الياس والحاضرون، وتنقضي المسألة!. هذا في المسائل البسيطة. في المسائل الصّعبة، كان يقول ما فيه منفعة للآخرين، ولو لم يكن أحيانًا صحيحًا تمامًا!. يقول عن هذا غير ما قاله له ذاك، ولذاك غير ما قاله له هذا، ليجمع حيث بذور الخلاف!. يصير المرء على صورة ما يُقال له، لا سيّما إذا كان المتكلّم حبيبًا!.

أمّا بعد، فما يبدو في التّظاهر أو التّباله على ازدواجيّة، فإن توسّم صاحبه البنيان، كان، على غرابته، نافعًا!. نيّة القلب تحكم في ما للظّاهر، والظّاهر لا يتحكّم إلاّ بالّذين اعتادوا أن يحكموا بحسب الظّاهر!. والتّظاهر، كائنًا ما يكون، في إطار الشّريعة، لا بدّ منه، لأنّ مَن يطلب الحقّ، في عالم كثرت فيه تعابير الباطل، محكومة عليه الاستعارة ليكون له أن يعبّر بالمألوف!. طبعًا، يختار ما يوافق وليس مؤذيًا. ولكن، تذهب أفهام الفهماء في مراقٍ، وأفهام الّذين لا يعلمون في غيرها!. هذا يأتي لأبناء الملكوت من غربة تنمو عن هذا العالم وتزداد، فيما تأتي، لأبناء هذا الدّهر، ممّا هو مألوف، وهم لا يفقهون!.

هكذا، زاد تعاطي المألوف الأبَ الياس غربةً فوق غربة، توخّت، في

الحقيقة، القربى من الحبيب والأحبّة، إلى تلك السّاعة الّتي جعل فيها نفسه بين الأرض والسّماء!. الأرض وراءه بالكامل، والسّيّد بإزائه بالكامل، ولسان حاله: "هأنذا أمة للرّبّ"!. كان قد أفرغ نفسه، وزاده ربّه إفراغًا فوق إفراغ! إذ ذاك، التحم بقولة الرّسول: "الآن، أُسكَب سكيبًا، ووقت انحلالي قد حضر... أخيرًا، وُضع لي إكليل البِرّ الّذي يهبه... في ذلك اليوم، الرّبّ الدّيّان العادل... لجميع الّذين يحبّون ظهوره..." (٢تيمو٤)!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٨ أيلول ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(١٨)

الكيان المخلوق والكون من واحد!. هذا مشغول بدقّة مذهلة، وذاك بدقّة أعظم، بما لا يُقاس! ولكن، كان الكون أوّلاً ليكون في خدمة الخلاص، حضنًا يحتضن الكيان الّذي على شبه اللّه، ويغذّيه ويُنميه!. هذه لم تعد نظرة فلسفيّة، ولا موقفًا لاهوتيًّا، فقط، بل تؤكّده العلوم الدّقيقة كالفيزياء، وعلم النّجوم، وعلم الكون، وسواه، اليوم وكلّ يوم، هذه الأيّام!.

مباركة هي مملكة الآب والابن والرّوح القدس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدّاهرين، آمين.

في البدء، خلق اللّه عنصر الهيدروجين[٤٥]، والهيدروجين كان حارًّا، ولا

[٤٥] الهيدروجين رمزه (H) ورقمه الذّرّيّ (١). كلّ شيء، في بداية الكون، كان هيدروجين مضغوطًا، وكانت الخليقة على أصغر ما تكون. لذا، كانت الحرارة مرتفعة إلى أبعد الحدود. ثمّ في لحظة حصل الانفجار الكبير! هذا لم يكن انفجارًا غاشمًا، بل أخرج الخليقة الكونيّة، على كلمة اللّه، إلى حيّز الوجود، على أدقّ ما يمكن أن يكون هذا الوجود، وعلى نحوٍ يفوق كلّ

أحرّ، وكان الهيدروجين صغيراً ولا أصغر!. كلّ شيء كان فيه، وفي غيره لم يكن شيء ممّا كُوِّن!. هذا قاله اللّه في البدء، وهو الكائن قبل البدء. وقال اللّه: لتكن الخليقة، فكان الكون وكلّ ما في الكون، بدءاً. وصارت الحياة، بأمر اللّه، نورَ الكون، والنّور يُضيء في الظّلمة، والظّلمة لم تُدركه، والظّلمة تخدمه. سبعة وتسعون في المئة من الكون مادّة وطاقة مظلمة!. هذا صار في البدء من اللّه!.

وقبل البدء، كان اللّه، واللّه محبّة. فقال اللّه: ليكن نور، فكان نور، وكان النّور صلاةً!. فصارت الصّلاة حياةً والحياةُ حارّة، ولا أحرّ، كما من حياة اللّه، ناراً ونوراً!. والحياة قوام الخليقة، والخليقة بمثابة جسد لها. لذا، كان الكون. بلى، الكون، في كلّ وسعه، كان من أجل الحياة، من أجل الإنسان، من أجل مشروع الخلاص، من أجل تألّه الإنسان. "أنا قلت إنّكم آلهة"!. هذا ليس تشبيهاً، بل إقرارُ واقعٍ آتٍ منذ الآن!. لذا، كان الكون. والكون

تصوّر! هكذا، حصل ما يعرّف عنه العلماء اليوم بـ"الانفجار الكبير Big Bang"، ويجري رصده، بتفاصيله، بدقّة كبيرة، من خلال قراءة ما يصلنا من أنوار وانفجارات حصلت منذ اللّحظات الأولى لهذا الانفجار، وهي تبلغنا بعد سيرها عبر الكون، لأكثر من ١٢ مليار سنة ضوئيّة. وهي تبلغنا، هذه الأيّام، كلّ يوم، بمزيد من المعطيات بشأن تاريخ نشوء الكون، بحيث تجتمع المعلومات لدينا، كما لم تجتمع في أيّ يوم من تاريخ البشريّة. هذا كلّه يحدث منذ أواخر القرن الماضي، وبخاصّة خلال القرن الحادي والعشرين إلى اليوم وتزيد. هذا من حيث إنّ موقع الأرض في الكون، وهذا الزّمن، بالذّات، باتا يُتيحان للعلماء أن يتعرّفوا، كلّ يوم، وبشكل متنامٍ ودقيق، بما أوتوا من آلات قياسيّة، إلى تاريخ نشوء الكون بنسبة مئة في المئة! لماذا تصل كلّ هذه المعلومات إلينا في هذا الوقت بالذّات؟! أما لهذا مغزاه العميق في تدبير اللّه؟!

كان من أجل الكينونة. والكينونة كانت الصّلاة. والصّلاة صارت إنسانًا، حلّ في الكون، ليتمجّد اللّه به!. هذا صار منذ البدء عند اللّه!.

لا يصلّي الإنسان إلاّ ليصير صلاةً! لا يكون الفعل إلاّ من أجل الكينونة! نحن نحبّ لنصير محبّة، على شبه اللّه، لأنّ اللّه محبّة!. اللّه لا يصلّي لأنّه ملء الصّلاة وملء الكيان، وفوق الملء وفوق الكيان! وهو كيان صلاة لأنّه محبّة! على هذا النّحو شاء اللّه أن يصير الإنسان على شبه اللّه!. ابن الإنسان صلّى لأنّه ابن الإنسان!. وقد صلّى ليعلّم الإنسان الصّلاة، فيصير الإنسان، على هذا النّحو، صلاةً!. "علِّمنا أن نصلّي!". قال: "متى صلّيتم..."، ولم يقل: "إذا صلّيتم..."!. هذا، لأنّ كلّ شيء كان من أجل الصّلاة، ومن دونها ليس شيء كائنًا إلى الأبد!. الصّلاة هي الحضن الحامل بذرة الحياة الأبديّة، وبلاها موت!. كلّ شيء في الكون جسدها، ومن دونها لا قيمة لجسد!. والجسد الفيزيائيّ كائن، هنا والآن، لكي تتكمّل الصّلاة فينا، وبعد أن تتكمّل، لا تعود هناك حاجة إلى جسد فيزيائيّ، وتاليًا، إلى كون فيزيائيّ!. يحلّ محلّه، على قولة بولس الرّسول، جسد روحانيّ!. "خذوا كلوا، هذا هو جسدي"؛ هذا هو كياني!. "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان، فليست لكم حياة فيكم"!. "ثمّ رأيت سماء جديدة وأرضًا جديدة، [هذا يعني كونًا جديدًا ذا نواميس جديدة]، لأنّ السّماء الأولى والأرض الأولى مضتا، والبحر لا يوجَد في ما بعد" (رؤ٢١: ١)!.

كان الأب الياس يبحث عن كيان نفسه في الصّلاة. هذا، لديه، كان المُثمَّن الّذي لا يُثمَّن!. الإنسان مشروع صلاة، أو لا يكون!. لذا، ترك كلّ شيء من أجل الصّلاة، ليتعاطى الصّلاة، ليصير صلاةً!. كلّ تعب الأب الياس كان من أجل أن يصير رجل صلاة، في إنسان القلب الخفيّ، كيانَ صلاة، كينونةً على شبه كيان اللّه، محبّةً في صلاة!.

كان دائمًا، في أحاديثه، يشير إلى ما له علاقة بالكيان، إلى الكيانيّ، إلى ما هو من الأعماق... "تعبنا اللّيل كلّه ولم نُصب شيئًا"!. "ألقوا شباككم في العمق"!. "على كلمتك ألقي شبكتي"!. "فأصابوا سمكًا كثيراً"!.

اكتشف الأب الياس اللّؤلؤة الواحدة الوحيدة الكثيرة الثّمن: الصّلاة!. فباع كلّ شيء آخر له واشترى تلك اللّؤلؤة!. تعالوا، افرحوا معي لأنّي وجدتُ درهمي الضّائع!. كَنَستِ البيت كلّه وعرقت وتعبت!. أخيراً وجدته!.

كان الأب الياس يحبّ ذاك القول من نشيد الأنشاد ويردّده: "في اللّيل، على فراشي، طلبتُ مَن تحبّه نفسي، طلبته فما وجدتُه. أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق وفي الشّوارع، أطلب مَن تحبّه نفسي. طلبته فما وجدته. وجدني الحرس الطّائف في المدينة، فقلت: أرأيتم مَن تحبّه نفسي؟ فما جاوزتُهم إلاّ قليلاً حتّى وجدت مَن تحبّه نفسي، فأمسكته ولم أُرخِه حتّى أدخلته بيت أمّي وحجرة مَن حبلت بي. أحلّفكنّ، يا بنات أورشليم، بالظّباء وبأيائل الحقل ألاّ تيقظن ولا تنبّهن الحبيب حتّى يشاء" (٣: ١– ٥)!.

الصّلاة، في الحقيقة، هي يسوع عينه!. هذا، في نهاية المطاف، تكتشفه بعد أن تنطلق!. تكتشفه، وضعًا، لا قولاً، وإلاّ لا معنى للصّلاة، ولا للمسير، ولا قيمة!. لستُ أطلب ما لكم، بل إيّاكم!. طلبته فما وجدته!. هذا لأنّي محتاج أوّلاً إلى أن تحترّ نفسي فيّ، إلى أن يصير مَن أطلبه حبيبَ نفسي!. الإنسان قلب!. ما ليس للقلب ليس من طبيعة الإنسان!. بعد ذلك، يمكنني أن أطلبه بإصرار، في اللّيل، في النّهار، في المدينة، في الأسواق، في الشّوارع، في كلّ مكان! وأردّد: "مَن تحبّه نفسي..."، كمَن يستحثّ نفسه بتواترٍ عطِشٍ إلى الارتواء ولا يملّ!.

الشّوق إلى الحبيب يؤجّج التّوق إلى إيجاده!. في سعيي، أعبر بالحرس، رموز الشّريعة. الشّريعة إن هي سوى لحراسة الطّريق إلى الحبيب، وليست الحبيب إيّاه!. لا بدّ لي من أن أعبر بالحرس، بالشّريعة، لأتجاوزها، وإلاّ لا أكون مهيّأً لأن أجد الحبيب!. أكون لصًّا ومختلِسًا!. الشّريعة هي من أجل أن أعرف أنّ الخطيئة خاطئة جدًّا، لا من أجل أن أعرف الحبيب، مَن تحبّه نفسي!. أعرف الحبيب متى أعطاني ذاته!. هكذا، لا بدّ من الشّريعة أوّلاً، وإلاّ لا آتي إلى معرفة ما عرفني السّيّد الإله أوّلاً من أجله!.

ولكن، لا مناص، بعد لقاء الحرس، من أن أتجاوزهم، لا كثيرًا بل قليلاً، عند خروجي من باب المدينة، بعد الحرس، هكذا في العتمة، في الخلوة، في الفلاة!. ساعتذاك فقط، أجد مَن تحبّه نفسي. يكون في انتظاري. أنا لحبيبي وحبيبي لي!. فأمسكته، بجوارحي، بكياني!. كنت بكُلّيّتي متّقدًا إليه!. فلم

أُرخِه، وكيف أرخيه؟!. هذه هي المنية والمنى، هذا هو بؤبؤ العين، والنّور، والصّبح، وكوكب الصّبح!.

أخيرًا، أدخلتُه بيت أمّي وحجرة مَن حبلت بي! حشاي وكياني الدّاخليّ، في حجرة قلبي الدّاخليّة!. بعد ذلك، يا بنات أورشليم، يا عذارى العروس وصحبتها، أحلّفكنّ باسم اللّه الّذي قطعت له وعدًا كما قطع هو لي عهدًا، بالظّباء، بأيائل الحقل، بعذارى الخَلْق، ألاّ تُحدثن نأمةً، حركةً، مهما كانت طفيفةً، فيستيقظنّ الحبيب!. دعنه يرتاح فيّ، في السّكون، لأنّي لست أرتاح إلاّ إليه، فيه! يستكين! يغفو! أنام وقلبي مستيقظ من أجل الحبيب ليستيقظ فيّ وهو غافٍ!. إن كان ينام، فهو يرتاح، لأنّ راحته روح وحياة!. بعد ذلك، ليكن لي بحسب قولك!. كما يشاء وإلى ما يشاء!. لتكن مشيئتك!. في يديك أستودع روحي!.

ماذا جرى في الحجرة الكيانيّة للأب الياس؟. هذا سرّ اللّه فيه!. لكنّه كان ينضح، أبدًا، من رطب الصّلاة، وجعلنا الرّبّ الإله، على مدى سنين، في تناضح روحيّ!. أليس هذا شأنَ مَن يتوادّون في مسيح الرّبّ؟!. النّور لا تعرفه إلاّ إذا كنتَ فيه، لكنّك تعرف أنّه كائن لأنّك ترى كلّ شيء مضيئًا به!.

لا يهدأ القلب حتّى يستقرّ الحبيب فيه!.

كلّ شيء، لدى الأب الياس، كان في كفّة، والصّلاة في كفّة أخرى!. كان يحبّ أن يصلّي، وكان، في العين، يتجلّى فيما يصلّي. يصير إنسانًا آخر،

إنسانًا جديدًا، غير ما تعرفه!. هذا ملكوته الدّاخليّ، يُطلّ عليك منه، ويحلو له أن يفعل، ولا يحلو له أيّ شيء آخر، كما تحلو الصّلاة له!. كان يصلّي من أجل النّاس، ويبحث عنهم ليصلّي من أجلهم!. كان كيانه يتّسع، كلّ يوم، التماسَ أن يصير أوسع من الكون في اتّساعه!. الأرحب من السّموات!. متى سمع عنهم وأنّهم في حاجة أو ألم أو ضنك!. لا أطيب لديه من أن يغرف ممّا بثّه روح اللّه فيه ليسكبه على الأحبّة، والعباد كلّهم، لدى رجال اللّه، مشاريع أحبّة!.

إذا ما سمع عن أحد، حتّى لو كانت معرفته به طفيفة، أنّه مريض، مثلاً، تذكّر لعازر!. الّذي تحبّه مريض!. هذا ليس من اجتماعيّات النّاس!. هذا من مودّات ربّك!. مَن تجده، بعد بحث طويل، الحقيقة أنّه هو الّذي يكون قد بحث عنك فيك ووجدك، وأنّه هو الّذي يعلّمك أن تبحث عنه في نفسك والأحبّة، لأنّه لا أطيب من أن تضع يدك في الصّلاة على أحد!. فإنّك متى وضعت يدك عليه، وجدته!. كان ضائعًا فوُجد!. ليس بغير الحبّ إيجاد، ولا بغير الصّلاة استعادة!. إن كان لأحد مئة خروف وضلّ واحد منها، أفما يترك التّسعة والتّسعين من أجل الواحد؟!. ومتى وجده، فإنّه يفرح به أكثر من التّسعة والتّسعين الّتي لم تضلّ!. جِدوا بعضكم بعضًا بالمحبّة، لئلاّ يضلّ أحد عن الصّلاة!.

منذ بعض الوقت، ظهر الأب الياس لأحد الرّهبان في النّوم وقال له: قم صلِّ من أجل مَن تحبّ!. كان مَن يحبّ واحدًا من الإخوة الكهنة!. قام

وصلّى وصلّى!. لا بدّ أن يكون فلان في ضيق!. في اليوم التّالي، اتّصل هاتفيًّا ببيت مَن يحبّ، فردّت زوجة الكاهن: ماذا بك؟ كيف عرفتَ؟! عرفتُ ماذا؟! صديقكَ كان في المستشفى! ماءٌ داخل غشاء القلب! كان بحاجة إلى جراحة! حدث ذلك قبل يومين من الفصح!. بقي الكاهن في المستشفى يضرب أخماسًا بأسداس! نخسته الصّلاة! يا أبانا الياس! كيف تتركني هنا ولي خدمة تنتظرني؟! أما تُعينني؟!. في صباح اليوم التّالي، جاءه الطّبيب وكشف عليه!. استغرب!. شيء جديد حصل بخلاف فحوصات الأمس!. نشف الماء داخل غشاء القلب، فعاد الكاهن مُعافًى تمامًا!. بإمكانك أن تخرج!. لا لزوم لبقائك!. خرج بعد الظّهر!. كان فصحُ اليوم التّالي في انتظاره!. تبارك اللّه!.

هذا ما كان عليه الأب الياس في تمخّضاته، في سرّ قلبه، في ارتجاجاته، في استكاناته!. والآن، بات في الاستكانة الكاملة!. فلا غرو إن كانت صلاته رقراقة في حياته!. مَن لم يذق صلاة الرّجل ومفاعيلها، وما ينقله في الصّلاة، لا يعلم ولا يعرف شيئًا من كينونة قلبه!. أخيرًا، تخرّج من جامعة البرّيّة، بعدما وجد مَن تحبّه نفسه!. لم يعد يُرخِه، بل لم يرخه ربّه!. في ذلك اليوم، كلّ الأب الياس صار عينين كبيرتين تلمع فيهما دموعه!. كان آتيًا من هناك، متشوّقًا إلى ما هناك، مقدِّمًا ما جمعه من هناك... صائرًا إلى هناك!. انفجارًا ضوئيًّا جديدًا! بارك الرّبّ بكم! أحببتكم وأحبّكم! إلى أن نلتقي! اللّه معكم!

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٥ أيلول ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة!..
(١٩)

... ويرتحلون، الأحبَّة!...

... ويرتحلون، الأحبَّةَ، مخلِّفين غصّة، في القلب، تلو الغصّة. حفنة الرّمل، في الكفّ، مهما أحكمتَ يدك إقفالاً عليها، تتراخى قبضتُك بقوّة الشّدّ وتنسلّ حُبيباتها، إذ ينفرج، لديك، الإصبع عن الإصبع مرغَمًا، فإذا بك تلقاها تتناقص، بعد زمن أو زمنَين، إلى أن تَلقى راحتك صِفرًا ممّا كنت ضنينًا به وحسبت أنّ العمر مستحيل بلاه...

"قد قام، ليس هو ههنا". بين التّرجّي والوجْد، لا تبقى لك غير علامة قيامة، لفائف ومنديلاً، فترى وتؤمن أنّهم يقومون في مَن قام لكي لا يذوقوا الموت من بعد. القبور تفتّحت، وقام كثير من أجساد القدّيسين الرّاقدين! تنظر غير المنظور، في كيانك، فتجتهد لتقبض على ما عاينته قبسًا في داخلك، فما تقدر! محتوم عليك، ههنا، أن تبقى مشلوحًا على الرّجاء، تدفعك الأيّام دفعًا إلى فراغ الذّات. حسبك أن تقبل وأن تساهم، ولو قليلاً، في إفراغ

نفسك، في ما لا تستسيغ ويوجعك ويتركك وحيدًا. فشلُ الصّليب يأتيك، أوّلاً، ثمّ بعد ذلك نصرة القيامة، حتّى ترضخ للتّلاقي عن إرادة وأنت عارف، يقينًا، أنّه لا أحد، بعدُ، ميتًا في القبر!

سيرتك، على الأرض، لملمة جراح، إلى أن يطالعك وجه الّذي شقّ السّماء ونزل (إش ٦٤: ١)!

"لقد ذهبوا وهم يبكون، إذ كانوا يُلقون بذارهم، لكنّهم سيرجعون فرحين، حاملين أغمارهم"! المرأة، متى وَلدت، تنسى أتعابها، لأنّ حياة جديدة تكون قد شملتها لفائف النّور!

اليوم، الجمعة، الخامس من شباط، العام ألفان وأحد عشر. سرنا، عبر الممرّ، إلى حيث غرفة الأب الأرشمندريت الياس مرقص، فوجدنا أطبّاء وممرِّضين يُعدّونه ليُنزلوه إلى غرفة العناية الفائقة، مرّة أخرى. وَهَنُ جسده يزداد، ورئتاه إلى تعب والتهاب متزايدَين. لم يعد البدن مطواعًا، والنّفْس أسرى كما ليكتمل الإيمان تسليمًا إلى المنتهى. لا عودة بيِّنة إلى الوراء! ظلمة ما للّحم والدّم تتكثّف، إلى أن ينبلج من الظّلمة نور بإذن اللّه!

لا ندري متى تأتي السّاعة الّتي يتوقّف فيها ما تُسلَّط عليه الآلات، والأنابيب، والأمصال، والأدوية، لكي لا يتوقّف. الصّراع قائم، الآن، بعنف، بين جسد يرتحل وإرادات تبذل وسعها لكي لا يرتحل، أو لتؤجِّل رحيله، تعبيرًا عن تمسّك شرس به، حتّى لا يحسّ الأحبَّة أنّهم قصّروا في المحبّة في شيء!

كان صاحيًا والعربة تسير إلى حيث لا نعرف. في عينيه كان تسليم ودمعة وسُحنة على قتام تحكي بعض الاختناق. على الرّغم من ذلك، بارَك مَن كانوا حوله، وترك مَن رغب يلثم يمينه. ماذا يجري في وجدانه وهو إلى هناك! في كل أيّامه، تروّض على التّسليم، وعلّمنا التّسليم. حكاه في سيرته، سنة بعد سنة، ما يزيد على الخمسين ربيعًا. يصلّي؟ ماذا بقي له غير الصّلاة؟! الصّلاة مركبة إيليّا شفيعِه إلى فوق، وهي الآن تحتدّ نارًا ونورًا! كان يخشى هذه السّاعة، لكنّه لهذه السّاعة أتى! هو المعلّم خطّ معالم الطّريق لمَن حمل صليبه وسار وراءه. أيقونة أضحى في النّزول إلى الموت! روح الدّعابة، الّتي كان إليها كالأظافر إلى اللّحم، استكانت الآن! عرف، بإحساسه الأبلغ من كلّ كلام، أنّه يودّعهم ويودّعونه! وأُخرج كمصارع إلى الحلبة، حلبة التّسليم، بعد عمر من التّروّض على الجهاد. وابتعدت العربة ونحن ننظر، وفي القلب مهابة ورجاء. "في يدَيك أستودع روحي"!

كلّنا ساهم هو في إيلاده إلى الحياة الرّوحيّة! الآن، يصير ما علّمنا، كلمةً من الكلمة! "الكلام الّذي أُكلِّمكم به هو روح وحياة"!

حَسِبنا أنّها آخر مرّة نراه، قبل أن نصير إلى فوق، لننظر وإيّاه وجه السّيّد والرّوحُ إلى الرّوح! لكنْ، أرانا الرّبّ الإله أنّ ما له، في الأزمنة والأوقات، غير ما احتسبنا! انتعش الأب الياس من جديد! لِمَ؟! الرّبّ أدرى! لعلّه شاء بذلك تسليمًا أكمل!

وأُعيد إلى الغرفة العاديّة للمرضى. صوته كان أوضح! كان كأنّه استعاد شيئًا من الرّغبة في الحياة بيننا. لكنّ حالته بانت غير مستقرّة. تشوّف إلى اليوم

الّذي يعود فيه إلى ديره. لكنّهم، لوضعه الدّقيق، كانوا يؤخّرونه! كان أطبّاؤه يعرفون أنّ الخطر على حياته أكبر، إن غادر إلى الدّير. أمّا هو، فلمّا رأى الأيّام تكرّ وطال الانتظار، أصرّ وتوسّل أن يصعدوه إلى هناك، ولو ليوم واحد، قبل أن يرتحل. تلك الأيّام، بين تحسّن حاله وصعوده إلى أورشليم الدّير، كانت كأنّها إعداد للتّسليم الكامل بين يدي مَن أحبّ، وتهيئةٌ للصّعود إلى أورشليم السّماويّة. أخيرًا، كمَن يعدو إلى مرتجى خطّ النّهاية، استنفد قواه ونفسه. البارحة، عدناه في المستشفى، قبل أن يخرج إلى ديره. لسانه صمت عن الكلام، أو كاد. فقط، عيناه كانتا تحكيان مَن يألف لغة العيون. كان فيهما صمت وتسليم. نظر الآتي من البعيد إليه وقد دنا منه. أحبّ مَن حوله، فكان يغطّي رأسه وعينيه بيديه لكي لا يراه أحد يدمع لفراقه. باركنا وشدّ، وسعه، على رؤوسنا، وغادرناه. صعد إلى الدّير بعد ظهر الثّاني والعشرين من شباط ٢٠١١. وقبل ظهر الثّالث والعشرين، الأربعاء، رحل على شيء من ضيق ما بقي له من جسد، إنّما قرير العين أنّه بخلاف موسى، كليم اللّه، لم يُحرَم من الدّخول إلى أرض الميعاد، بل اقتحمها بشوقه! وبعدما كحّل عينيه بمرأى الجميع وبارك، لم يعد له ما ينتظر من أجله. "الآن أَطلق عبدك، أيّها السّيّد"! وانطلق النّسر، الّذي طالما سما بنا إلى أعلاء معرفة روح اللّه ثلاثة وخمسين عامًا!

تختنق الكلمة في صدورنا، يا أبانا، كما اختنقت المودّات الّتي شملتنا بها، سنة بعد سنة، وكأنّها من الأزل وإلى الأبد، في عينيك اللّتَين لم يكن أيسر

عليهما من أن يخاطبا بالدّمع في الوقفة والصّلاة أمام العليّ، وفي معاناة الآخرين وآلامهم تُعرَض عليك! بتّ في نَفَسنا نسمةً عليلة تنعشنا! كنّا، أبدًا، نشعر بالطّمأنينة أنّك إلينا! لم تترك شيئًا إلاّ علّمتنا إيّاه! كنت، دائمًا، قلبًا ينعطف على كلّ قلب، ويحتضن الصّغار والكبار! كلّ أنطاكية حملتها في اهتمامك صمتًا! لم تترك زاوية فيها حاجة إليك إلاّ تركت عرينك إليها، لتبلسم جراح النّفوس الّتي عبثت بها صروف الدّهر! كنت سمّاعًا كبيرًا وكلمةً مقتضبة في آن! عوّدتنا، لا سيّما في سنيك الأخيرة، أن تقول الكثير بالقليل! وروح الدّعابة يتردّد في ما تقول وتفعل. هذه انسلّت في ثنايا معاناتك الدّاخليّة ودموعِك كما لتجعل أصول الحياة الرّوحيّة أيسرَ لقلوبٍ وهنت واستهيبت ولوج المسير إلى فوق. اختلط فيك التّباله في المسيح بالفرح بالحزن بالمحبّة بالرّعاية! قلتها، دائمًا، مباشرة وبصورة غير مباشرة: مسيح الرّبّ أدنى إليكم، وأيسر ممّا تتوقّعون! فقط، اثبتوا على الرّجاء! آخر كلمة كبيرة تناهت إلينا وأنت على سرير المحطة الأخيرة: "اشكروا"! شعرتَ، يا أبانا، أنّ العليّ شاء إذلالك إلى المنتهى! كلاّ، بل إذلال ما فيك وفينا من تعلّق بالذّات حتّى نصير من الّذي سُمِّر على قصد اللّه وتواضعه الأقصى ولمّا يبق له من مكان يسند إليه رأسه، هنا، غير الصّليب، وأنّةٍ صرخةٍ تنبعث من أعماق تائقة إلى الآب وما كانت إلاّ إليه: "في يديك أستودع روحي!"

صعبة قراءتك، يا أبانا الياس، لأنّك أرحب من أن يحيط أحد منّا بك وبما جال في عالم داخلك، وأصعب كتاباتك، لأنّ الكلمات المخطوطة

ينقصها، أبدًا، نبض الحياة الّذي عهدناه فيك أطفالاً، فشبّانًا صغارًا، فرجالاً!

أَوَترتحل الآن وتتركنا؟! لا بل تأخذنا في صدرك إليه، وتطالعه حاملاً إيّانا لديه! ذهبت؟ اللّه معك! عبور مبارَك! فردوس مبارَك! صلِّ لنا! ابقَ معنا! الآن، أنت إلينا أبقى! اليوم، فرح كبير لأنّها القيامة، قيامةُ السّيّد، تأتينا من خلالك! لكنّها تأتينا في عينيك الكبيرتَين الدّامعتَين! ما عرفنا القيامة إلاّ مصلوبة، وما عرفنا الأحبَّة إلاّ تسحّ منهم الأعراق وجنباتهم تقطر دمًا وماء كما إلى السّيّد!...

اللّه معك! لا تغادرنا! إلى الملتقى، يا عين الأحبَّة! سلام عليك وعلى مَن غادرنا قبلك!...

الأحد ٢٢ أيلول ٢٠١٩

(من الأرشيف الأحد ٢٧ شباط ٢٠١١)

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٠)

جلستُ إلى مكتبي، الأسبوع المنصرم، وكان في نيّتي أن أختم سلسلة مقالات "التماعات أنطاكيّة" بكلمة في موضوع القداسة وما إذا كان الأب الياس، في منظورنا، قدّيسًا أم لا. لكن، ثمّة ما منعني!. تمرّد قلمي حتّى عييت!. فقلتُ: ليس هذا أوان الرّضى!. فبحثت عن بديل، وكان البديل مقالاً عن الأب الياس من الأرشيف بعنوان "... ويرتحلون، الأحبّةَ"، فدفعتُه إلى زاوية "نقاط على الحروف"، وانقضى الأمر بسلام.

هذا الأسبوع، أطرح، بعون اللّه، أمرًا آخر: سرَّ الأبوّة الرّوحيّة، لدى الأب الياس، في إطار الخصوصيّة الأنطاكيّة.

لم أعرف الأب الياس أبًا روحيًّا بالمعنى المتعارَف عليه في الرّهبانيّة، في العالم الأرثوذكسيّ، اليوم، لا في ديره، ولا في علاقته بالمقبلين إليه، أبناءً. ما كان تراثيَّ الشّكل، لكنّه، بكلّ تأكيد، كان تراثيَّ المضمون، على نكهةٍ

محلّيّة. كانوا، في البدء، يتلمّسون طريقهم. هذا صحيح. لكنّه صحيح، أيضًا، أنّهم كانوا من النّسيج الوجدانيّ لهذه الدّيار!.

ماذا أعني بذلك؟. الطّاعة الرّهبانيّة أساس لا تثبت رهبانيّة من دونه. هذه تأتي، في العادة، من خيار يلتزمه طالب الرّهبنة. هذا الخيار يحتّم، مبدئيًّا، السّلوك في الطّاعة قلبًا وقالبًا. الرّهبنة، كخيار، عندنا، تيسّرت. تيسّرت، كخروج من العالم، التماسَ الالتصاق باللّه ومسيحه، لا سيّما في الهدوء، والعمل، والصّوم، والصّلاة، وما شاكل ذلك. موقع الطّاعة، في هذا المشروع، مؤكّد، طبعًا، عندنا. لكنّ تعاطيه، على أرض الواقع، لا يعدو، والحقّ يُقال، كونَه نظريًّا، بالأكثر، وتاليًا شكليًّا، أو مجتزأً!.

الطّاعة للسّيّد الرّبّ الإله، في شخص الأب الرّئيس، مُعطى مقبول، عندنا، في القول. لكنّ السّلوك فيه تعيقه مزاجيّةٌ حادّة تستبدّ، بعامّة، بنا!. لا مزاجيّة نفسانيّة فردانيّة، بقدر ما هي مزاجيّة جماعيّة تراثيّة!. الوجدان التّاريخيّ للإنسان، في هذه الدّيار، يميل، بالأكثر، إلى الذّاتيّة، ولا أقول إلى الأنانيّة الصّارخة، أكثر بكثير ممّا يميل إلى الشّركويّة والإذعانيّة!. إرث الشّراكة، بالمعنى الرّهبانيّ الدّقيق للكلمة، ليس هو الغالب بيننا. أهذا لأنّ الرّهبانيّة الشّركويّة طال افتقادها، فلمّا يتلطّف بها المزاج المحلّيّ؟. ربّما، إلى حدّ ما. غير أنّ الواقع التّاريخيّ يشير إلى مزيّة خاصّة بأبناء هذه الدّيار!.

الواحد، بيننا، مستعدّ أن يبذل نفسه من أجل الآخرين؛ ولكن،

بالحريّ، من منطلق ذاتيّ، أكثر منه من منطلق شركويّ! الواحد، بعامّة، ليس برسم الامّحاء في الجماعة، وبها، ولو أكرمها ووقّرها، لكنّه مستعدّ، من بابٍ أولى، لأن يمّحي، وجهًا لوجه، بإزاء ربّه!. ميله، في إيمانه، متى مسّته النّعمة الإلهيّة، هو إلى التّشدّد والنّسك الشّخصيّ التّاريخيّ، والنّسك المتشدّد، وحتّى الغريب، منه إلى الحياة المشتركة! دونك مثلاً "تاريخ أصفياء اللّه"، لثيودوريتوس القورشيّ، في نسك ونسّاك المدى الأنطاكيّ، في القرن الخامس الميلاديّ.

الشّركة الباخوميّة الرّهبانيّة، وهي من أوائل الرّهبانيّات المشتركة، جاءت من بلاد مصر، والباسيليّة من بلاد الكبّادوك، فيما جاء العموديّون، في الأصل، مثلاً، من أرجاء أنطاكية!. هذا له، بلا شكّ، دلالته. لَعَمري هذا موضوع مزاج جماعيّ!. في الزّمن الحديث، لم يرتبط اسم الأب إسحق عطاللّه بشركة رهبانيّة، لا هنا ولا في جبل آثوس، بل بالقدّيس باييسيوس الآثوسيّ، وبالسّلوك في النّسك، على غراره، وفي عهدته!. مزاج مسيحيّي مصر اتّكائيّ، فيما مزاج مسيحيّي أنطاكية، بعامّة، تفرّديّ!. نَفَسُ مصر، بالأكثر، رعائيّ قطيعيّ، ونَفَس أنطاكية، بالأكثر، ذاتيّ نبويّ!.

أنطاكية، إن صدقَتْ، موئلُ لاهوت كبير، وتفسير كتابيّ سديد، وطقوسيّة غنيّة. أمّا إن شردَتْ، فموئلُ هرطقات عديدة!. لا أوعى من الأنطاكيّين، في التّاريخ، في ذاتيّتهم!. لا ينكسرون من أحد!. توقهم إلى الحرّيّة الذّاتيّة بلا حدود!. عنداء إلى المنتهى!. فقط، متى افتقدتهم النّعمة الإلهيّة، تجلّوا، وفوق

العاديّين من النّاس! الأنطاكيّون، اليوم، قليل عددهم، لكنّهم آتون من تاريخ طبع الأمبراطوريّة البيزنطيّة، وحتّى المسيحيّة، بعامّة، شرقًا وغربًا، بطابع مميّز، عبر المدرسة الأنطاكيّة، في الفكر، في الموعظة، في النّسك، في الأدب الكنسيّ، في اللّيتورجيّات... أنطاكية المدرسة، في التّاريخ، رِجلاها على الأرض، قلّما تسرح في الخيال، كما يميل وجدان مصر...

ويتمثّل هذا التّوجّه، على أحدّ ما يكون، ونحن صغير عددنا، إذ يقترن توقنا إلى الكِبَر بمزاج تفرّديّ نبويّ، ويتداخل بإرث تاريخيّ كنسيّ، هذا مداه، يجعل الأنطاكيّين، أفرادًا، وجوهًا، ولا أقول جماعةً، كمَن لا يسعهم العالم!. أُفُقُهم، في ما للّه، ولا أوسع، أو يسقطون في تفه ما بعده تفه، حتّى لَيتناطحوا، في إطار الفكر الواحد، حتّى الكراهية وإلغاء بعضهم بعضًا!. هذا عيبهم؟ بلى! ولكن، تلك موهبتهم أيضًا!. والفاصل لا يستبين إلاّ بروح اللّه!.

بالعودة إلى الأبوّة الرّوحيّة والأب الياس، قلّما كان رهبان ديره يطيعونه. يطيعونه جزئيًّا!. ولا هو سعى لأن يفرض طاعته عليهم، إلاّ جزئيًّا، رأفةً بهم!. كان واضحًا لديه أنّهم كذلك، لأنّهم لا يستطيعون أن يطيعوا أكثر من ذلك!. هذا ليس عن زغل في الإرادة، بل عن ثنية خاصّة في المزاج!. مع اختلاف في الدّرجة، طبعًا، بين الواحد والآخر!. بعض النّفوس أرقّ من سواها!. كان الأب الياس، بين الجِدِّ والمِزاح، يقول: هناك راهب واحد يطيع في هذا الدّير!. أنا!. ولكن، هذا لم يعنِ أنّ رهبان الدّير كانوا طارِئين!. كلاّ، أبدًا!. جُلُّهم كان جبّارًا ومجاهدًا!. الأب أنطون؟ جلمود صخر!. الأب

أغابيوس؟ تحوّل كلّه، في أيّامه الأخيرة، إلى صلاة!. الأخ خليل؟ حدل نفسه وحدله ربّه حدلاً!.

كان الدّير جملةً من الحالات الخاصّة، ولم يكن شركة بالمعنى الصّارم للكلمة!. هذا عيب كبير؟ لا أظنّ!. فقط من فئة أخرى!. هذا واقع وجدانيّ في حلّة محلّيّة معاصِرة!. في الحالات غير العاديّة، الواحد مبذول للكلّ؛ وفي الحالات العاديّة، تطغى القناعاتُ الشّخصيّة الطّاعة!. لَعمري، ما حفظ وحدة الدّير لم يكن قانونًا ولا نمطًا رهبانيًّا محدّدًا، بل شخص الأب الياس ومرونته في تعاطي ما يمتّ، في آن، إلى القواعد والقوانين الرّهبانيّة التّراثيّة، وإلى المزاج المحلّيّ الأنطاكيّ!. على هذا، ترك الأب الياس نفسه نموذجًا، ولم يخلّف شركة متكاملة متكافلة! أيشكّل ذلك خطرًا على استمرار دير الحرف؟ لا أظنّ!. التّصوّر أنّ الشّركة الرّهبانيّة المتراصّة هي الضّمانة وهي الجواب، في إطار الحالة الأنطاكيّة التّاريخيّة الوجدانيّة، ليس واقعيًّا!. عندي أنّ نموذج الأب الياس والإخوة الّذين كانوا معه – سمِّهم شركة أو لا تسمِّهم إن شئت – هو، بالأحرى، الضّمانة، لأنّه، إلى إشعار آخر، من نسيج واقعنا ووجداننا!. في دير الحرف، اليوم، مجاهدون!. الطّارئون يتساقطون بعد زمن أو زمانين!. أيحتاج المرء إلى أن يتعلّم رقصة لا تأخذ في الاعتبار قدرته على التّمايل؟. خشيتي أن يستبين أعجز، لطبيعة وجدانه، من أن يستنسخ ما هو لغيره، ويضيّع، في آن، ما هو من تراثه المحلّيّ!. يقيني أنّ مدى الحياة الرّوحيّة أرحب من أن يَحدّ المرءُ نفسَه بممارسة، هناك أو هنالك!.

ما دام المرء يدرك أنّ الحاجة هي إلى واحد، فالأهمّ أن يعي، في كيانه، هذه الحاجة، يتبنّاها ويسلك فيها، إنّما وفق ما توحي له به النّعمة الإلهيّة، وما هو من الوجدان التّاريخيّ فيه!. رجاؤنا أن ينمو نموذج دير الحرف على سجيّته!. يستنير ونستنير بما عند سوانا، بلا شكّ، لكنّنا لا نهتمّ بنقل أيّ شيء كأنّنا لوح ممسوح!. لسنا نحن معاقين ولا قاصرين!. فقط، تأخّر نموّنا، على هذا الصّعيد، لأسباب تاريخيّة، كطفل انعقد لسانه إلى سنّ الخامسة، وفجأة خرج يتكلّم دفعةً واحدة! الكلّ موجود فينا إلى أن يخرج إلى التّعبير، بإذن اللّه!. لسنا بحاجة إلى نسخ أحد: لا "بيروندا" ولا "بيروندبسا"، مع الاحترام الكامل لتراث سوانا، في إطار بحثنا عن شهادتنا الخاصّة!. الاحتقار الذّاتيّ لواقعنا التّاريخيّ، وكأنّنا، تراثيًّا، سِقْطٌ، غيرُ مقبول ولا مُبرَّر!.

طلب الأب الياس، بصورة عفويّة، أن يتعلّم من سواه. تعلّم من الأب أندريه سكريما، وتعلّم من سواه. لكنّه وعى، في آن، أنّ له شخصيّته التّاريخيّة وشهادته الخاصّة! لذا، كانت له التماعاته، ولو لم تتمأسس! المؤسّسة، بالأكثر، تقتل!. الضّمانة في الالتصاق بالشّخص المستنير!. دير الحرف، في نشأته، كان وعدًا نبويًّا، في أنطاكية المتعَبَة!. الأب الياس استحال، لأنطاكية، خميرة!. لا أظنّ أنّ أحدًا من الّذين نحوا، في هذا الاتّجاه الدّيريّ أو ذاك، في ما بعد، لم يساهم دير الحرف في انقداح وعيه الرّهبانيّ!.

وكما تعاطى الأب الياس الأبوّة الرّوحيّة، داخل الدّير، على النّحو الّذي أسلفتُ، هكذا تعاطاه، بعامّة، في علاقته بالمقبلين إليه، أبناءً وبناتٍ،

المعترفين، المسترشدين لديه. احترامه لشخصانيّة كلّ واحد وفرادته كان فائقًا. لم يفرض نفسه، يومًا، على أحد. لكنّه جعل نفسه في خدمة الجميع ولمّا يجعل أحدًا، عن قصد، امتدادًا له. لم يكن همّه لا أن يكون له أتباع، ولا أن يشكّل حزبًا، في الكنيسة، يردّد مقولاته. كان يعرف سرّ الامّحاء، لأنّه تعاطاه بألم كبير، ولكن بإصرار فائق، في علاقته باللّه.

كان الأب الياس يحبّ بصدق، ويتابع الآخرين بصدق. لم يحسب أحدًا مدينًا له في شيء. ربّى على حرّيّة الضّمير. حرّيّة ضمير الآخر كانت لديه أرضًا مقدّسة، لا يشاء أن يطأها لئلاّ يعثر أحدًا في خصوصيّة علاقته بربّه. تكفيه وقفة يوحنّا المعمدان، وأن يسمع بفرح صوت العريس يدعو الأحبّة!. كان حاضرًا، يعين، يساعد، يشير، ينبّه، لكنّه كان يعرف الحدّ الّذي كان عليه أن يقف عنده!. يسمع جيّدًا. بالأحرى، يسرع إلى السّماع، ويبطئ في الكلام، ويقلّل منه. أبٌ لَمِحٌ، خبير في اللَّطَف!. يجعل، برويّة، ما يريد أن ينقله لغيره، مستساغًا، سهلَ الهضم، لينتفعوا!.

لم يحبّ الأب الياس أن يصدم أحدًا، أو أن يتهدّده!. يعرف الكثير، لكنّه لا يجعل كلّ ما يعرفه موضوع حديثه إلى المعنيّين بالأمر!. بالأحرى، كان يحمل كلّ شيء على محمل الصّلاة. يبكي مع الباكين ويفرح مع الفرحين، هذا بالمعنى الدّقيق للكلمة. يدفع الآخرين إلى الأمام، ويهتمّ بأن يقف بعيدًا على ابتسامة ودمعة!. همّه أن يرضى مَن سكب نفسه من فوق!. يرضى أن يغادره الجميع وأن يبقى وحيدًا، لأنّه لا يكون، إذ ذاك، وحيدًا، بل الآب

معه، لفرح الأحبّة وخلاصهم!. لعينك، يا معلّم!.

وكثيرًا ما كان الأب الياس يسمع ويسمع ترّهات المقبلين إليه. يطيل أناته عليهم، عساه يريحهم ممًّا انشحنت به نفوسهم. النّاس بحاجة إلى أن يتكلّموا، وبحاجة، أيضًا، إلى مَن يسمعهم. قلّة تسمع إنّما ما يناسبها. الأب الياس كان يسمع كما من دون حساب! أليس ربّك السّمّاعَ الأوّل؟. أمّا الّذين يطلبون الأصالة لديه، أقصد لدى الأب الياس، فكانوا ينتفعون نفعًا جزيلاً!. هذا رجل لكلّ الفصول. هذا رجل لكلّ المناسبات. هذا رجل لكلّ هموم النّاس. إن لم يكن لديه ما يقوله، كانت دموعه تقول ما يلزم!. الأب الياس مصنع رجال لمَن يرغبون في أن يكونوا رجالاً للّه!. أليس الرّجال في الرّوح هم الّذين يصنعون الرّجال؟ أكثر من ذلك أنّه يعطيك ولا يحاسبك، ولا يتوقّع منك شيئًا إلاّ أن تكون مرضيًّا لربّك، لعلّ ربّه يرضى عنه!. الكبار خطيئتهم أمامهم، في كلّ حين، كبيرة!. كلّما زاد إحساسهم بها، زاد عطفهم على العباد، لأنّهم يعلمون أنّ المحبّة تستر جمًّا من العيوب، لا بل كلّ العيوب!. "هذه غُفر لها كثيرًا لأنّها أحبّت كثيرًا"!. تبارك اللّه!.

هذه مدرستنا. هذه مدرسة الأب الياس. هذا هو الأب الياس المدرسة...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٢٩ أيلول ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢١)

أعطني هذا الفقير...

"فقير أنا وفي الشّقاء منذ حداثتي، وحين ارتفعت اتّضعت وتحيّرت..." (مزمور)!.

هذا اكتشاف أهمّ، بما لا يُقاس، من اكتشاف أنّ الأرض مدوّرة، أو أنّها تدور حول الشّمس. بإمكانك أن تظنّ ما تشاء. هذا لا يغيّر الواقع في شيء!. لا عِلم لك، وأنت جاهل، أو قل غبيًّا، إن لم تُقرَّ بما هو حاصل، لو كنت تعرفه!. ويل لمَن يقيم في عمى قلبه وعناده!.

قالوا، في عِلم الفضاء، إنّ ثانيةً من حرارة الشّمس تعادل طاقة الأرض، في كلّ تاريخها. لو زادت عليها، في ما تتلقّاه الأرض، ولو أقلّ من القليل، لاحترقَتْ؛ ولو نقصت عمّا هي عليه، بالقدر نفسه، لتجمّدت، ولما كانت للأرض حياة!. كلّ ما في الكون مضبوط في منتهى الدّقّة. هكذا الإنسان،

يدور حول اللّه، درى أم لم يدرِ، يتلقّى أنعامه، في كلّ لحظة، مودّات لا تقف عند حدّ، في منتهى الدّقّة؛ لو زادت عليه، أقلّ من القليل، لاحترق؛ ولو نقصت، بالقدر عينه، لقضى برداً لأنّه، في ذاته، أوهى من خيوط العنكبوت، بما لا يُقاس!.

هذا هو الإنسان: فقير حتّى العدم!. لا يقدر أن يصمد من دون اللّه ولا للحظة واحدة!. نواميس الطّبيعة لتحدّث عن مجد اللّه، لا لأنّ الإنسان قائم وثابت بقوّتها!. بغير هذا الإدراك، "غبيّ أنا ولا معرفة عندي" (مزمور)!. أنت من التّراب، يا أيّها الإنسان، وإلى التّراب تعود، ما لم تشملك مراحم ربّك، في كلّ لحيظة، وتُقِم في عين مسيحك!.

وعى الأب الياس، ذات يوم، أنّه فقير، كيانيًّا فقير، لا حول له ولا قوّة إلاّ باللّه؛ فترك وهم الغنى، أنّه غنيّ بما لديه، وبما أوتي من مواهب طبيعيّة، وسلك في الفقر، محاكيًا حقيقة كيانه، موغِلاً، بعيداً، في غربة نفسه، عن شهوة الغنى الإيهاميّ، في هذا الدّهر، كلّ يوم، لأنّه أدرك، في قرارة نفسه، كم أنّ دوار الشّهوة يُطيش العقل السّليم!. أراد أن يجعل اعتماده بالكامل، عن وعي، على ربّه، في كلّ شيء، ليستكين قلبه، لأنّه أدرك، في روحه، مغزى قولة سِفر الجامعة: "فلنسمع ختام الأمر كلّه. اتّقِ اللّه واحفظ وصاياه، لأنّ هذا هو الإنسان كلّه" (١٢: ١٣)!. الأرض تدور حول الشّمس، في حركة تلقائيّة صمّاء، لمجد اللّه، لتكون أيقونة للإنسان في دورانه حول ربّه، في حركة إرادته، لأنّه خلقه على صورته نحو مثاله!.

حتّى لا ينسى ابن آدم، عليه، كلّ يوم، أن ينتقل من فقر إلى فقر إلى الفقر، وصولاً، في الإرادة، إلى إفراغ ذاته بالكامل، بعون اللّه، من كلّ خبرة غنًى، ذوقًا لخبرة العدم، لخبرة التّراب والرّماد!. من هناك، كما أعطى اللّه الإنسان، في البدء، نفخته، فصار الإنسان نفسًا حيّةً، هكذا يعطيه، وقد أعطاه، بتجسّد ابن اللّه، في الزّمن الأخير، روحه القدّوس، فصار الإنسان روحًا مُحيية!. ما عليه، مذ ذاك، إلاّ أن يعبّ ممّا أعطاه ربّه، غنًى لا ينضب!. "الكلام الّذي أكلّمكم به هو روح وحياة"!.

خرج الأب الياس من العالم طالبًا الغنى الحقّ في سيرة الفقر!. لمّا يشأ ربُّك إلاّ أن يكون هذا الكنز، لأحبّته، في آنية خزفيّة!.

كلّ فضيلة أساسها الفقر. ما لا يتأسّس في الفقر سِقطٌ!. عرفتُ الأب الياس في عزّ فقره، وعرفتُه في نضج فقره، وعرفته في شيخوخة فقره!.

في أوائل فقره، اهتمّ بأن يفتقر!. هذا كان خبزه اليوميّ. لم تعد عينه في شيء. كان واعيًا أنّ ما ليس في مستوى الضّرورة لم تعد له حاجة إليه!. أثاث الدّير كان فقيرًا بسيطًا! طعامه كان، أيضًا، بسيطًا فقيرًا! وكذلك لباسه! هذا، طبعًا، وفق مقاييس زمانه. نتشبّه بالصّحراء ولا ننقلها إلاّ وفق الطّاقة. المهمّ السّلوك بروح الفقر أوّلاً، في كلّ شيء!.

عينه صارت إلى هناك. أن تكون جواربه مثقوبة؟. هذا لم يعد يعني له شيئًا، بل لم يعد لافتًا!. لكنّي أعترف أنّه كان ضنينًا بالنّظافة والتّرتيب!.

هذا يأتي من حضارة، أوّلاً! لكنّ النّظافة، أيضًا، ارتبطت لديه بالسّعي إلى نظافة القلب. والتّرتيب كذلك، لأنّه سِمة الخَلْق بعد خروجه من حالة الخواء (طوهو بوهو، بالعبريّة)! هكذا، شرع يرتّب بيته، بيته الخارجيَّ أوّلاً، في كلّ تفاصيله، وصولاً إلى بيته الدّاخليّ!.

طعامهم كان فقيرًا!. لم يكن أحد ليطلب متعةً لنفسه!. الأب أغابيوس كان، لبعض الوقت، هو الطّبّاخ. لم يكن يعرف شيئًا عن الطّبخ إلاّ، ربّما، ما التقطه سماعًا، أو بالصّدفة، وحصّله بالسّؤال!. كان في شبابه مدلَّلاً!. الصّبيَّ الوحيد في بيته!. تصله الأطايب على أنواعها جاهزة مكمَّلة. أطرف ما في طبخه الحساء. يعسر عليك أن تعرف مكوِّنات ما في الوعاء. هذا لأنّ الأب أغابيوس كان يجعل في القِدر كلّ بقايا الطّعام من الأيّام المنصرمة، مضيفًا إليها الماء والملح!. كانوا مستعدّين أن يأكلوا أيّ شيء يوضَع أمامهم، ولا أحد يسأل: ما هذا أو ما ذاك؟. حتّى لا أحد يعترض إذا ما شعر بحصًى في حصّته، أو بحبيبات رمل بين أسنانه!. أليسوا رهبانًا في كلّ حال؟!. معرفتهم الأولى، على قلّتها، وظّفوها خيرَ توظيف.

تلك الحقبة، كما كان يحلو للأب الياس أن يستذكر، لمامًا، فيما بعد، كانت ذهبيّة!. الفقر المادّيّ الإراديّ، والتّعب، والتّفاعل الحسن المُلزِم ومَن ليسوا من عقليّتك ولا من عاداتك ولا من ثقافتك ولا من مزاجك... كان يعني، داخليًّا، أن تبذل دمك، يومًا بعد يوم، وأن تُفرغ نفسك من كلّ ما لك. هذا أعطى ثمارًا يانعة، دموعًا، وإحساسًا بالخطيئة، ونخسَ قلب، ووعيًا

لبلادة النّفس فيك... "ويحي، مَن ينقذني من جسد الموت هذا؟!".

لا شكّ أنّ الأب الياس اشترى دموعه، على اختلاف مراميها، بتعبه ونعمة اللّه: دموعًا في الصّلاة، دموعًا على خطاياه، بكاء على شقاء العالم، بكاء مع الباكين... لكنّه دفع ثمنها، كما سبق فألمحنا، بصقًا للدّم ومرضَ سِلٍّ ونحولة زائدة!. ما كان سهلاً على الأب أنطون، لأنّه فلاّح، كان قاسيًا جدًّا على الأب الياس، لأنّه ابن عِزّ، آتيًا من القلم والورقة، من وراء مكتبه، من ترف العيش، من ثقافة مرهَّفة!. من تلك الحقبة، أضحى الأب الياس مختبَرًا في كسر النّفس حتّى الامّحاء! هذا استمرّ سلاحه إلى المنتهى ونعمة اللّه! ومتى ثارت عليه نفسه قمعها وتذلّل وبكى! يومذاك، تبلورت صلاته تبلوراً كبيراً!

تلك المرحلة، من تعاطي الفقر، عمليًّا، استمرّت سنوات. فقط، بعدما اعتاد حالةَ الفقر في روحه، ولمّا يعد الاغتناء بأمور هذا الدّهر يعني له شيئًا، أخذ موقفُه من القنية، في شأن وجه الدّير وحاله، يتغيّر. "هكذا ينبغي أن تكون الأمور، الآن"، كان يقول!. شرع يقبل التّغيير مراعاة لضعف الآخرين، لا من أجل نفسه. مذ ذاك، أخذت حِدّة حياة الفقر في الشّركة تخفّ. الكثير والقليل لديه صارا شيئًا واحدًا. لذا، أخذ يسلك في فقره باعتدال. يتعاطى القنية دون أن تلامس القلب عنده!. أضحى قلبه توّاقًا إلى قنية من نوع جديد، لِما هو فوق، إلى حدّ بعيد!. في تلك المرحلة، كنت ألاحظ أنّه ينتبه لكي لا يتعلّق بشيء البتّة!. فإن شعر بتمسّكه بشيء، كان يتخلّص منه بسرعة! أكتابًا كان ذلك، أم موسيقى، أم أيّ شيء آخر ممّا كان يحبّ في سابق

زمانه! فقره صار، بالأحرى، داخليًّا! يقبل العطايا والهدايا. يستعملها، بالأكثر، لشكر الآخرين، أو يدّخرها ليقدّمها هدايا إلى الآخرين!. في كلّ ذلك، كان يحرص على أن يبقى قلبه حرًّا من كلّ شيء!. حبّه نما بموازاة فقره!.

كنت دائمًا أتساءل، في تلك المرحلة، كيف يمكنه أن يفرح مع الفرحين ويضحك مع الضّاحكين ويلعب مع اللاّعبين، ولا يؤثّر هذا في بنيانه الدّاخليّ، في صلاته، في دموعه، في هدوء قلبه، في سويّة تعبيره عن نفسه؟. كان، في لحظة، يضحك؛ وفي اللّحظة التّالية، يصلّي ويبكي!. كيف ذلك؟. هذا، على ما أظنّ، لأنّ اندماجه والآخرين كان عن لطف وعن وداد، لا عن هوى ولا عن شهوة!.

لم تكن اجتماعيّات الأب الياس تبلغ، في تردّداتها، مستوى قلبه العميق! القلب كان مروضًا على سيرة أخرى!. إلى ذلك، اعتاد رباطة الجأش. مهما كانت الصّعوبات الّتي تعبر الشّركة ويعبر هو بها، فإنّه كان يبقى معادِلاً لنفسه! وما زاد على ذلك، عالجه بهدأة الدّموع؛ وأحيانًا، بنشيج البكاء!. جميلةً كانت دموع الأب الياس!. كانت مفتاح توازنه الدّاخليّ والخارجيّ سواء بسواء.

المرحلة الأخيرة من حياة الفقر لديه كانت شيخوخته. أفرغه ربّه ممّا تبقّى له من أناه، كمَن لا كرامة له، على غرار الرّسول بولس! أذلّه في ضعفه وفي مرضه ليُكمِلَه، ليكون فضل القوّة للّه لا منّا!. صار شفّافًا، في أواخره، كورق السّجائر! كان، أصلاً، شفّافًا في روحه! تلك العينان كم حكتا من قصص! كانتا، في المبدأ، غائرتين في تجويفتَي وجهه!. والآن، صارتا غائرتين في ذاك

المدى!. صارتا، كلّيًّا، إلى الدّاخل!. أخذ النّشفانُ يضرب الجسد والوظائفُ تختلّ!. أذلّه ربّه، لمحبّته له، فوق ما أذلّ هو نفسه!. صار يستعمل، أو صاروا يستعملون له ما هو للأطفال، لأنّه لم يعد قادرًا على ضبط أحشائه!. هو الّذي لم يكن يطيق القذارة، وتعني له النّظافة الكثير، تركه ربّه تخرج منه روائح فضلات البدن، كما ليشير إلى ما هو أقذر ممّا هو للجسد، في النّفس الدّاخليّة!. هذا آلمه إيلامًا شديدًا، وكان يسأل لَمحًا، كمَن يسترقّ الكلام، أحيانًا، ما إذا كان مجالِسُه يشتمّ رائحةً غير مناسبة؟!. لكنّه، أخيرًا، سلّم أمره لربّه، وقلّما عاد يبالي بما لأوهان هذا الجسد!. قلّما عاد يميل إلى الكلام!. اقتبل كلّ شيء كفّارةً عن خطاياه!. لم يبقَ له غير الصّلاة!. تسمّرت عيناه، قليلاً قليلاً، على الآتي من هناك، الخارج إلى هناك!.

في آخر المرحلة الأخيرة، سُرّ ربّه أن يسحقه، على غرار مسيحه، بالحزن، إنّما البهيّ (إش٥٣: ١٠)، فلمّا يعد له منظر نشتهيه، لكي يقسم له بين الأعزّاء نصيبًا!

بلى، بلغ الأب الياس الفقر والقفر، وبلّغه ربّه إيّاهما بالإذلال والموت. أسلم نفسه بالكامل. في يديك أستودع روحي. فصارت له بالفقر غنيمةٌ، ودخل ميراث الآب السّماويّ، على كلمته...

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٦ تشرين الأوّل ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٢)

الكتاب المقدّس معجن الكنيسة، وآباءُ الكنيسة خبزُها!.

لم يكن ثمّة فاصل، لدى الأب الياس، بين الكتاب المقدّس والآباء القدّيسين!. الكتاب ينسكب في الآباء، والآباء يحكون الكتاب بدمهم!. وهذا وأولئك يقولون الرّوح في أنشودة واحدة!. لا الكتابُ يتقدّم، كيانيًّا، الآباءَ، ولا الآباءُ الكتابَ، بل الرّوحُ هو الموحِّدُ وهو المتقدِّم في هذا لأولئك، وفي أولئك لهذا! لا قيمة لأسبقيّة الزّمن، هذا على أولئك، بل الأسبقيّة هي للرّوح القدس الّذي صنع ذاك من أجل أولئك!. الموضوع موضوع تجلّي كيان في هذا وأولئك، في إطار قصد اللّه الخلاصيّ، منذ البدء!.

لذا، لا يُقرأ الكتاب المقدّس إلاّ بالآباء، لأنّه لا يُقرأ إلاّ في الرّوح، والآباءُ، بامتياز، هيكل الرّوح القدس على الأرض!. وحده روح الآباء، أو في الآباء، قادر أن يقرأ الرّوح في الكلمة!. وحده الرّوح قادر أن يقرأها صحيحًا، لأنّ

الرّوح واحد، نفسه، هنا وهناك!. "الإنسان الطّبيعيّ"، بعقله ونفسه، لا يقبل ما لروح اللّه، ولا يقدر أن يعرفه، "لأنّه إنّما يُحكَم فيه روحيًّا" (١كور٢: ١٤)! من جهة أخرى، لا يُقرأ الآباء إلاّ كتابيًّا، لأنّهم يقولون الرّوح، ويتكلّمون بالرّوح، ولهم فكر المسيح (١كور٢: ١٦)! الكتاب روح الآباء والآباء روح الكتاب! إليه ينتمون، وإليهم ينتمي! في ما عدا ذلك، يكثر الدّخلاء والمدَّعون! الكتاب مفتوح على الآباء، مفتوح بروحه عليهم، فتفَهُّ القول إنّه نصوص وحسْب!. على هذا، إذا كان الكتاب روحًا في نصوص، فالآباء نصوص حيّة مبرهَنَة في روح! لذا، في هذا وأولئك، لا فصل بين النّصّ والرّوح! النّصوص هي الكتاب، والآباء، بالمقياس الرّوحيّ عينه، هم أيضًا الكتاب!.

هكذا تعاطى الآباء القدّيسون الكتابَ المقدّس، جيلاً بعد جيل، وهكذا يتعاطونه، اليوم، وهكذا يبقى تعاطيهم له إلى ذلك اليوم!. هكذا تعاطاه الأب الياس، طبعًا، على نكهة خاصّة، ككلّ الآباء، وفق ما تكلّم الرّوح فيه!. والرّوح لا يستنسخ أحدًا، وإن وحّد الجميع، لأنّ الكلّ في الرّوح فذّ جديد!.

مرّة، سألني الأب الياس أن أتحدّث إلى الشّركة في نصّ كتابيّ معيّن. لكنّه استدرك قائلاً: "لا بالطّريقة العقليّة النّقديّة الّتي تتعلّمونها في المعاهد اللاّهوتيّة"!. لِمَ لا؟. ألأنّ العلم والتّاريخ لا ينتميان إلى وجدان الآباء؟. كلاّ، أبدًا!. حاشا أن يكون لنا من دراسة النّصّ الكتابيّ موقف رافض!. كلّ ما يساعد على جلاء المعنى نستعين به، لأنّنا ندرك أنّ لكلمة اللّه بُعدًا بشريًّا،

تاريخيًّا، لغويًّا... لكنّنا ندرك، في آن، أنّ الكتاب المقدّس روح في كلمة!. لا يهمّنا، فقط، ما تعنيه الكلمة في لغة النّاس وتاريخهم، على أهمّيّة ذلك، بل، بالأولى، ما عناه روح اللّه من إيحائه بها، وليس هذان الأمران متساويَين!.

بشريًّا، بإمكاننا أن نستشرف، قدر الطّاقة، تطوّر المعاني، وهذا مهمّ، لأنّ الرّوح تكلّم في زمن محدّد، لقوم ذوي مفاهيم محدّدة، باستعمال ألفاظ محدّدة، ولها معانٍ محدّدة. لكنّ هذا لا يمكنه أن يعرّفنا تمامًا إلى ما عناه الرّوح، وإن كان يساعد ويعدّ مَن كانوا على صفاء في القلب والنّيّة!. أقول "يعدّ" لأنّ الفهم، في الرّوحيّات، لا يأتي قبل ما يعلنه الرّوح، بل بعده!. مستحيل!. لا نعرف ما عناه روح اللّه إلاّ بروح اللّه!. نصّ إشعياء بشأن العذراء (أو الصّبيّة الصّغيرة، وفق النّصّ العبريّ) لم يكن فهمُه ممكنًا، أنّ المقصود كانت مريم الّتي أضحت والدة الإله، إلاّ بالرّوح، وكذلك نصّ عبد يهوه أنّه هو عينه الرّبّ يسوع المسيح!.

إذًا، ما يفعله مَن يُسمَّون "علماء" لا "آباء!"، في دراسة الكتاب المقدّس، على النّحو النّقديّ الّذي نشهد، اليوم، إنّما يسيء إلى كلمة اللّه إساءة كبيرة، لأنّه يعزل النّصّ عن الرّوح، ويتعاطاه كنصّ بشريّ، قابل، في عمقه، للمعرفة الدّماغيّة، على غرار سائر النّصوص والموضوعات الدّهريّة، كالتّاريخ والجغرافيا. هذا يُدخل تشويشًا على فهم الكلمة، كما شاءها الرّوح، ويختلط فيه الغثّ (التّنظير) بالسّمين (المعلومات العلميّة النّافعة)!.

موقفٌ كهذا مرفوض، في المبدأ، لأنّه يأتي من هرطقة، على نكهةٍ

نسطوريّة!. الكلام على يسوع بمعزل عن كونه ابنَ اللّٰه، ومن ثمّ اعتبار مريم أمَّ يسوع لا والدةَ الإله، موقفٌ أدانته الكنيسة لمّا أدانت نسطوريوس وقطعته كهرطوقيّ!. بالقياس عينه، عندما يفصل دارسو الكتاب المقدّس ما بين النّصّ والرّوح، ويعتبرون أنفسهم معنيّين بالنّصّ وحده، كما يعتبرون ما له علاقة بالآباء القدّيسين، وكيفيّة تعاطيهم النّصّ، عنصرًا دخيلاً وعاملَ تشويش على دراسة الكتاب المقدّس، أقول عندما يفعلون ذلك، ينحرون النّصّ؛ فيصبح بين أيديهم جثّة هامدة بلا روح، لأنّ موقفهم، في قراءتهم النّصّ وتفسيرهم إيّاه، يكون مبنيًّا على نظرة فاسدة مهرطِقة للكتاب والآباء، سواء بسواء!. وما يأتي من هرطقة لا يمكن أن يُفضي إلاّ إلى ضلال!.

لَعَمري، إنّ هذه الكيفيّة العقليّة النّقديّة لتعاطي الكتاب المقدّس آتية من خلفيّة تعاني مشكلة عميقة وعقمًا من جهة السّرّ الكنسيّ وعمل الرّوح القدس في الكنيسة!. هذا الواقع المأزوم جعل ويجعل تغليب العقل على تراث الآباء، في أوساط الشِّيَع المسيحيّة، أمرًا تلقائيًّا، وكذلك تغييب الرّوحيّات لحساب الأخلاقيّات العامّة، ما أدّى ويؤدّي إلى دهرنة المسيح والكتاب معًا عوض مَسْحَنَةِ هذا الدّهر برَوْحَنَةِ الكتاب، كما يُفترَض بعمل الكنيسة، جسدِ المسيح، أن يكون في هذا العالم!.

بالعودة إلى الكلام على الأب الياس، بقي خمسين سنةً ويزيد يدوّن، في دفتره الصّغير، وعلى أوراقٍ مقصوصة بترتيب، خواطره الكتابيّة. بالمناسبة، كثيرًا ما كان الأب الياس يستعمل أوراقًا سبق استعمالها وبقيت فيها فسحات

بيضاء. هذه كان يقصّها بالمقصّ ويستعملها حيث يلزم. وأحيانًا، كان يستعمل القفى الأبيض لأوراق أخرى. هذا من باب الفقر!. ذهن الرّجل كان متّقدًا، لا سيّما أثناء الخِدم الكنسيّة. كان واعيًا، يقظًا، يلتقط الكلام، ويعمل على النّفاذ إلى معانيه الدّاخليّة، في ضوءِ خبرته، ولو أغمض عينيه، أحيانًا، وبدا كأنّه نائم!.

كان الأب الياس يكتفي بالخواطر، لأنّ نهجه كان أن يقول الكثير بالقليل! ليست التّفاصيل لديه هي المهمّة، بل الالتماعات، ومن كان على موجته يفهم! تلك الخواطر عمل، في سنيه الأخيرة، على لملمتها من أوراقه العتيقة ودفاتره الصّغيرة، وترتيبها، وتصنيفها. وقد أُخرِجَت له في عدّة كتيّبات. وأخيرًا، جُمعت في كتاب واحد أصدرته "تعاونيّة النّور الأرثوذكسيّة" سنة ٢٠٠٥. وأذكر، مرّاتٍ عديدة، كيف كان يُشرِكنا بخواطره وقت المائدة. لا شكّ أنّ ثمّة حاجةً إلى دراسة جِدّيّة لتلك الخواطر، أرجو أن يتفرّغ لها أحدهم، على نحو معمَّق، في القريب. حسبي هنا أن أنقل، للقارئ المهتمّ، مذاق إحدى هذه الخواطر.

دونك هذه الخاطرة حول إنجيل متّى، الإصحاح الرّابع، الآيات ١ إلى ١١. يورِد الأب الياس النّصّ الّذي لفته في سطر: "ثمّ أُصعِد يسوع إلى البرّيّة من الرّوح ليُجرَّب من إبليس". كيف قرأ الأب الياس هذا النّصّ؟. ماذا رأى فيه؟ قال: "ربّما هذا أقصى الاتّضاع: أن يقبل يسوع أن يُجرَّب من الشّيطان".

لفظة "ربّما"، لماذا أوردها؟. ألأنّه لم يكن متأكّدًا من صلاحيّة ما يطرح؟. لا أظنّ!. ألعلّه أراد بها موقفًا علميًّا، أنّ الأمر يمكن أن يكون

كذلك ويمكن ألاّ يكون كذلك؟. هنا، أيضًا، أقول: "لا أظنّ"!. اللّفظة، بالأحرى، ذات مضمون وجدانيّ!. الفكرة التمعت لديه، لا لأنّها من عقله، بل من قلبه! أوّلاً، نهجُ الرّجل، في تعامله مع الآخرين، لطيف، مَرِن، حسّاس. لا يفرض نفسه على أحد. بالأحرى، يلمّح، يقترح، يشير... لفظة "ربّما"، في هذا السّياق، طفرة قلب، محطّ كلام، كثيرًا ما كان يلجأ إليها، أكثر ممّا هي معطًى عقليّ!. ثانيًا، الرّجل، في ما يعبّر عنه، إذ يقدّم لملاحظته بلفظة "ربّما"، لا يطالع النّصّ كمِن فراغ، كمَن يلتمس فيه معنًى ما، بل يطالعه كمِن خبرة يقينيّة، كمِن حياة، كمِن التماس صدًى لخبرة شخصيّة!. ثمّة حركة داخليّة، في التّفاعل هنا، تبرز بين ذاته والكتاب. نحن لا نستخرج، فقط، المعنى من النّصّ، بل نبحث، أيضًا، في النّصّ، عن المعنى الآتي من خبرتنا لروح النّصّ!. هذا لأنّنا نحن والنّصّ من واحد، من روح واحد!. النّصّ يهدينا، ونحن، أيضًا، نبحث عن صنوٍ ما فينا، في النّصّ!.

"أوريكا"، أي وجدتُها!. كلّ عجين الكتاب في خبرة الكنيسة!. لذلك، عندما تدخل في خبرة الكنيسة وتبحث عن جذور ما فيك، في الكتاب العزيز، يكون هذا لا فقط أمرًا مسموحًا به، بل تعبير عن الحركة الدّاخليّة الأصيلة منك إلى النّصّ الكتابيّ وبالعكس!. النّصوص تنسكب فيك وأنت تعود إليها بخبرتك في الرّوح، باحثًا عن ختمها، لأنّها فاعلة فيك!. لَعمري، إنّ هذه الحركة، بالذّات، هذا التّفاعل، بالذّات، هو أساس تعاطي الكتاب المقدّس في الرّوح، لأنّه إن كان النّصُّ يقول العروس، فكذلك الخبرة

العميقة، حتّى لا تقتصر العلاقة بالنّصّ على التماس معرفة المعنى في النّصّ، كمَن يطلب العلم المجرّد، ما يجعل العلم، إذ ذاك، في ناحية، والخبرة في ناحية أخرى، دون أن تكون هذه منتميةً إلى ذاك، وذاك إلى هذه!.

إذًا، معنى الآية، هنا، يأتي من خبرة كسر الأب الياس نفسه، ومن سعيه إلى أقصى الاتّضاع، في إثر المعلّم! الأب الياس كان مجرّبًا، في رهبنته، كلّ يوم، وأحيانًا، بعنف شديد؛ وكلّ تجربة مصدرها إبليس! لذا، يقول لقارئيه، وعمليًّا لأبناء اللّه الباحثين عن السّبيل القويم، نظيره: "فلْنقبل نحن أن نُجرَّب...".

ثمّ هذه النّقاط الثّلاث (...)، الّتي تتبع الكلام، تعني أنّ لديه الكثير ليقوله ولمّا يقلْه. بعد ذلك، يضع النّقاط على الحروف، من خبرته: "فلْنقبل نحن أن نُجرَّب"!. هذا لأنّه لا أقسى على الإنسان، وبالأحرى على المؤمن، من أن يقبل أن يُجرَّب. في العادة، نهرب من التّجربة، أو نستسلم لها! ولكن، أن نُجرَّب وأن نكون، في آن، مستعدّين لأن نواجِه، بقوّة مسيح الرّبّ، فهذا أمر غير مألوف للأكثرين. ولكن، هذا لا بدّ منه، وإلاّ لا يأتي الاتّضاع!. لا يأتي كمِن فوق!. لا يمرّره إلينا الرّوح من يسوع بالتّناضح!. وإن لم يأتِ الاتّضاع، فلا خلاص لنا ولا نصيب مع المعلّم! "تعلّموا منّي – أي تعلّموا منّي كيف سلكتُ – فإنّي وديع ومتواضع القلب"!. تعلّموا منّي كيف أسلك، كيف أقبل، كيف أفرغ ذاتي، كيف أترك ذاتي أُجرَّب من إبليس... ساعتذاك، يأتيكم الاتّضاع!.

كيف نقبل؟. يعلّمنا الأب الياس، هنا، أصول الحياة الرّوحيّة في هذا

المسار، باقتضاب: "دون مضايقةٍ، أو ادّعاءٍ، أو ظنٍّ باطل...". هناك مضايقة نفسانيّة. ليست هذه ما يتكلّم عليه. لا بدّ من الشّعور بالضّيق النّفسيّ الّذي يقرب من الاختناق، أحيانًا!. المضايقة الّتي يتكلّم عليها هي أن يكون المرء مترجرجًا، منقسمًا على نفسه، تنقصه الكلّيّة في حمل النّير الّذي يجعله الرّبّ الإله على منكبيه!. في المقابل، عليه أن يرضى، أن يتبنّى الطّريق بالكامل، أن يلتزم الصّليب! "لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك"! هكذا، من الأعماق، من الحشا، من القلب!.

وهذا، إن صنعتُه، أصنَعُهُ من دون ادّعاء، كأنّي أنا مَن يستطيع أن يواجه إبليس!. لا أنا، بل المسيح فيّ!. غرور الادّعاء سقوط مسبَق!. ضعيف أنا؟. هذا واقعي!. هذا حالي!. بالأحرى، أفتخر بضعفي!. فقط، ساعتذاك، تحلّ عليّ قوّة المسيح!. إذًا، المواجهة الحقّ لا تكون بذاتي، بل بمَن وعدني أن يكون معي في كلّ حين!. "أستطيع كلّ شيء في المسيح الّذي يقوّيني"!.

وأخيرًا، إن اتّكلت على اللّه، بعدما أكون قد قبلت، تداهمني التّجربة الأقسى: "الظّنّ الباطل"!. إذا ما أعطاني مسيحي الغلبة على إبليس وأنا في عمق اللّجّة، فالخطر باقٍ أن أغرق في الميناء، تمامًا بسبب "الظّنّ الباطل"، إذ يهمس الشّيطان في أذني: عظيم أنت، فلقد قويتَ عليّ!. أظنّ نفسي، إذ ذاك، شيئًا عظيمًا فعلاً!. الغرور، التّعظّم، الكبرياء هي الفخّ الأقسى، في المسار الرّوحيّ!. إمّا أن أعطي ربّي المجدَ وأذكّر نفسي بأنّي تراب ورماد، أو أكون قد تعبت عبثًا، وتكون العاقبة أنّي أنزل إلى أسافل دركات الأرض!.

في نهاية المطاف، لا سند للمؤمن القويم إلاّ "قوّة أقوال الرّبّ"، كما يقول الأب الياس، وكذا القول الوعد الّذي تفوّه به السّيّد من أجلنا: "اذهب، يا شيطان"!. إنّه هو وحده، ربُّنا، طارده!. وهو وحده المريدُ والفاعل فينا أن نعمل من أجل المسرّة!. تبارك اسمه إلى الأبد!.

بإمكان المرء أن يغوص في المزيد من مضامين كلمات الأب الياس والتماعاته، هنا وثمّة. إذ ذاك، يكتشف بعضًا من أغوار نفسه، بنعمة اللّه. قلب الرّجل كان كلّه مُعطًى في كلمات قليلة، لأنّه بذل دمه، مرّة تلو الأخرى، من أجل ربّه، وتاليًا من أجلنا، متذكّرًا القائل: "أعطِ دمًا وخُذ روحًا".

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٣ تشرين الأوّل ٢٠١٩

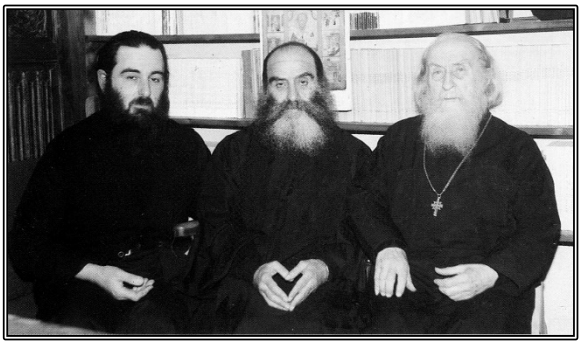

الأب الياس يتوسّط القدّيس صفروني (سخاروف)
والأرشمندريت كيرللّس، رئيس دير السّابق - إسّكس، حينها

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٣)

استراحة المسافر

كثيرًا ما سافرنا معًا، خارج البلاد وفي الدّاخل. خلال سنوات، بقينا في سفر بمعدّل مرّة في الشّهر. تحدّثت عن الغرض من ذلك في مقالات سابقة. هنا أتكلّم على: كيف كانت هذه الأسفار؟. في السّيّارة، كان الأب الياس يحفظ الهدوء. هذا بعامّة، إلاّ إذا كان ثمّة لزوم للكلام. في هدوئه، كان يسرح في الصّلاة. كيف أعرف ذلك؟. كان، أحيانًا، يشير إلى ذلك. مثلاً، اليوم صلّيت صلاة يسوع كما لم أصلّها منذ زمان!. كان هادئًا، رزينًا، معادلاً لنفسه، قليل الانفعال. لكنّه، متى انفعل، كان بركانيًّا!. أو متى انفعل، انفعل بنشيج!. على الرّغم من ذلك، في السّيّارة، كان حاضرًا، واعيًا، منتبهًا. وإن طرحتُ عليه سؤالاً، أجابني. وإن كانت لي كلمة أقولها له، سمعني. لم يُسكتني مرّة، حتّى لو قلتُ كلامًا في غير محلّه. مهذّب، لطيف، ودود. بئر عميقة. لا يُحرج أحدًا. يحترم النّاس، ولو مال إلى المزاح لا يجرح أحدًا.

يَقْبل ما يُلقى عليه ولو كان تافهًا. ماذا كان يقول عن المتقدّم في النّاس، رئيسًا للدّير أو غير ذلك؟. الأوّل سلّة قمامة للآخرين!. هكذا، في الحقيقة، قدَّم نفسه: ماسح قيح!. إراحة النّاس من أتعابهم كانت تعني له الكثير، وكذا أن يُفرِّح القلوب ويُشجِّع الأكباد!.

في السّيّارة، علّمني حفظ الصّلاة. كان يحمل سواعية عبد اللّه شقير الصّغيرة. هذا جعلنا نقيم صلاة السَّحَر مقتضبة، بما تيسَّر، وكذا صلاة الغروب، قراءة وترتيلاً. لا يثقّل على أحد في شيء، لكنّ الصّلاة لديه كانت تنفّسًا. لا يجعلك تشعر أنّها عبء عليك، بل تعزية حضور ربِّكَ!.

أحيانًا، خلال السّفر، كانت تطالعنا مفاجآت!. كيف كان يتصرّف؟. ما ردّات فعله؟. مرّة، كنت مسرعًا بعض الشّيء. لم يقل لي شيئًا. فجأة، توقّفت مركبة أمامنا. حاولت أن ألجم السّيّارة. دستُ الفرامل. لم أنجح في إيقافها تمامًا، فصدمتها قليلاً من الخلف. بدا منزعجًا. لم يقل شيئًا. حتى لم يوجّه إليّ كلمة توبيخ واحدة. كانت السّيّارة أمامنا للأجرة. بعد حوار سريع، مدّ الأب الياس يده إلى جيبه، وأخرج مالاً كافيًا أعطاه للسّائق، فرضي به، وانطلق، وعاودنا الانطلاق. لم يقل شيئًا، بعد ذلك. لكنْ، قال صمتُه لي أكثر ممّا كان ليقوله لو تكلّم!.

مرّة أخرى، كانت الأيّام أيّام أحداث وخطف. كنّا مسافِرَين إلى الشّام. أوقفَنا حاجز، بعد شتورا، لجهة طريق دمشق. كِدتُ أن أُخطَف لأنّ أحد المسلَّحين ظنّني من حدث بيروت، وهو مهجَّر من هناك يرغب في الانتقام؛

فلمّا عرف أنّي من عاليه، تركني، وتابعنا سيرنا باتّجاه الحدود اللّبنانيّة السّوريّة. بقي الأب الياس، خلال ذلك، حافظًا هدوءه وصلاته ورباطة جأشه. كان يعرف اضطرابي. شعوري، اليوم، أنّني نجوت ببركة وجوده، لأنّني سبق لي أن عرفت الرّجل، عند الحاجز، وكان صاحب ملحمة، في عبوري بمحلّه، وأنا متوجّه إلى دار المطرانيّة في الحدث. لم يقل لي الأب الياس إلاّ كلمات قليلة، ولزم هدوءه وصلاته. عرفتُ أنّه حملني بصلاته!. الوقت كان وقت سيادة شريعة الغاب، وكان ممكنًا أن أُخطَف لكوني مسيحيًّا وشابًّا!.

ومرّة أخرى، كنت والأب الياس في طريقنا إلى اللاّذقيّة، ومنها إلى دمشق، للسّفر إلى إيطاليا واليونان بناء لدعوة. كانت الطّريق مقفرة. فما إن تجاوزنا مطار القليعات، حتّى رأينا في المروج، عن يميننا، مسلّحًا يركض باتّجاهنا، وهو يصرخ: قفوا، قفوا! فأسرعنا بزيادة! وإذا بطلقات ناريّة تُسدَّد في اتّجاهنا! لكنّنا نجونا بحمد اللّه، ولم نُصَب بأذى!. في كلّ ذلك، لزم الأب الياس الهدوء والصّلاة، فيما جاشت في صدري مشاعر موجعة وأفكار هائمة!. تلك الرّحلة إلى إيطاليا واليونان تمّت ببركة اللّه، وكانت مثمرة!. لم تثنِ المخاطر، كما بدا لي، الأب الياس، عن المواجهة، في كلّ حال، لأنّه كان يعي أنّ كلّ شيء في يد اللّه، وليس أيّ شيء خارج تدبيره. أنا كنت أعرف ذلك، أيضًا، إلى ذلك الحين، لكنّ معرفته اختلفت. معرفتي كانت، بالأحرى، عقليّة، ومعرفته كيانيّة تحكيها هدأته ودمعته وصلاته!.

في إيطاليا، تسنّى لنا أن نحضر مؤتمرًا للفوكولاري في سانترو أونو، وهو

مركز اللّقاءات الأوّل عندهم. شبّان وفتيات، بخاصّة، أتوا من كلّ مكان. همُّهم الحياة المشتركة في المسيح. المسيح في ما بيننا. المسيح في الوسط. المسيح جامعنا... يتعلّمون. يغنّون. يفرحون. يصلّون... لهم كتاباتهم. لهم نمطهم. لهم مفاهيمهم يطوّرونها لجهة المحبّة، والسّلوك، والحشمة، واللّباس، والرّزانة، والفرح... فيهم نبض حياة... بالنّسبة إلى الأب الياس، كان يرى فيهم عطشًا وتوقًا إلى الحياة الجديدة في المسيح، على طريقتهم. كانوا مرتبطين بعضهم ببعضهم الآخر برباط رعائيّ شبابيّ أخّاذ. كان واضحًا، في المبدأ، وهم إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، ولو استقطبوا العديدين، ممّن هم خارجها، أنّهم كانوا يسعون، في إطار انتظاميّة الكثلكة، إلى الخروج من حيِّز جفاف التّنظيم والتّقليديّة الرّعائيّة، إلى حيّز الحيويّة الدّاخليّة الجذّابة، لا سيّما للشّباب، في إطار من الخلابة المحبّيّة والفرح النّاهد إلى الأعماق الرّوحيّة. كانوا يسعون إلى ترجمة الإنجيل لا إلى مقولات، بل إلى محبّة فاعلة في المسيح، تشدّ الكبار والشّباب والصّغار إلى بعضهم البعض، فإلى واحد!. عاطفيّتهم البادية كانت راقية، على نكهة روحيّة بيّنة!.

الأب الياس يثمّن الالتماعات الإلهيّة، حيثما كانت، هنا أو هناك، داخل الكنيسة الأرثوذكسيّة أو خارجها، لدى المسيحيّين أو لدى غير المسيحيّين، سواء بسواء. للّه شهود في كلّ مكان، والرّوح ينفخ حيث يشاء. أمّا المؤمن الحقّ، الباحث عن الحقّ، فيفرح بالحقّ حيثما تجلّى وكيفما تجلّى، على قولة الزّاهد المسلم، إبراهيم الأدهم: "المؤمن يفرح بالمؤمن حيثما كان"!. وحده

مَن يفرح بما للحقّ، حيثما كان، يكون للّه. أمّا مَن لا يفرح إلاّ بما يظنّه للّه في نفسه وجماعته، فليس للّه، لأنّ ربّك أرحب من أن يحدّ نفسه ببعض أقوام دون سواهم. وإن حدّ نفسه بروحه في العالمين، وجعل للأرثوذكسيّة سلطان التّعليم، فإنّه يخاطب هؤلاء بما يعلمون وأولئك بما لا يعلمون!. ويشاؤك، بدءًا، أن تكون نظيره، على رحابة، تضمّ بها العباد كافّة إلى صدرك، ليتسنّى لك أن تنضمّ وإيّاهم إليه، كما من رحابة روحه، لفرحه وفرحك معًا!.

كان الأب الياس يرى الجمالات ويرى الضّعفات، في نفسه والنّاس، انطلاقًا من معاينة خطاياه بإزاء مراحم اللّه وعظائمه. كان يراها في كلّ النّاس. يرى الحلو ليتّضع، ويتعلّم، ويحدّث بعظائم اللّه، ويشكر... ويرى الأوهان ليرحم، ويبكي، ويسترحم، عسى المحبّة، محبّة اللّه، تشدّنا الواحد إلى الآخر، إن بانت معايبنا أمام عيوننا، لديه، وجمالات ألطافه، في طول أناته على السّالكين في الظّلمة وظلال الموت!. كان الأب الياس يبكي خلاص النّاس، الأقربين والأبعدين. لذا، كان يبكي خطاياه بمرارة!. حبّه للّه فالنّاس زاده معرفة بخطاياه، ومعرفتُه بخطاياه زادته حبًّا للنّاس فاللّه!. هكذا دارت عجلة روح الأب الياس إلى المنتهى!.

أرثوذكسيّة الأب الياس علّمته العمق والسّعة في الرّوح، ثمّ علّمته التّمييز!. فيها الحقّ الكبير لمَن يبحثون عن الحقّ، لا شكّ في ذلك، لكنّ الحقّ فيها ترجمته الاتّضاع الكبير في دموع تسيل بانسياب لا ما يعيقه، وهدوء لا ما يعكّره!. لذا، الآخر، لدى الأب الياس، يُبكي حتّى يعرف محبّة اللّه،

ويُفرح مهما كانت علائم روح اللّه فيه طفيفة!. لم يكن الأب الياس يبحث عن نموذج بشريّ. لذا، لم يُضْفِ على ما للنّاس هالة قدسيّة، بل كان يبحث عن المسيح أيقونةً في النّاس، يفرح بها، ويشكر اللّه عليها، مهما بدت تلك الأيقونة، فيهم، على طبقات من السُّخام!.

في اليونان، بعد إيطاليا، كانت لنا خبرة أخرى، فيها العمق والنّضج معًا. الأب القدّيس بائيسيوس استقبلنا بتواضع ومحبّة من خارج هذا العالم. والأب الأرشمندريت إميليانوس، سيمونوبترا، الّذي رقد منذ بعض الوقت، التقيناه في مرفأ الجبل. كان في طريقه إلى ديره. أخذنا معه. فرح بالأب الياس. لم يقل الكثير. فقط، وقف عنده. لاحظه!. بالأحرى، تبادلا الفرح، الواحد بالآخر!. وقفت بين الأب الياس، ذي العينين الغائرتين في الأعماق، والأب إميليانوس ذي عيني النّسر، يشاء لو يحوّل العالم كلّه إلى دير، ويشاء أن يخطف خراف ربّه قاطبة إلى حظيرة الحياة الرّهبانيّة. كلمة واحدة بقيت في ذاكرتي منه، وكنت، يومذاك، أبعد ما يكون عن مضمونها. هذه قالها للأب الياس في شأني: "خذ هذا الشّابّ، واجعله راهبًا، وأعطه الإسكيم الكبير!". هذا تحقّق، بعد سنين، بيد الأرشمندريت صفروني سخاروف، الّذي ربطته بالأب إميليانوس علاقة وثيقة!. أمّا الأب الياس، فلم يقل كلمة، ولا فاتحني بالموضوع. وعندما صرت، بعد سنوات، راهبًا، فرح!. شعوري أنّه كان يعلم أنّي سأصل إلى هناك، إنّما بعد حين!. هذا لأنّه كان يعلم، وقد علّمني، أنّ ما عليَّ أن أطلبه هو الملء، وما يجب أن أسعى إليه يجب أن أسعى إليه إلى الملء!. أصِل أو

لا أصِل؟. هذا عند ربّك!. في العمل، مقصّر بالكامل. أمّا في الشّوق، فإلى الكمال بالكامل!. هذا ما سعى إليه الأب الياس طوال سعيه!. تقلّب بين قولة "وجهَك، يا ربّ، أنا ألتمس"، وشعور موجع لا يفارقه عبّر عنه الرّسول المصطفى بالقولة: "مَن ينقذني من جسد الموت هذا؟!". على هذه السّكّة وتلك سار إلى المنتهى، والباقي ربّك به أدرى!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٢٧ تشرين الأوّل ٢٠١٩

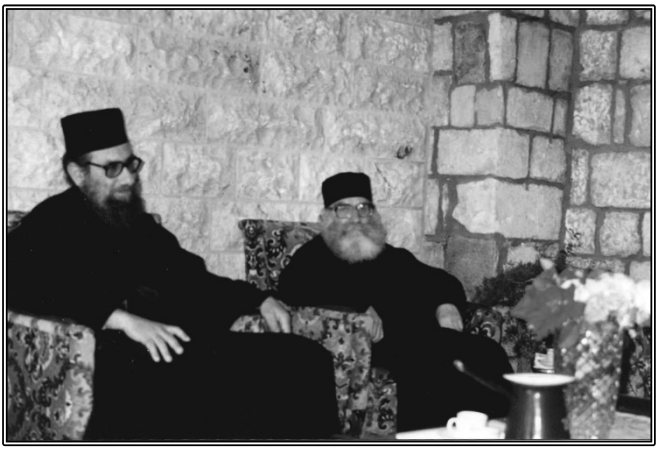

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٤)

لم يأتمن الرّبّ يسوع النّاس على نفسه، ولم يكن محتاجًا أن يشهد أحد عن الإنسان، "لأنّه علم ما كان في الإنسان" (يو٢: ٢٥).

كان الأب الياس يعرف ما في النّاس، إلى حدّ بعيد. لذا، كان له توصيف للإنسان، خاصّ به. قديمًا، قيل: "الإنسان حيوان مفكّر (أو عاقل)". أمّا قولته، فهي: "الإنسان حيوان ممثّل!". ديكارت، الفيلسوف الفرنسيّ، اعتبر أنّه يفكّر؛ لذا، هو موجود. الأرشمندريت صفروني سخاروف اعتبر، في المقابل، أنّه يحبّ؛ لذا، هو موجود. الأب الياس اعتبر الحبّ علامة الوجود، كما في عين اللّه. في ما عدا ذلك، الإنسان ممثّل، ووجوده، من ثمّ، إيهاميّ، ذو نَفَسٍ عدميّ (Nihilist)!.

إذا كان أنّ في البدء كانت المحبّة، فإنّ الأرض كانت، أوّلاً، خاوية وخالية. فقط، عندما قال اللّهُ المحبّةُ كلمتَه، صار هناك إنسانٌ، في خليقةٍ، موجودٌ!. بلى، الخليقة كانت من أجل الإنسان، والإنسان أثمن من الخليقة،

لأنّ الإنسان كان، دون سائر الخلق، من أجل أن يصير صنوًا للّه!. "لجّة تنادي لجّة" (مزمور)!. كيف؟. محبّةٌ تستدعي محبّةً، لأنّ اللّه خلق الإنسان على صورته (حرًّا)، ليصير على مثاله (محبّة). إمّا الحرّيّة تتكمّل بالمحبّة، وإمّا الوهم (الحرّيّة الشّرود) ينتهي مِسْخًا (محبّة للذّات)! الخيار، إذًا، هو بين الإنسان الكائن (على مثال اللّه الكائن) والإنسان الممثّل (على مثال أهواء الهوان)!.

جاء مسيح الرّبّ، الإله المتجسِّد، ليصير نموذجًا للإنسان الجديد!. جديد، ليس لأنّه إنسان آخر، فقد اتّخذ ابنُ اللّه الإنسانَ عينه، إيّاه، بل لأنّه الإنسان المكتمل، صار آدمَ الجديد!. آدم الأوّل توقّف عند حدود صورة اللّه. آدم الثّاني هو عينه الأوّل، لكنّه صار على مثال اللّه. لِمَ؟. الأوّل سقط وتشوّه، وإن لم يكن بالكامل، لأنّه حاد عن الوصيّة: شجرة معرفة الخير والشّرّ لا تأكل منها (تكوين)!. عصى ربَّه وخالقَه!. فإنّ الطّاعة أَولى!. وهي الّتي تبلِّغ إلى المثال، إلى المحبّة!. الطّاعة، في سيرورة المحبّة، أرقى من معرفة الـ"لماذا" والعقل وأجدى، لأنّ المحبّة معرفة كيانيّة، لا فكرة أو معرفة تجريديّة!. المعرفة التّجريديّة من اللّحم والدّم، فيما المعرفة الكيانيّة من روح اللّه!. "الجسد لا ينفع شيئًا. الرّوح هو الّذي يُحيي"!. هذا من جهة آدم الأوّل. أمّا آدم الثّاني، يسوع ابن اللّه وابن الإنسان معًا، فأطاع حتّى الموت، موت الصّليب، فرفعه اللّه وجعل اسمه فوق كلّ اسم... "لتكن لا مشيئتي بل مشيئتك"!. لذا، أضحى يسوعُ الإنسانَ الأوّل الّذي حقّق نموذج الإنسان كما في قلب اللّه، فصار هو، أي الرّبّ يسوع المسيح، النّموذجَ، في الرّوح

واللّحم والدّم، لكلّ إنسان!. "كلّ روح لا يعترف بيسوع المسيح أنّه قد جاء في الجسد فليس من اللّه. هذا هو روح ضدّ المسيح، الّذي سمعتم أنّه يأتي، والآن هو في العالم" (ايو١٤: ١٥- ١٧). هذا وحده، يسوع المسيح، هو المعطى لنا، لا في اللّحم والدّم فقط، بل في الرّوح أوّلاً، لنسلك في خطاه، لنصير على مثاله، ليسكن الرّوحُ الّذي فيه فينا!. ليس بغيره الخلاص!. إذًا، بغيره الهلاك!. "مَن أراد أن يتبعني، فليحمل صليبه، كلّ يوم، ويأتِ ورائي"!. "إن كنتم تحبّونني، فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الآب، فيعطيكم معزّيًا آخر... روحَ الحقّ..." (يو١٤: ١٥- ١٧)!.

كان الأب الياس رجل كيان، يبحث عن الكيان في المسيح، يسعى إلى السّلوك، بكلّ قواه، في خطى المسيح الكيان. هاجسُه، فكره، كلامه، توقه كان إلى الإنسان الكيان على مثال مسيح الرّبّ، إلى تمثّل روح المسيح واللّه، والتّمثّل بمسيح الرّبّ! هذه هي الواقعيّة الإلهيّة الأبديّة! كلّ ما عدا ذلك، في عينه، كان تمثيلاً! الخيار، خيار الإنسان، لدى الأب الياس، كان بين التّمثّل والتّمثيل!

كيف نميّز ما بين التّمثّل والتّمثيل؟ التّمثّل يكون ببذل الدّم، بالتّضحية، بالتّعب، بالنّسك من أجل المحبّة، بالأعراق، بالأسهار، بتقديم الإخوة على النّفس، بروح اللّه، على غرار مسيح الرّبّ. هكذا يتحقّق التّمثّل. فيما التّمثيل يكون بالخيال، بالإيهام الذّاتيّ، بالاستشعار العاطفيّ، بالبرّ الذّاتيّ، بتقديم الذّات على كلّ أحد، بروح الضّلال، على غرار إبليس. "التّنّين، الحيّة القديمة [الّتي خدعت آدم وحوّاء في الفردوس]، الّذي هو إبليس والشّيطان"

(رؤ٢٠: ٢)، هو المضِلّ الأوّل وأبو الضّلال!. هكذا يكون التّمثيل. الأوّل ينمو في الحقّ، والثّاني يتدرّج في الباطل!. الأوّل يقول الحقّ ليموت من أجل الحقّ. والثّاني يقول الحقّ ليَقتل، على حدّ زعمه، من أجل الحقّ!. "مَن لا يحبّ أخاه، فهو قاتل نفس" (١ يوحنّا)!. كلاهما، أوّل الأمر، يقولان القول عينه، في محبّة القريب. لذا، لا حكم مقبول بحسب الظّاهر!. أمّا الأوّل، فينتهي ببذل دمه من أجل قريبه، لأنّه "ليس حبّ أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبّائه" (يو١٥: ١٣). وأمّا الثّاني، فينتهي بكُره قريبه، لأنّ الآخر، في عينه، جحيم (سارتر)!. في الآخر، يستبين الأمر ما إذا كان حقًّا أم ضلالاً، واقعًا إلهيًّا أم خيالاً، ما إذا كان الحقّ قد جرى تمثّله أم تمثيله، ما إذا كان الحقّ دستورَ إيمان أم شعارات خاوية!.

قلنا، كلاهما، في أوّل الأمر، التّمثّلُ والتّمثيلُ، يقولان القول عينه. فقط، في الأخير، يستبين الحقّ من الضّلال. لذا، نسأل: أما من مؤشّر، من أوّل الطّريق، بشأن ما إذا كان المرء سالكًا في الحقّ أم في الباطل؟. بلى!. إذا كانت عينه على ما لنفسه من فساد، ويتألّم، وعلى ما لقريبه من فساد، ويتألّم أيضًا، فإنّه يكون في الحقّ، لأنّ هذا من الحبّ! أمّا إذا كانت عينه على ما يظنّه فسادًا في قريبه، ويدينه ويشهِّر به كفاسد، ولا يرى فيه أيّ صلاح يُذكر، ويعتبر نفسَه فاضلاً، دون قريبه، بأن يفْضَح قريبَه، فإنّه يكون في الضّلال!. الضّلال يَحكم، دائمًا، بحسب الظّاهر، ويَقبل كلّ ما يُقال له في خطّ حكمه، وبحسب هواه، دون أن يتثبّت ممّا يقال له!. أمّا مَن كان في الحقّ، فلا يدين إلاّ نفسه؛ ولأنّه

يدين نفسه، لا يدين أحدًا!. ثمّ مَن يعرف أنّ قريبه يسلك في الباطل، فإنّه يأتي إليه وينبِّهه كي يُصلح نفسه. فإن اصطلح الضّالّ، نجّى نفسه، وبارك اللّهُ على المصلِح!. وإن لم يصطلح الضّالّ، كان دمه على رأسه، ويكون المصلِح قد عَمِل عَمَلَ المحبّة!. أمّا إذا لم يكن للمرء وصول إلى السّالك في الباطل، بالطّرق اللاّئقة المشروعة، فإنّه يلجأ إلى الصّيام والصّلاة، وهو ملتجئ إليها، في كلّ حال، عساه يبكي على قريبه حبًّا، وعسى اللّه يتوب عليه، أي على الضّالّ، إن شاء اللّه!. هذا حسْبُ القريب لقريبه، لكلّ إنسان، والباقي عند ربّك!. أقول ذلك لأنّ مقاربة مَن هم في الحقّ للعالم هي مقاربة روحيّة بحت، في كلّ حال. المؤمن يسلك في الإيمان، بلياقة وترتيب، بلا تثريب!. وكلّ ما عدا ذلك ترّهات ونفه!. كلّ ما عدا ذلك يسير بالمرء من ضلال إلى ضلال أعظم، ومن معاناة إلى معاناة أعمق، ومن خيبة إلى خيبة أكبر، ومن ألم إلى ألم أشدّ، إلى أن يبلغ المرء حدّ مماثلة مَن كان ينتقدهم، تمامًا، ومهاجمة مَن كان يدافع عنهم، لأنّ ما فيهم فيه، وما فيه هوًى لا محبّة، وهو وإيّاهم لا يعلمون!. "مَن لا يجمع معي"، على قولة السّيّد الرّبّ الإله، "يفرِّق"!.

وجّه الأب الياس نظره شطْرَ حقّ الإنجيل، بكلّ قواه. لا يمكنك أن تعرف الباطل على حقيقته، ولا أن تفضحه، إلاّ إذا أقمت في حقّ الإنجيل بأمانة! الباقي وَهْم وتمثيل، مهما فعلت! الباطل، دائمًا، ما يتلبّس بجلباب الحقّ ليخدع!. والشّيطان يتلبّس بثوب ملاك من نور ليوقِع، كما الذّئب بثوب الخروف ليفترس!. مَن ليس روح اللّه فيه، فلا يميّز، وكيف يميّز؟!. بالعقل؟.

هذا، من دون نور اللّه في القلب، أداة لتطوير التّمثيل، متى شرد الإنسان عن الحقّ!. فلا غرو إن راج سوق التّمثيل والخيال في العالم، واليوم أكثر من أيّ وقت مضى!. هوليود، العالم الافتراضيّ (Virtual world)، التّلفون الموبَيل، السَّلْفي (التّصوير الذّاتيّ)، المسكرات، المخدّرات!... من دون الإنجيل والسّلوك في حقّ الإنجيل، لا حدود تفصل الواقع البشريّ عن الخيال الأحلاميّ!. الإنسان، من دون اللّه، يحتاج إلى الحلم، وإلاّ يموت يأسًا!. ولكن، ما لك بالحلم إلاّ الخيبة!. الواقع يمتزج بالخيال، والخيال بالواقع كأنّه واقع!. حتّى في أحرج الظّروف وأشدّها خطرًا، لا يعود بإمكانك أن تميّز، في سلوك الإنسان، بين الواقع المؤلم الّذي هو فيه والدّور التّمثيليّ الّذي يؤدّيه عن وعي!. كأنّك في مأساة تؤدّى، تعبيريًّا، بصورة فولكلوريّة، على المسرح!. ينشغلون بالإعلام، بالكاميرا، بالصّورة الشّخصيّة، لا فقط للتّرويج لقضيّة، أيًّا تكن القضيّة، سياسيّة أم اجتماعيّة أم شخصيّة، بل لحبّ الظّهور، للسّبح الباطل، للتّمجيد، للعظمة أيضًا!. المأساة في نينوى أدّت إلى الحزن الكبير، إلى الصّوم والصّلاة، إلى المسوح والرّماد. هذا لأنّهم تمثّلوها توبةً إلى ربّهم وإصلاحًا لطرقهم. أمّا المأساة للممثّلين، للخياليّين، فتُغنّى. لتتحرّك المشاعر، ولتتخدّر معًا، لتَسيل الدّموع، ليدور التّصفيق، ليَبرز الممثّلون باسم القضيّة، ليرقصوا، ليلهوا، لتصبح المأساة "مهضومة" بمعنى!. "مهضومة" بالمعنى الحرفيّ والتّصويريّ معًا! ومَن يكون المصفِّق الأوّل والمهرِّج الأوّل؟ مُخرج المسرحيّة، صاحب المسرحيّة، مموّل المسرحيّة!. لا مسرحيّة من دون ممثّلين ومُخرج!.

كأنّها حقيقيّة تمامًا!. من هنا نجاحها!. والنّاس يشترونها!. فكريًّا، يشترونها!. "فيلم" يحرز نجاحًا عظيمًا!. عن الفقير، عن المظلوم، عن الفساد!. وبالنّتيجة، يزداد الفقير فقرًا، والمظلوم ظلمًا، والفاسد فسادًا، فيما يُحفَظ الفيلم، بشأنه، في أرشيف ما! والأغلب أن يُنتسى! لا ذاكرة للخياليّين! هم، دائمًا، في الذّهن، غير مَن مرّوا قبلهم من حالمين!. لا فردوس هنا!. الفرح في المسيح!. في المسيح وحده، يسير الإنسان من فرح، بالضّبط، في الحزن والدّموع والمآسي الإنسانيّة، أقول من فرحٍ إلى فرحٍ إلى الفرح!. الفرح، هنا، جزئيّ!. الفرح الكامل هناك!.

فلأنّ الأب الياس كان يشتهي أن يقيم في الحقّ، بعيدًا عن أوهام العالم، وتمثيليّات العالم، أقام في "صومعة" يبكي على نفسه والنّاس... آدم باقٍ، خارج الفردوس، يبكي إلى أن يعود، بالتّوبة، إلى ربّه. ساعتئذٍ، يثبت فيه عربون الفرح!. فقط، إذ ذاك، هناك، يسمع الصّوت الّذي طالما اشتهاه، ولا يكون الصّوت من الخيال: ادخل إلى فرح ربّك!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٣ تشرين الثّاني ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٥)

ليس للإنسان سلطان على نفسه. بإزاء ناموس اللّه، يجد ناموسًا آخر، في أعضائه، يحاربه. ولا يحاربه فقط، بل يسبيه، أيضًا، إلى ناموس الخطيئة!. بلى، للخطيئة شريعتها وقوّتها وقواعدها. مفروضة على كلّ ابن آدم، شاء أم أبى. مُسبًى إليها رغم أنفه!. لا يستطيع إلاّ أن يَخطأ!. في الخطيئة ولدتني أمّي!. لذا، صرخ بولس الرّسول، لأنّه ظنّ نفسه، من قَبلُ، بارًّا، إذ كان "أوفر غيرة في تقليدات آبائي" (غلا١: ١٤)، على حدّ تعبيره، أقول صرخ "ويحي، أنا الإنسان الشّقيّ! [المبيع تحت الخطيئة (رو٧: ١٤)]! مَن ينقذني من جسد هذا الموت؟. أشكر اللّه بيسوعَ المسيح ربّنا!." (رو٧: ٢٤ – ٢٥). إذًا، لا خلاص إلاّ بيسوع المسيح!. وحده له سلطان على ذاته (يو١٠: ١٨)!. هذه الصّفة بالذّات ينقلها الرّوح القدس إلينا، سلطانَ وضعِ الذّات، بذلِ الذّات، اقتداءً بالمسيح وشهادةً له لمجد الآب السّماويّ!. فلا عَجَب، إن صدح الرّسول المصطفى، بعدما عبّر عن ضعفه وعجزه وشقائه الخاصّ، كإنسان، بالقول:

"أستطيع كلّ شيء في المسيح الّذي يقوّيني" (في٤: ١٣)!. وما بلغ الرّسول هذه الحال وعبّر عنها، إلاّ بعدما تمرّس في الاكتفاء، وتدرّب أن يشبع وأن يجوع، وأن يحيا في البحبوحة وفي العوز (في٤: ١١ - ١٢)! بكلام آخر، تمرّس في الفقر! لا الفقر كواقع، كحدث، بل الفقر كحالة داخليّة، كإخلاء للذّات، كشهادة، كانقطاع كامل عن روح العالم، كإفراغ للنّفس، كصليب، كَموت عن الذّات!

ما سرّ الموت عن الذّات هذا؟. هو سرّ الحبّ!. الحياة، والحياة الأبديّة، تخصيصًا، من الحبّ تأتي!. في منطوق المحبّة، حياة الابنِ، ابنِ اللّه، من الآب تأتي!. الآب حياة الابن، والابن، مسيحُ الرّبّ، حياتُنا (كو٣: ٤)؛ وبالقياس عينه، "أخي هو حياتي" (ق. سلوان الآثوسيّ)!. لذا، كانت الغربة عن العالم - "ليس لابن الإنسان أين يُسند رأسه" (لو٩: ٥٨) - وقبل ذلك، غربته الكاملة عن نفسه - "طعامي أن أعمل مشيئة الّذي أرسلني، وأتمِّم عمله" (يو٤: ٣٤) - هي أيقونة الآب فيه - "مَن رآني، فقد رأى الآب" (يو١٤: ٩)، ومن ثمّ، بالامتداد، أيقونة ابن اللّه وابن الإنسان فينا!. على هذا، بوضع الذّات، بإفراغ الذّات، بإخلاء الذّات من كلّ كرامة واعتبار ذاتيَّين، باقتبال الصّورة عن ذواتنا أنّنا عبيد ليسوع، كما جعل هو نفسه عبدًا ليهوه أبيه، وعبيدٌ لكم من أجل يسوع (٢كور٤: ٥)، هكذا، بالمعنى الكيانيّ العميق للكلمة، نجدنا نتملأ من محبّة اللّه، من المحبّة الّتي أحبّنا هو بها. فقط، إذ ذاك، نستطيع أن يحبّ أحدنا الآخر كنفسه (الوصيّة الثّانية العظمى)، لا بمعنى أن يحبّ الواحد الآخر، كما يحبّ نفسه، بل بمعنى أن يحبّ الآخر باعتباره نفسَه،

حياتَه، ولا حياة له، لا فقط من دونه، بل لا حياة له إلاّ فيه!. هذا هو المعنى العميق لقولة القدّيس سلوان: "أخي هو حياتي"!. هذا هو نداء محبّة اللّه!. "تعالوا إليّ... وأنا أُريحكم"!. لا الرّاحة من شيء، فقط، بل، بالأَولى، الرّاحة فيّ!. لا فقط أُريحكم، بل، بالأحرى، أنا راحتكم، "لأنّ الّذي دخل راحته استراح..." (عب ٤: ١٠)!. لا راحة إلاّ في روح اللّه!.

هذه كانت، بالذّات، شهادة الأب الياس!. سِنوه، في العالم، كانت سِني تعب، على الرّغم من أنّ أسباب الرّاحة كانت موفورة لديه!. كان جائعًا!. كيانيًّا جائع! إصبع اللّه كان فيه! لذا، أكثر الكلام على القلب، على العمق، على الكيان، على ما هو فوق، على الدّاخل... هذا ما حرّك فيه التّوق إلى الحياة الرّهبانيّة!. أراد أن يتعلّم ويتمرّس في ما دعا إليه المعلّم، أنْ تعلّموا منّي... وكذا في ما تمرّس فيه من آلام وأحزان، كرجل أوجاع!. لم يكن حزن الأب الياس كأحزان العالم. هذه كفّت عنه لمّا التزم الفقر الخارجيّ، الفقرَ في ما للعالم!. قلقه، إلاّ كتجربة، لم يعد يأتي من الخارج. حزنه بات متأتّيًا ممّا يجول في دواخل نفسه، من أفكاره، من أهوائه، من صراعاته الدّاخليّة!. هنا، على هذا الصّعيد، تعاطى الأب الياس العنف مع نفسه. شنّ حربًا لا هوادة فيها على نزعاته، لا سيّما على كبريائه، على عنفوانه، على السّبح الباطل فيه، وحتّى على كرامته... "أنتم مكرَّمون. وأمّا نحن، فبلا كرامة" (١كور٤: ١٠)!. لا لأنّ النّاس لا يكرموننا، ثمّة مَن يكرمنا وثمّة مَن يهيننا، بل لأنّ الضّرورة موضوعة علينا أن نسلك كعبيد!. محبّة المسيح

تأسرنا!. "أنا بولس، أسير المسيح يسوع لأجلكم..." (أف٣: ١)!.

كان الأب الياس يعي تمامًا أنّه ليس لنفسه!. الرّهبنة ليست في الكنيسة وحسب، بل للكنيسة أوّلاً! هذا البعد الشّركويّ وعاه الأب الياس جيّدًا. في حديث له عن الرّهبنة (راجع كتاب آمنوا بالنّور لتصيروا أبناء النّور ص ٢١٧- ٢١٨) قال: "سأبوح لكم بسرّ، إذا قلت إنّي شخصيًّا لم أدخل الدّير من نفسي، بل كانت هناك قوّة خفيّة تدفعني وتقودني وترتّب لي كلّ شيء، هي، بلا شكّ، القوّة المنبعثة من ضمير النّهضة الأرثوذكسيّة، قوّة منطق النّهضة الدّاخليّ". ثمّ أردف، بالكلام على نفسه ورفقته:"لا نختبر الرّهبنة باسمنا ولحسابنا، ولا باسم حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة ولحسابها وحسب، بل باسمكم جميعًا، باسم الكرسيّ الأنطاكيّ المقدّس ونهضة اللّه فيه...".

على أنّ الأب الياس يوضح، في مكان آخر (ص ٢١٩)، أنّ الرّهبنة موجّهة للّه، أوّلاً وآخرًا؛ فإذا ما شاء لها اللّه أن تقوم بخدمة محسوسة للكنيسة، فخدمتها تكون لا هدفًا بل نتيجة، فيضًا من حياة... ويختم بأنّ الرّاهب يكرّس نفسه للّه، لأنّ هذا إنّما هو حقّ، وهو يكرّس نفسه، بالدّرجة الأولى، لا ليخدم الكنيسة والمجتمع، بل ليكون في الحقّ (ص ٢٢٠)! بلى، كلّ مسيحيّ مكرَّس للرّبّ، لكنّ الرّاهب يذهب بهذا التّكريس إلى أبعد حدوده!.

في الشّهادة، ما هو أوجع من بذل الدّم: بذل النّفس!. بذل الدّم يأتي كنتيجة!. بذل النّفس أن تحطّم أناك العتيق، أن تجلد نفسك، كلّ يوم، لا لأنّك تحبّ الألم، بل لأنّك تكره الآلام (الأهواء) الّتي فيك، ولسان حالك

قولة المزموريّ: "سأقتفي أعدائي فأدركهم، ولا أرجعنّ حتّى أفنيهم... لأنّك حزّمتني بالقوّة من أجل القتال" (مز١٧: ٣٧، ٣٩)!. وما المحصّلة.؟. هذه عبّر عنها خير تعبير الشّيخ يوسف الهدوئيّ (+١٩٥٩)، في رسالته الثّانية والأربعين (راجع كتابنا بالعربيّة: سيرة ورسائل الشّيخ يوسف الهدوئيّ الآثوسيّ، ٢٠٠١): "هذا... هو فنّ الفنون وعِلم العلوم: أن تجلدي [إلى راهبة] نفسك إلى أن تقتنعي بأن تَدعي النّورَ ظلمةً والظّلمةَ نورًا، إلى أن يغادرك كلّ ظنّ بأنّك على حقّ، إلى أن تُزالَ منك كلّ عجرفة، إلى أن تستحيلي مخبولة وأنت تتمتّعين بفهم كامل، إلى أن تبصري كلّ أحد ولا يبصرك أحدٌ البتّة. فإنّ مَن تروحن يفحص كلّ شيء ولا يُفحَص من أحد. يرى كلّ شيء. عيناه مثبّتتان فوق ولا مَن يعاينه"!.

دموع الأب الياس كانت أيقونة المسيح المصلوب فيه. حكت جراحه وحكت أفراحه. حكت موته عن نفسه وحكت قيامته. حكت حربه على إنسانه العتيق وحكت حبّه لكلّ إنسان. حكت حرصه على التّواري وحكت حرصه على تقديم النّاس. حكت حزنه على خطيئتّه وحكت فرحه بهداية الآخرين. بكى مع الباكين، وفرح مع الفرحين. كان ينبغي له أن ينقص ولله أن يزيد، فيه وفي النّاس. هكذا أضحت شهادته استشهادًا يوميًّا لَيحيا ويُحيي...

حاجة عالمنا، اليوم، هي إلى الإنسان البارّ. الأبرار لأجلهم يَصفح ربُّك عن خطايا الأكثرين، ويَسلم البلد في الأزمات الكبرى!. في سِفر التّكوين، كان ربّك مستعدًّا، بخمسة أبرار، أن يصفح عن سدوم وعمورة!. في نبوءة

إرميا، صار يكتفي بواحد ليصفح عن أورشليم: "طوفوا في شوارع أورشليم، وانظروا، واعرفوا، وفتّشوا في ساحاتها، هل تجدون إنسانًا، أو يوجد عامل بالعدل (بالبرّ)، طالب الحقّ، فأصفح عنها" (إر٥: ١)!.

حاجتنا، اليوم، إلى البارّ، هي كحاجة المتصحّر إلى نقطة الماء. وحدهم الأبرار ينقذوننا!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٠ تشرين الثّاني ٢٠١٩

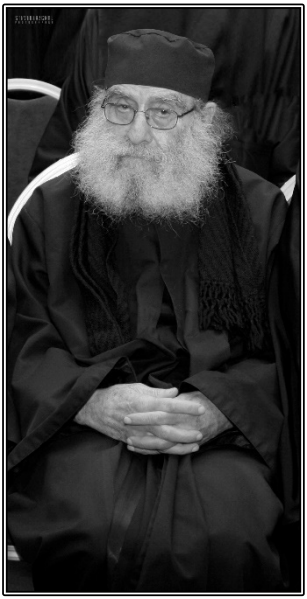

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٦)

أهل هذا البلد كلّهم متسيّسون. قلّما تجد مَن لا تهمّه السّياسة، ولو من بعيد، أو مَن ليس له وجهة نظر سياسيّة. السّبب بسيط: أنّ البلد صغير، وهو على تقاطع طرق إقليميّة ودوليّة، ومعيشة سكّانه مرتبطة بواقعه السّياسيّ، المتقلّب بصورة شبه دائمة، لأسباب داخليّة أو خارجيّة، أو الإثنين معًا، وفترات الاستقرار فيه قصيرة نسبيًّا، بمعدّل خمس عشرة إلى عشرين سنةً، يحدث، بعدها، اضطراب ما. هذا لا تألَفُهُ الدّولُ الكبرى أو شبه الأمبراطوريّات. فترات الاستقرار هناك أطول. والنّاس فيها ليسوا عرضة للتّقلّبات السّياسيّة شبه المتواترة. قلّة هناك، على هذا، تبالي بالسّياسة، لكنّها تبالي، بكلّ تأكيد، بأمورها المعيشيّة.

هذا الواقع، لدينا، يستدعي تحصينًا بنيويًّا في تنشئتنا، يقينا تداعيات المتغيّرات والتّناقضات السّياسيّة لجهة علاقة النّاس بعضهم ببعضهم الآخر. نحتاج إلى أن تبقى العلاقات الإنسانيّة، في ما بيننا، سلاميّة، متى اختلفت

وجهات نظرنا، في هذا السّياق. هذه مشكلة صعبة بيننا. يكون النّاس متحابّين، في العادة، متى التقت آراؤهم، لا سيّما السّياسيّة، ويتصادمون متى تباينت. حتّى ضمن البيت الواحد، عندك معاناة. فجأة، يقوم الرّجل على امرأته ويخاصمها، أو تقوم المرأة على رجلها وتخاصمه!. الأمر عينه يحدث في مستوى أبناء الرّعيّة الواحدة. بعضهم، وأحيانًا العديد منهم، تجده في وضع المستنفِر سياسيًّا، لا سيّما في الأزمات. لذلك، أيّ اجتماع لأبناء الرّعيّة ينزلق الحديث فيه إلى طرح موضوع سياسيّ، ولو تلميحًا، يؤدّي بيسرٍ إلى خلاف، وقد يكون حادًّا. تشتدّ نبرة الصّوت في الحضور، ويستعر الغضب، ويتفلّت الكلام. هذا، إذا لم ينتهِ الصّدام الكلاميّ تشابكًا بالأيدي، وتبادلاً للتّهديدات! هذه، بعامّة، حال النّاس في الكنيسة، كما في خارجها. ثمّ، كلّما اشتدّت الأزمة السّياسيّة، ارتفعت وتيرة الصّراع في ما بين النّاس!. وثمّة حالات سجّلت فيها حوادث قتل الأخ لأخيه!.

السّؤال، والحال هذه، هو: ماذا نعمل لتبقى العلاقات، في ما بيننا، هادئة سلاميّة مضبوطة، متى اختلفنا في الرّأي، لا سيّما السّياسيّ؟. كيف يمكننا أن نتحاور بمحبّة وإيجابيّة، أو حتّى أن نسمع رأيًا مخالفًا لرأينا ولا نثور؟. عندنا، في الكنيسة، جواب، إذا كنّا فعلاً أبناء كنيسة.

كان الأب الياس من أبناء هذه البيئة، وكان له رأي سياسيّ، لا يعبّر عنه إلاّ في حدود الخاصّة من معارفه وبهدوء. كان له، في هذا الشّأن، موقف راقٍ أملاه عليه الإنجيل. كان يحبّ وطنه، بلا شكّ، وكانت له وجهة نظر، يدافع

عنها، إذا لزم الأمر، لكنّه لا يدخل في صراع مع أحد، كما لا يؤثّر الاختلاف في وجهات النّظر بينه وبين الآخرين في محبّته لهم أو نظرته إليهم. وإذا ما شعر أنّ رأيه يُعثر سواه، اعتذر، أو امتنع عن الكلام، لتبقى المحبّة وحدها هي الجامع بينه وبينهم!.

من جهة أخرى، لا شكّ أنّ قومًا حاولوا جرّ الرّبّ يسوع إلى اتّخاذ موقف سياسيّ من الدّولة الرّومانيّة، في زمانه. لكنّه، إذ عرف قصدهم، اجتنب فخّهم، وأوقعهم في الحيرة. سألوه: أيجوز أن تُعطى جزية لقيصر؟. نعطي أو لا نعطي؟. هذا السّؤال، في المناخ العامّ، يومذاك، لا فقط كان له بُعدٌ يمتّ إلى الشّريعة بصلة، بل إلى السّياسة أيضًا!. فبمَ أجابهم؟. قال: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه!. هذا جواب لكلّ زمان ولكلّ مكان، في الحقيقة. كيف نوفّق، والحال هذه، ما بين علاقتنا باللّه وموقفنا وعلاقتنا بالعالم وسلطات هذا الدّهر وسياسات المتسلّطين؟.

لا شكّ أنّ علاقتنا باللّه، إذا استقامت، فإنّها، إذ ذاك، تستقيم في كلّ مستوًى من مستويات مقاربتنا للعالم!. أمّا الاختلال في العلاقة بالنّاس، فمؤشّر اختلال في علاقتنا باللّه، لا شكّ في ذلك. فإذا ما أحبّ أحد ربّه حقًّا، فلا يمكنه إلاّ أن يكون محبًّا لقريبه، لأنّ المحبّة الحقّ، أو في الحقّ، تتأنّى وترفق، وهي لا تقبِّح، ولا تحتدّ، ولا تظنّ السّوء، وتحتمل كلّ شيء (١كور١٣)، تحت أيّ ظرف!. أمّا مَن احتدّ وأبغض أخاه وقاطعه، أو ضَمَر له السّوء، فلا يمكنه أن يكون محبًّا للّه!. على العكس، يعتبره الكلام الإلهيّ، كما في رسالة يوحنّا

الأولى، الإصحاح الرّابع، قاتلَ نفس!.

فإذا ما كان مَن أعتبره أخًا في الإيمان مبغضًا لي لأنّي من غير رأيه في السّياسة، أو حتّى غيرها من ميادين الحياة، فإنّ محبّتي له تقضي بأن أسعى لأن أُبيّن لأخي، برفق ولَطَف، أنّ هذا ليس من اللّه، وأن أُساعده، بما أستلهمه من اللّه، على وضع الكلام الإلهيّ موضع التّنفيذ لديه. هذه فرصة ثمينة لإصلاح أحدنا الآخر، بدل أن تكون مناسبة للدّخول في صراعات في ما بيننا!

كيف نفعل ذلك؟. كيف أحفظ المحبّة لأخي ولو اختلفت معه في الرّأي، لا سيّما السّياسيّ؟. هذا، بالنّسبة إلى الأب الياس، كان شأنًا تمرّس عليه، بالصّمت، بالصّلاة، بالصّبر، بالاتّضاع!. كثيرون، ممَّن كانوا يأتون إلى الأب الياس، كانوا يأتون من خلفيّات سياسيّة متباينة، فكان يحتضنهم بمحبّة واحدة لا زغل فيها! وكانوا هم، من ناحيتهم، يرتاحون إلى رحابته وانفتاحه، ولا يشعر أحد بأنّ ما للسّياسة يؤثّر في علاقته به. المهمّ، لدى الأب الياس، كان أن يعين المُقبلين إليه على أن يكونوا بَشَرَ ضميرٍ حيّ. همّه كان أن يأتي بالآخرين إلى المسيح، وأن تكون علاقتهم به علاقة حيّة. إثر ذلك، كلّ شيء آخر ينتظم، لأنّ روح محبّة اللّه وروح الأمانة له تطردان الزّغل إلى خارج، فتنتظم، إذ ذاك، كلّ علاقة لهم، بعضهم ببعضهم الآخر. طبعًا، الأمر بحاجة إلى صحوٍ وجهد ووقت. لكنْ، متى عرف المرء أساس الأمانة في العلاقة باللّه، وهو المحبّة في الرّوح والحقّ، فإنّ نموّه في محبّة اللّه يصير مرهونًا بنموّه في محبّة الإخوة، الأقربين والأبعدين، كائنة ما كانت أحوالهم ومواقفهم!.

بمَ على كلّ مؤمن أن ينمو؟. بالتّمرّس في التّمييز بين أخيه ورأيه، بين أخيه وموقفه، بين أخيه وعمله. أمّا أخي، فلا أسمحنّ لنفسي، بوعيي واقتبالي له واحتضاني إيّاه، لأنّ أخي هو حياتي، كما قال القدّيس سلوان الآثوسيّ، أجل حياتي، هذا في المسيح، أقول لا أسمحنّ لنفسي بأن تنفر منه أو تعاديه أو تلغيه، مهما بدا لي رأيه منفِّرًا وموقفه لولبيًّا!. أخي ليس رأيًا ولا موقفًا!. أخي من روح المسيح، وروح اللّه وحده هو الّذي يجمعني إليه، لا رأيه ولا رأيي، حتّى لو تلاقيا!.

مَن منّا على حقّ، ومَن ليس على حقّ في موقفه؟. هذا يتعذّر تحديده، في أكثر الأحيان، لأنّ معيار الحقّ الإلهيّ لا ينطبق على السّياسة!. السّياسة شأن نسبيّ، وفيها الكثير من الباطنيّة. قد أكون أنا على حقّ في بعض ما أقول، وقد يكون أخي على حقّ في بعض ما يقول، وقد يكون كِلانا على حقّ، وقد يكون كِلانا في الضّلال، ولو ظنّ نفسه على حقّ!. الأمر الوحيد الأكيد أنّي أكون في الحقّ، متى أحببت أخي، بغضّ النّظر عن رأيه، وموقفه، وحالته، وما يأتيني منه، وما لا يأتيني!. أُحبّه، هكذا، لذاته، كما أحبّني ربّي لذاتي!. متى وعيت ذلك، وتبنّيت ذلك، وسعيت إلى ذلك، واستعنت باللّه على ذلك، فإنّي، إذ ذاك، أكون لا على حقّ، فقط، بل في الحقّ!.

أمّا ما يعانيه أخي وما أعانيه أنا، فعلى كلّ منّا أن يعين أخاه عليه، بالصّلاة من أجل بعضنا البعض، بحَمْل أثقال بعضنا البعض، بتبنّي بعضنا البعض، بتنبيه بعضنا البعض، حيث أمكن، وبالتزام الصّمت حيث بدا ذلك

متعذّرًا، وكذا بالصّوم من أجل بعضنا البعض. وإن كنّا جادّين في سعينا لبنيان بعضنا البعض، فبالبكاء من أجل أحدنا الآخر، والابتهال لأجله لدى اللّه... بهذه الأمور وغيرها، ممّا توحي لنا به محبّتنا للّه، إذا كانت حقيقيّة، ومحبّتنا لإخوتنا، إذا كانت أصيلة، أقول بأمور كهذه نسلك في المحبّة الحقّ؛ فتتكمّل فينا، إذ ذاك، محبّة اللّه، وتصير خلافاتنا مجالاً لترسيخ وتمتين وحدتنا في المسيح!.

إذًا، نميّز بين أخينا ومواقفه، وأخينا وآرائه، وأخينا وأعماله. فإن أحببناه حقًّا بمحبّة المسيح، فإنّنا، بذلك، نجدنا نُعينه على نفسه، وكلّ نفسٍ أمّارة بالسّوء، وهي بحاجة إلى تنبيه، وحتّى زجر بمحبّة، عند اللّزوم!. على هذا، إذا ما تسنّى لي أن أقول لأخي كلمة، إنْ أحببتُ أخي حقًّا، وأن يقول لي أخي كلمة، إنْ أحبّني، فإنّ هذه الكلمة ربّما تكون التّالية وأكثر:

أَحِبَّ واعمل ما تشاء!. اِعمل كلّ شيء بضمير صالح في المسيح!. مِن غير رضى المسيح، في الضّمير، لا تعمل شيئًا!. قبل أن تدّعي أنّك تُخرج القشّة من عين أخيك، أَخرِج أنت، أوّلاً، الخشبة من عينك!. لا تبرِّر نفسك في شيء، يعرف اللّه قلبك!. أنا وأنت نتبرَّر، فقط، في عين اللّه، إن عرف الواحد منّا خطيئته وقصوره في المحبّة وتاب عنهما!. احذر أن تكون عثرة لغيرك!. متى رأيت أخاك في الغضب لديك، فاجتهد أن تسكِّن ردّة الفعل العاصفة بقلبك حياله، بذِكر اللّه! متى رأيته محتدًّا في الكلام، فاحتدّ، مقابله، ضدّ أفكارك، في حفظ الصّمت!. قد يقول فكرٌ فيك: إذا فعلتُ ذلك،

سيحسبني ضعيفًا، أو يظنّ نفسه على حقّ، أو يحسَب السّاحة له بالكامل!. قلْ لنفسك، إذ ذاك: القويّ عند اللّه هو مَن يستوعب أخاه في ضعفه! وإن ألفيتَ نفسك أضعف من أن تحتوي أخاك، فاصرخ ربَّك: "أعنّي، يا ربّ"، فيُعينَكَ للحال!

لا يستسلمنّ أحد لخطيئته بسبب شعوره بالضّعف، لأنّ قوّة اللّه في الضّعف تُكمَل؛ ولا بسبب الشّعور بالمهانة، لأنّ الكرامة من عند ربِّك وحده تأتي؛ ولا من باب الانتقام من أخيك كأنّه عدوّك، لأنّ عدوّك فيك، خطيئتك، وليس في أخيك!. مَن هم الّذين يتصارعون على هذا الصّعيد؟ المتشابهون!. وإذا كان لا بدّ لك من الرّدّ والانتقام، فرُدَّ على مَن يزرع السّجسَ، وانتقم ممَّن يُهيج فيك السّخط والخصام، إبليس، عدوّ اللّه وعدوّك!. هذا مَن يزرع فيك هوى الخطيئة للأذى والموت، في كلّ حين، لأنّه يريدك أن تلعق دمك وتأكل لحم نفسك!. ليس أخوك هو عدوّك، بل حياتُك!. عدوّتك هي الحيّة القديمة، الّتي تربّصت بآدم وحوّاء شرًّا، وهي المقاوِمة للّه وأحكامِه والمضلِّلة للنّاس، الّتي تفرح بالإثم ولا تفرح بالخير، ولا تحبّ الحياة لأحد بل الموت!. "كلّ مبغضيّ، [قالت حكمة اللّه]، يحبّون الموت" (أم٨: ٣٦)!.

ما همّ ما يقوله هذا الفريق أو ذاك من أهل السّياسة. ليس في السّياسة، إلاّ ما ندَر، برٌّ وأبرار!. كلٌّ فيها يطلب ما لنفسه وسلطانه ومكاسبه، إن كنت لا تدري!. الشّعارات البرّاقة جلّها كلام في الهواء!. أمّا أنت، فإن كنت للمسيح حقًّا، فاطلب ما للمسيح في كلّ شيء: أَحِبّ قريبك كنفسك!. قيصر تعامله بإكرام، وتعطيه ما له عليك، لأنّ سيّدك أوصاك بإكرامه وإيفائه حقّه. لكنْ،

لا تبعْ مسيحَك وأخاك وضميرك، إن كانْ لك ضمير، لترضيه!. حيثما كنتَ، لست خادمًا لأحد، ولا لفكرة، ولا لموقف سياسيّ! أنت سيّدٌ من فوق، وشاهدٌ لمسيحك! اشهدْ له، إنْ استطعتَ، وسنحت لك الفرصة، وإلاّ حسْبُكَ الامتناع عن الموبقات حتّى الموت!. ليست لنا ههنا مدينة باقية، بل نطلب الآتية (بولس)!. لا تتحمّس لما لا ينفع، لئلاّ يكون شعورك بالإحباط عظيمًا!. الأمل بالنّاس يُخزي!. هذه آبار مشقَّقة لا تضبط ماء!.

دَفَعَ الأب الياس دمه ثمنًا، ليترقّى في النّعمة والمحبّة! أما تتعب أنت من أجل ذلك؟!. هذه كانت سياسته بإزاء الجميع: أنْ أَحِبّ الرّبّ إلهك من كلّ قلبك، ومن كلّ نفسك، ومن كلّ قدرتك، وقريبك كنفسك!. هذا عمل على ترجمته في كلّ سيرته، وهذا علّمنا إيّاه: كنْ مراضيًا لخصمك سريعًا، ما دمت معه في الطّريق، أي ضميرِك في المسيح (متّى ٥: ٢٥)!. حياة الإنسان ضمير، لا سيّما في الأزمات والتّجارب!. فمَن فرَّط بضميره في المسيح، مهما كانت الأسباب والموجبات، مات قبل أن يموت في الجسد!. إيّاك والباطل، مهما كان مغريًا!. لا تُقرِّب لربّك ذبيحة معيوبة ولا كاذبة!. هذا احفظه، يا بنيّ، لتأمَن غادرات الدّهر، فلا تندم عليها، في ما بعد، عبثًا!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٧ تشرين الثّاني ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٧)

تعلّم الأب الياس، على غرار الرّسول بولس، أن يموت كلّ يوم!. خروجه من العالم، أصلاً، كان، على حدّ تعبير الرّسول المصطفى، لأنّ "العالم صُلب لي وأنا للعالم"!.

ولكن، غريبًا كان أمر الأب الياس!. للنّاظر إليه، في رهبانيّته، كان يبدو كأنّه لم يتنازل عن أمور كثيرة في العالم. على العكس، كان يطلبها من وقت لآخر، ويتصرّف كأنّه يستأنس بها وينتظرها!. دونك، مثلاً، من ألوان الطّعام، طلبه لطبق "المحشي كوسى باللّبن"، من بعض الأصدقاء. ثمّ السّرعة وتجاوز السّيارات، في السَّوْق، كان يستحسنها!. الخروج إلى المطاعم، أحيانًا، كان يُقبل عليه بلا أدنى حرج، مع بعض الأصدقاء طبعًا، إذا دعوَه!. لَعِبُ النّرد (الطّاولة) و"التّزريك"، أَلِفَه!. ثمّ التّصفيق والضّحك والنّقف بالإصبع كان عاديًّا عنده، في بعض اللّقاءات العائليّة أو الخاصّة. ابن أخيه ماكس، رحمه اللّه، وكان اسمه طوني، كان يلعب البيان. كان الأب الياس يأنس لأدائه، وأخت

طوني، واسمها ماريان، عندما كانت تغنّي هي وأخوها كارل. مشاوير حلب كانت تبدو ممتعةً له! شيش الكباب مع لبن العيران، ونكات ماكس وأخباره. كان الأب الياس يفرح بكلّ ذلك، ويفرح، أوّلاً، بعائلة أخيه، ويضحك حتّى الدّمع، أحيانًا!.

كان يبدو، من وقت لآخر، كأنّه يحبّ "شمّ الهوا"، والصّعود إلى صلنفة، مصيف اللاّذقيّة. وسماع الموسيقى الكلاسيكيّة، وبخاصّة موزار، كان، أيضًا، للفرح لديه. وماذا أقول عن إيملدا، زوجة أخيه مارك، الّتي كانت تنكبّ على إعداد أطايب المائدة السّخيّة، كلّما أتاهم الأب الياس زائرًا!. بإمكاني أن أسترسل في الكلام عن سلوك الأب الياس كواحد من النّاس، في أوساطهم، طبعًا دون ابتذال. ولكن، يكفي ما أوردته عيّنةً.

ماذا يعني الإقبال على حياة الفقر الرّهبانيّ، وهذا الاستئناس، حتّى التّماهي، في مجتمعات النّاس، بأمور عالميّة شتّى؟. للوهلة الأولى، يبدو كأنّ الأب الياس لم يطلّق العالم، حتّى لا نقول لم يمت عنه، بل بقي مُحبًّا للاّذقيّة، وحلب، وحمص، والشّام، وإخوته، وأصحابه القدامى... في حينه، لم أفهم، تمامًا، مغزى هذا الموقف، على الرّغم من أنّي كنت أرتاح له، لسببٍ لم يكن واضحًا تمامًا لي، وأرى في الأب الياس انفتاحًا جميلاً!. لكن، بمرور الزّمن، أظنّني بدأت أفهم، من خلال إمعان النّظر في أفقه الفكريّ الكيانيّ!.

روح العالم، في المبدأ، يجوّف الصّلاة، ويجفّف الدّموع، ويبلّد الإحساس، ويثقّل النّفس، ويشوّش القلب، ويُبهت العين الدّاخليّة، ويذهب بالوقفة أمام

اللّه... لكن، هذا كان الأب الياس غريبًا عنه!. طبعًا، لم يكن بلا هوًى. كان له جهاده الثّابت. لكنّ معالم شخصيّته الرّهبانيّة سبق لها، بعامّة، أن تحدّدت. تماسكه الدّاخليّ وثباته في عشرة اللّه وغربته عن العالم، كما بدت في صلاته الّتي ما فتئت تنساب انسيابًا، وفي دموعه الّتي لازمته سيّالةً بهدوء في الصّلاة، وبحرقةٍ أحيانًا، إن كان ثمّة ما يوجعه أو يوجع الآخرين لديه، ومن ثمّ هدأته ورصانته ورزانته، عندما كان إلى مَن يسأله كلمةَ منفعة، أو إلى مَن يأتيه محتارًا أو متضايقًا أو موجوعًا، أقول كلُّ هذا أبرز الأب الياس، وبقدر ليس بقليل، إنسانًا متمرِّسًا في الانقطاع عن العالم، وفي الفقر بإزاء العالم! هذه مرحلة، في جهاده، عبر بها، ثمّ تخطّاها إلى شيء آخر جديد. ما هو؟

كان الأب الياس يُدرك، في روحه، أنّ له ضعفاته. لكنّ هذه الضّعفات لم تُثنِه عن تعاطي العالميّات، كواحد من النّاس، إنّما على مسافة داخليّة منها. كان يعي أنّه واحد من القوم ومختلف عنهم، في آن، وهكذا كان، من جهته، أكثر الّذين كانوا يلتقونه!. كانوا يُعجَبون به ويأنسون له. قلّما سعى إلى صدم أحد بحضوره أو بسلوكه، ولو أثار التّسآل فيهم. بالنّسبة إليه، النّسك موقف داخليّ يعبّر عن ذاته بكيفيّة تعاطي شؤون النّاس، طبعًا المشروعة والمقبولة والنّافعة، لا بالانقطاع لا عن النّاس، ولا عن أماكنهم، ولا عن شؤونهم...

بين النّاس، كان الأب الياس كالنّاس، لا يثقّل بنسكه على أحد. فقط، يحفظ، ويوحي لهم، كما يُفترَض بهم، هم أيضًا، أن يحفظوا، إذا كانوا مؤمنين، الحدودَ الّتي رسمتها الكنيسة.

صحيح أنّه كان يأكل طبق الكوسى باللّبن كأنّه شغوف به. لكنّه، في الحقيقة، كان يأكل قليلاً. لا يتشاره. أصلاً، عوده كان دليله. كان الأب الياس رقيق العود، مُمسِكًا بعامّة. يتكلّم عن الأكل أكثر ممّا يأكل، ويشكر أكثر ممّا يهتمّ بملء معدته، ويفرح ليفرّح الآخرين أكثر ممّا ينصرف إلى قضاء شهوة لديه!. أداؤه، بالأحرى، لم يكن من أجل نفسه، بل من أجلي، أنا، لأنّي كنت أرافقه، ليعلّمني ويؤنسني، وكذا من أجل الّذين يلتقونه. إذا صحّ التّعبير، قلت: ما كان يأتيه، على هذا الصّعيد، بالأحرى، كان من إرادة محبّة، لا من هوى قلب!. لذا، كنت تراه، بعد أكلة دسمة، مثلاً، فيما يذهب الآخرون إلى راحتهم، يجلس هو إلى طالبٍ الجلوسَ إليه ليسمعه، ويعينه، ويبكي معه!. الأمر عينه يُقال في سماع الموسيقى الكلاسيكيّة. كان يشاؤني أن أتثقّف بها، أوّلاً، وأن يفرّح قلوب الآخرين. لذا، سمعته، بعد سنوات، يقول لي: ليس حسنًا أن يسمع المرء، إذا كان مستغرقًا في صلاته، الكثير من الموسيقى، لأنّها تشوّش عليه!.

من هنا، استعمالي لفظة "أداء". ما كان يفعله، في إطار ما ذكرت، كان، بالأحرى، لديه، كغبار على الوجه يغسله صاحبه بعد فينة، فيكون كأنّه لم يكن!

هذه المعادلة، بين النّسك الدّاخليّ والانفتاح الخارجيّ الأصيل على الآخرين، هي الدّرّة الّتي عمل الأب الياس على بلورتها والبلوغ بها حدّ السّموّ!. الرّهبانيّة لديه، لأجل المفارقة، لم تكن، يومًا، انقطاعًا عن العالم، عن النّاس، عن هموم القوم، بل عن روح العالم!. بلى، بالمحبّة الحقّ، يقدر

المرء أن يُمَيِّزَ، في كيانه، بين العالم وروح العالم!.

أخبرني أخ أتى، مرّة، لزيارة الدّير، قال: كنتُ على سفر، مرّةً، وأردت أن آخذ بركة الأب الياس قبل مغادرتي. وصلت إلى الدّير، فقالوا لي إنّه في خلوة. قلت: حسنًا، فقط، اجعلوا قصّاصة ورق لديه قولوا له فيها إنّي أسأله الصّلاة. فمرّروا ورقة من تحت الباب وأعلموه بذلك. فما كان منه إلاّ أن فتح الباب وطلب من أحد الرّهبان أن يصعد بالزّائر إليه. فلمّا حضر ذاك الأخ أمامه، بادره، بعد أخذ بركته: آسف، يا أبانا، أنّي قطعت عليك خلوتك!. فأجابه الأب الياس: أنت لم تفعل، يا بنيّ، لأنّي أنا في خلوة في حضورك أيضًا!. هذا كلام كبير!. كان الأب الياس يسعى لأن يحمل خلوته في صدره، سواء حدث أن كان بين النّاس أم على انفراد!.

لَعَمري، الأب الياس، في رهبنته، كان السّيّدُ قِبلتَه، في كلّ أمر. الرّبّ يسوع كان حاضرًا، في آن، لدى أبيه وبين النّاس!. هذه حاجة الرّاهب الحقّ، في الكنيسة، لا سيّما في الزّمن الصّعب! كان الأب الياس يعي أنّه ليس لنفسه بل للكنيسة، والكنيسة موجوعة وبحاجة لا فقط إلى خدّام، بل إلى خدّام من فوق يحفظون الوِصال بربّهم، ويبذلون أنفسهم، في آن، من أجل العالم، ويشكّلون معًا نماذج تُحتذى، على غرار بولس الرّسول الّذي تكلّم على هذا النّحو: كونوا مقتدين بي كما أنا أيضًا بالمسيح!.

وما كان همّ الأب الياس مقتصرًا على أبناء الكنيسة الأرثوذكسيّة

وحدهم. هؤلاء، طبعًا، كان لهم موقعهم الخاصّ لديه. لكنّه كان مقتنعًا تمامًا أنّ رجل اللّه، أو قُل صورة رجل اللّه، هو أنّه رجل للّه، والخلق كلّهم عيال اللّه!. ليس لابن الإنسان مكان يسند إليه رأسه، ليس فقط لأنّه من الآب أتى وإلى الآب توقه لأن يذهب، بل لأنّه ليس لإسرائيل وحدها جاء، بل للسّامرة كذلك، وللرّومان، والشّعوب، والأمم، إلى أقصى الأرض!. "ولي صبغة أصطبغها وكيف أنحصر حتّى تُكمَل؟"(لو١٢: ٥).

حنان الأب الياس في تعامله مع العامل أبو أحمد وعائلته، العاملين في الدّير، لم يختلف في شيء عن حنانه بإزاء أحد الخاصّة لديه! في المسيح، أنت لا تتعاطى الأمور باسم المسيح فقط، بل أوّلاً بروح المسيح!. نجاسة الرّومان في عين اليهود لم تمنع الرّبّ يسوع من أن يشفي خادم قائد المئة، ويُكبِر إيمانه كما لم يُكبر إيمان أحد في إسرائيل!. وغربة الكنعانيّين عن اليهود، واحتقار هؤلاء لأولئك، لم يمنعا الرّبّ يسوع من أن يُخرج الشّياطين من ابنة المرأة الكنعانيّة، كما عظّم إيمانها تعظيمًا كبيرًا!. وإن بدا كأنّه حقّرها، عندما قال لها: ليس حسنًا أن يُلقى خبز البنين للكلاب، فما كان ذلك إلاّ ليكشف عمّا في روحها من اتّضاع، وحتّى يعي المتكبّرون من قومه أنّ المتّضعين وحدهم هم المقبولون عند ربّهم. أمّا المتكبّرون، فرجس لديه!. وماذا أقول عن المرأة السّامريّة، عند بئر يعقوب؟. لهذه المرأة الغريبة عن إسرائيل، الخاطئة سيرتُها، كشف لاهوته، ليعلّم شعبه أنّه إنّما جاء إلى الخطأة لا إلى المدّعين أنّهم أصحّاء وأبرارا!. ليست الخطيئة ما يمنع النّاس عن ربّهم،

بل البِرّ الذّاتيّ، الّذي هو الخطيئة بامتياز!...

للأب الياس، وحده السّيّد كان خطّ سيره!. كلّ رهبنة ونسك يعلق بشباك الأصول والقواعد والتّرتيبات دون روح التّوبة إلى الألفة والمودّة الإلهيّة، تخنق أصحابها والقادمين إليهم، ويضربها التّكلّس الكبير! إن لم تكن الرّهبنة لتحمل آلام الكنيسة فوق آلام أصحابها، فلا قيمة لها!. من أجلهم أقدّس ذاتي، لا من أجل ذاتي!.

في أوّل قدوم الأب الياس والإخوة إلى الدّير، وجدوا بين الأوراق المهجورة كرّاسًا خُطَّت على صفحته الأولى هذه الكلمات: هذا الدّير احترق لأنّ رهبانه كانوا بخلاء!.

البخل أن تُقفل حشاك عن اللّه وعباده!. هكذا، من اليوم الأوّل، تعلّم طالبو الرّهبنة في الدّير أنّ الطّريق هو أن يكونوا مبذولين بالكامل من أجل اللّه والقريب!. هذه هي الرّهبانيّة المكمَّلَة بروح الرّبّ!. هذه كانت رهبانيّة الأب الياس!...

... لتستمرّ القصّة...

الأحد ٢٤ تشرين الثّاني ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٨)

عندما اسْتَعَرَتْ أزمة انفصال المطارنة الأربعة عن المجمع الأنطاكيّ المقدّس، وبدت الكنيسة في خطر الانشقاق، دخل الأب الياس ورهبان دير الحرف في الصّوم والصّلاة.

الصّوم والصّلاة، على سيرةٍ أمينة للّه ووصاياه، وعلى قلب خاشع متواضع، هما وسيلتا الاتّصال، بامتياز، بين الإنسان وربّه. اللّه هو السّميع المستجيب. "القلب الخاشع المتواضع لا يرذله اللّه". كلّ همّ، بين النّاس، هو همّ في العلاقة بين اللّه والنّاس أوّلاً. اختلال العلاقة بين اللّه والإنسان، شخصًا وشركةً، ينعكس اختلالاً على العلاقة بين النّاس، في ما بينهم، كائنةً ما كانت طبيعة أو نوعيّة هذا الاختلال!. ليس أنّ اللّه طرف في كلّ مشكلة بين اثنين أو أكثر، بل اللّه هو الطّرف الأساس، والطّرف الآخر هو النّاس، كجماعة وكأشخاص، كلاًّ على حدة. المشكلة، دائمًا، هي مع اللّه، والمشكلات بين النّاس هي نتيجة المشكلة مع اللّه!.

اللّه، من جهته، في كلّ حين، مستعدّ وقادر على كلّ شيء. أكثر من ذلك أنّ مفتاح كلّ مشكلة، مهما كانت كأداء، هو في يده، وفي يده وحده. أَصلِح ما بينك وبين اللّه، يصطلح ما بينك وبين العالم!. بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا!. ثمّ، ألم يخاطب إرمياء النّبيّ الرّبَّ الإله على هذا النّحو: "آه، أيّها السّيّد الرّبّ! ها إنّك قد صنعتَ السّموات والأرض بقوّتك العظيمة وبذراعك الممدودة، ولا يعثر عليك شيء" (٣٢: ١٧)؟. لكنّ ربّك لا يبادر إلاّ إذا صلّى إليه أخصّاؤه، أحبّاؤه، شهوده الأمناء له، ولو واحدًا!. هكذا دبّر!.

قديمًا، في سِفر التّكوين (٢٠)، مثلاً، كان أبيمالك ملكًا على جَرار. هذا أخذ سارةَ، زوجة إبراهيم، بعدما قال إنّها أخته. فجاء إليه اللّه في حلم اللّيل، وقال له إنّه موتًا يموت، هو وكلّ مَن له، إن لم يردّ المرأة لرجلها. فحاول أبيمالك أن يبرّر نفسه بأنّ رجل المرأة قال له إنّها أخته. إذًا، هو فعل ما فعله بسلامة قلبه. فأجابه الرّبّ الإله: قد علمتُ ذلك، وأنا أيضًا أمسكتك عن أن تُخطئ إليّ. لاحِظْه، قارئي العزيز، في ما يقول: تُخطئ إليّ. الخطيئة، كلّ خطيئة، في الحقيقة، في عمقها، ليست خطيئة ضدّ النّاس، وإن كانت خطيئةً ضدّهم، بل ضدّ اللّه أوّلاً!. وأردف اللّه: لذلك، لم أدعك تمسّها!. يسمح ربّك بالخطيئة أو لا يسمح بها، هذا متوقّف على نيّة القلب! الأثيم يُؤخَذ بخطيئته. أمّا المستقيم القلب، فيعفيه ربّه منها، بطرق هو يعلمها! والأهمّ، في الحوار، قول السّيّد الرّبّ لأبيمالك: "فالآن، رُدَّ امرأة الرّجل، فإنّه نبيّ، وهو يصلّي لأجلك فتحيا"! لا فقط ردّها! هذا لا يكفي! إذا كانت الخطيئة ضدّ

إنسان خطيئةً ضدّ اللّه، فاللّه لا يغفرها لك إلاّ بطلب من أخيك!. صَفْحُ ربّك، إذًا، يحتاج إلى أمر آخر هو رتّبه!. الحاجة، جعلها ربّك، إلى أنّ يصلّي قريبُك لأجلك، وإلاّ لا تحيا!. وردّ أبيمالك المرأة مع هدايا، بقرًا وغنمًا وعبيدًا وإماءً. "فصلّى إبراهيم إلى اللّه، فشفى اللّه أبيمالك وامرأته وجواريه، فولدن"، بعد أن أُمسكت أحشاؤهنّ، وضُرب القوم بالعقر.

من هنا أهمّيّة الصّوم والصّلاة، في كلّ حال، وبإزاء كلّ همّ، صلاة المتبتّلين الأبرار إلى اللّه!. "طلبة البارّ تقتدر كثيرًا في فعلها"!. هذا الأمر رسمه اللّه مفتاحًا لكلّ مشكلة بين النّاس، لأنّ ترتيب ربّك هو أنّ الإنسان بالإنسان يُصلَح!.

هذا والملمّات أزمنة اللّه بامتياز! حين يَلقى الإنسان نفسه في حال العجز بإزاء ما يحدث، فكأنّ ربّه يريد أن يأخذ أمره على عاتقه بالكامل!. فقط، على المرء، إذ ذاك، أن يسلم نفسه للّه ويسأله العون!. لكنّ ربّك لا يسمعك، إن سألته بلسانك وحسب! يتركك، أوّلاً، تعاني، لا لأنّه يحبّ الإيلام، بل لأنّك أنت مَن يحتاج إلى الألم، بمقدارٍ أو بآخر، هو عارف به، ليتحرّك قلبك، وليتسنّى لك، تاليًا، أن تصرخ إليه من الأعماق!. تَفَهُّ القول إنّ ربّك مُرسِلٌ الآلام للنّاس عقابًا لهم لأنّهم أخطأوا إليه!. خطيئتهم تعاقبهم!. أمّا هو، فيسمح بمثل هذا العقاب لأنّه يرى فيه إمكان شفاء لهم! لا يسمع ربّك صوت اللّسان! يسمع صوت القلب!. أما قرأتم: "إلى الرّبّ صرخت في ضيقي، فاستجاب لي"؟!.

ثمّ، لا يحسبنّ أحد أنّ الصّلاة هي لمَن نعرف وحسب، وأنّها محدودة بنا

وبخصوصيّاتنا! الصّلاة هي للعالم بأسره! هي لغة الوصال، في النّاس، بين اللّه والعالم! هذا لأنّه بالحبّ، وبالحبّ وحده، نعرف كلّ إنسان، ما دام أنّه بمحبّة اللّه كان كلّ إنسان!. في زمن القدّيس برصنوفيوس الغزّاوي، قيل عن ثلاثة أبرار، يبدو أنّه هو كان واحدًا منهم، إنّهم حفظوا العالم بأسره بصلاتهم!.

وفي شهادة لامرأة كولومبيّة اسمها غلوريا بولو أنّها قضت احتراقًا بصاعقة. وبعدما عبرت بالجحيم وعاينت الرّبّ يسوع، عادت إلى الحياة، خلافًا لكلّ التّوقّعات، وأُجريت لها عدّة عمليّات جراحيّة على مدى سنوات. وأخيرًا، استعادت عافيتها. هذه كشفت، في شهادة لها، أنّ الرّبّ الإله أعطاها، في رؤيا قلبها، أن ترى مزارعًا فقيرًا مغمورًا لم يسبق لها أن التقته، قال لها إنّها بصلاته، بخاصّة، أعطاها أن تعود إلى الحياة لتتوب وتشهد لما حدث لها!. هذا الفلاّح، بكلام الرّبّ يسوع: "أَحَبَّكِ لدرجة أنّه لم يعرفك"!. فإنّه، بترتيب اللّه، اشترى سكّرًا، من أحد المحالّ، لفّوه له بورقِ جريدةِ اليومِ التّالي لحدوث حادثة غلوريا بولو، الّتي احترقت في ٥- ٥- ١٩٩٥. وكانت في الجريدة صورتها، كلّها محروقة!. فجعل الفلاّح المسكين، بصورة عفويّة، يتضرّع إلى اللّه، وينتحب بحرقة عظيمة وهو يصرخ: "يا أبتاه! ارأف بأختي الصّغيرة هذه!. يا ربّ، نجّها...". ثمّ نذر أن يزور مقام السّيّد في بوغا، في القسم الجنوبيّ الغربيّ من كولومبيا، وهو الفقير المقيم في القسم الشّماليّ الشّرقيّ في سْيارا نيفادا دي سانتا مارتا!. يا له من إنسان جميل!. تجشّم مشاقّ عظيمةً محبّةً بأخت للمسيح لا يعرفها!.

كان الأب الياس يؤمن بقوّة الصّلاة، وطبعًا بالصّوم كمعين على الصّلاة، لمواجهة كلّ مشكلة في الكنيسة والعالم!. يعمل الإنسان ما يقدر عليه طبعًا. لكنّ الأزمات، لا سيّما الكبرى، تأتي من تعقيدات الخطايا وتداخلها، على مرّ الأيّام!. هذه لا باعَ للبشر على حلّها، مهما حاولوا! وسُذّجًا يكونون، من حيث لا يعلمون، متى حسبوا أنّ البشر، بالخطط والدّراسات، يواجهون الهموم!. هذا لأنّ لبّ المشكلة، أنّى تكن، ليس فيها وحسب، كما على نحو موضوعيّ، ولا في الآخرين فقط، بل، أيضًا، في معظم الحالات، في الّذين يحاولون حلّ المشكلة، هم أنفسهم!.

"إذا كان أعمى يقود أعمى، يسقط كلاهما في حفرة"؛ فكيف للعقل أن يحلّ مشكلةً ناجمةً عن تعقيدات خطايا النّاس مجتمعةً؟!. في أحسن الحالات، ربّما يخفّف من حدّة بعض ظواهر المشكلة!. وفي معظم الحالات، يزيدها تفاقمًا!. كيف تحلّ مشكلة الجشع، مثلاً، بغرور العقل، أعني متى تحرّك العقل بقوّة الغرور؟!. الجشع مشكلة، لا شكّ في ذلك. لكنّ الغرور مشكلة أقسى منها بأشواط!. مَن تراه يحسب أنّ مشكلات النّاس تُحَلّ بتواضع القلب، بالاعتراف بالخطايا، بالصّبر، بالتّوبة... وصولاً إلى المحبّة الحق؟!. هذه جهالة، عند النّاس، بامتياز!. هذه عثرة حتّى بين أكثر مَن يحسبون أنفسهم مؤمنين باللّه!. ولكن، هذه، بالذّات، هي مفاتيح حلّ المشكلات بين النّاس!. لذلك، جعل ربّك الحلّ، أو كما نسمّيه نحن، في كنيسة المسيح، "الخلاص"، أقول جعله في عهدة هؤلاء المنبوذين، المعتَبَرين سِقطًا، وكأنّهم مخبولون، مجانين

باللّه!. هنا، نحتاج حتمًا إلى وقفة ضمير!. "ألم يجهّل اللّه حكمة هذا العالم؟" (١كورا: ٢٠). ألم يقل ربّك: "جهالة اللّه [أي ما يعتبره النّاس جهالةً] أحكم من النّاس، وضعف اللّه [أي ما يعتبره النّاس ضعفًا] أقوى من النّاس" (٢٥)؟.

في الظّروف القاسية، تعلّم الأب الياس، كأيقونة للإنسان الجديد، أن يسلم نفسه بالكامل للّه، في اضطرابه كإنسان!. أجل، الجدليّة الدّاخليّة بين الاضطراب والتّسليم، لدى كلّ إنسان، لا بدّ منها، إلى أن يأتي ابن آدم إلى التّسليم الكامل!. إذًا، بالخبرة يتعلّم المرء، أخيرًا، أن يفرح بذلك، وذلك بفرح هو، في الحقيقة، من فوق، فتصير الحالة الميؤوس منها، بشريًّا، بتدبير اللّه، مناسبةً للفرح الأكمل لديه، كما لتكتمل تهيئته للموت، الّذي هو المرحلة الأخيرة من سعي الإنسان إلى الحياة الحقّ! "في يديك أستودع روحي"! فكأنّك، متى بلغتَ العجز الكامل، تكون على وشك أن يتّخذك ربّك وما تواجهه بالكامل! هذه ذروة الإيمان، ابتغاءَ ذروة المحبّة، "لسرور المؤمنين"!.

مرّة، خُطف الأب الياس عند حاجز. إثر عودته، بدا متماسكًا، صامتًا. كان يترجّح بين اضطراب وثقة باللّه، على شكر له وللّذين عملوا على إطلاقه! هذه الحادثة، على الرّغم من أنّها هزّته، زادته تسليمًا فوق تسليم لربّه!. لا يسلمك ربّك إلى الأوجاع إلاّ للمنفعة!. رجلُ اللّه تزيده الآلام التصاقًا به، ورجلُ العالم انصرافًا عنه، إلى أن يعي هذا الأخير، في العمق، قصوره وعجزه. ساعتذاك، قد يعود، أو ييأس ويموت في خطيئة نفسه!.

ليس في قاموس مَن يحبّون اللّه ما هو من اليأس!. يدنو محبّ اللّه من

اليأس كما دنا بولس قبل أن يشطّط في مليطة!. لكنّ ربّك لا يدع رجلك تزلّ، ولا ينام حارسك!. هناك، أُخَيّ، ما هو منك، وهناك ما هو من ربّك!. في اليُسر، تعمل وِسعك بشكر للّٰه؛ وفي العسر، تتعلّم أن ترى ضعفك، وأن تسلم أمرك بفرح لربّك، وهو مدبّرك بأكثر ممّا تتوقّع أو تتصوّر، لأنّه يحبّك أكثر ممّا تحبّ نفسك!. لذلك، في ضعفك، أيضًا، تتعلّم أن تشكر وأكثر!. ولذلك، أيضًا، لسان حال حبيب اللّٰه، وهذا كان لسان حال الأب الياس: "أفتخر بالحريّ بضعفي لكي تحلّ عليّ قوّة المسيح"!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١ كانون الأوّل ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٢٩)

مرّات عديدة، أتيتُ على ذِكر دموع الأب الياس. يطيب لي، الآن، بنعمة اللّه وبركة الأب الياس، أن أسعى إلى الخوض في شيء من سرّ دموعه!.

من الدّموع ما هو من البشرة، أوّلاً. ثمّة ما هو من المشاعر والعواطف والانفعالات، وثمّة ما فيه نُبل، وثمّة ما فيه خسَّة!. تبكي، إن بكيت، حين تحزن، حين تتألّم، وتبكي حين تفرح وحين تتعزّى. كذلك، تبكي حين تغتاظ وإذا ما اعتراك الحسد، أحيانًا!. في هذه الأحوال وأمثالها، تبقى في حدود الإنسان، بين الرّفعة والضّعة!. في دموعك عكرُ القلب، وفيها طيب الطّويّة!.

لستُ على هذه أتكلّم!. أتكلّم على الدّموع الإلهيّة في البشرة!.

في ثلاث مناسبات، كما يشهد الإنجيل، يسوع بكى!. عند قبر لعازر بكى (يو١١: ٣٥). قبل ذلك، في الآية ٣٣، رأى مريمَ تبكي، واليهود الّذين جاؤوا معها يبكون!. للتوّ، لمّا بكى، قال اليهود: "انظروا كيف كان يحبّه" (٢٦)!.

عندما تعاين تَفَتُّتَ الأكباد، كيف لا يتحرّك قلبك؟! في رومية ١٢، تكلّم بولس الرّسول على مفاعيل المحبّة الّتي منها: "فرحًا مع الفرحين، وبكاء مع الباكين" (١٢: ١٥)!. كان لا بدّ للّه، في الجسد، من أن يبكي مع آدم المطرود من الفردوس!. "لا شيء يمكنه أن يعزّيني أبدًا"، صرخ آدم[٤٦]!. ما يؤكّد لا فقط أنّ اللّه تجسّد، بل، أيضًا، أنّه كان في حال البكاء في الرّوح، قبل أن يتأنّس. لذا، صار إنسانًا! فلمّا صار إنسانًا، شارك الإنسان في حرقته، لأنّ "المحبّة" هكذا ارتضى، وهكذا استلزمت مفاعيله! إن كنتَ تحبّ، فلا يمكنك إلاّ أن تبكي!

والمناسبة الثّانية، بكاء السّيّد على أورشليم (لو١٩: ٤١)، لأنّها لم تعرف ما لسلامها (٤٢)! بكى، لأنّه جاء ليردّ لها ما لخيرها. أمّا هي، فردّته عنها! "كم مرّة أردتُ أن أجمع أولادك، كما تجمع الدّجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا" (١٣: ٣٤)! "هوذا بيتكم يُترَك لكم خرابًا" (٣٥)! إسرائيلُ، كلُّ نفس! تأنّسَ لتكون لهم حياة وتكون لهم أوفر، لكنّ خاصَّته، كنموذج للعالم أجمع، "لمْ تقبَلْه"!. أبغضوه وصلبوه!. عثروا بحكمته!. لكنّه كان قد قال عنهم: "كلّ مبغضيّ يحبّون الموت"!. يطلبون الموت ويُصرّون عليه!. هوذا بيتكم يُترك لكم خرابًا!. بكى يسوع بكاء الأب، بصمت، على انصراف ابنه الشّاطر عنه إلى بلاد بعيدة!.

---

[٤٦] القدّيس سلوان الآثوسيّ، مراثي آدم في الفردوس، للأرشمندريت (قدّ.) صفروني سخاروف، ص ٤٨٣، بالعربيّة. نقلتها إلى العربيّة الأمّ مريم (زكّا)، طبعة ٢٠١٦.

والمناسبة الثّالثة هي حصيلة ما جرى في المناسبتَين الأُوليَين. آدم العتيق لم ينتهِ يوم أُخرج من عدن، بل يوم أَخرج السّيّدَ خارج المدينة ليُصلَب ويموت!. هذا آدم الجديد، "شِيلون" الموعود به (تك٤٩: ١٠) أنّ الشّعوب ستخضع له. هو الّذي ربط بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه، في دخوله الملكيّ إلى أورشليم، ليغسل بخمرِ دمِه لباسَه، بشريّتَه، وبدمِ العنب، لأنّه الكرمةُ والبشريّةَ الأغصانُ، أقول ليغسل بدم العنب العالَمين!. وقد اسودّت عينه من الخمر، لأنّه سَكِر من حبّ البشريّة حتّى الثّمالة، إذ بذل نفسه بالموت، لأنّه ليس حبّ أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبّائه! على هذا صارع وحيدًا في الجثسمانيّة، فيما كان الجميع نيامًا، حتّى صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض!. الدّموع، في حدّها الأقصى، أن يبكي كلّ الجسد دمًا، كعين، كمعين، من الكيان برمّته!. وحده انبرى كأسد وكلبوة، متّخذًا، في حشاه، البشريّةَ جمعاء، آدمَ جديدًا، ليقهر الخطيئة، ليطرد الحيّة!. مَن يحقّق المواعيد الإلهيّة؟! مَن هو مستحقّ أن يفتح السِّفر ويفكّ ختومه، عن يمين الجالس على العرش في الرّؤيا (٥)؟!. لم يستطع أحد، لا في السّماء ولا على الأرض، أن يفعل! فصار يوحنّا يبكي كثيرًا، إلى أن قال له أحد الشّيوخ: "لا تبكِ. هوذا قد غلب الأسد الّذي من سبط يهوذا، أصل داود" (٥:٥)!.

هو وحده الماسح عن كلّ وجه كلّ دمعة (رؤ٧: ١٧)!. إن لم تصر دموعنا من دموعه، فما المنفعة؟!. لا بدّ لنا، أوّلاً، من أن نئنّ ونتمخّض حتّى الدّم، إلى أن نُعتق من عبوديّة الفساد إلى حرّيّة مجد أولاد اللّه (رو٨: ٢٢، ٢١)!

هذا كلّه يأتي في أورشليم الجديدة، حيث "يمسح اللّه كلّ دمعة من عيونهم، والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزن، ولا صراخ، ولا وجع، في ما بعد" (رؤ٢١: ٤)! حتّى ذلك اليوم، دموعنا باقية مخاضًا إليه حتّى الدّم!. والأب الياس بكى دمًا!. نتوق إليه، إلى ملئه، ولا يكون لنا غير المذاق عربونًا!.

كيف أنساك، يا أبانا الياس، ومرّة بعد مرّة، مرّات، عاينتك دموعًا بلّوريّة تنساب على خدّيك، بهدأة من فوق، عودًا مغروسًا على مجاري المياه (مز١: ٣)، تحدّث عن ربّك، حزنًا بهيًّا! دموعك، أبانا، رجاءٌ من ربّك، ملؤه الفرح مسكوب في الأسى على نفسك والبشريّة، وملؤه السّلام منثور فيك وفي إنسانيّة مصرّة على اضطرابها وسأمها وخوائها حتّى الموت!. دموعك، يا أبانا، تحدّث عن شعورك العميق بترابيّتك؛ وما هي ما يوجعك، بل إلحاح خطيئتك فيك!. ويح لي، مَن ينقذني من جسد الموت هذا؟!. لا أستسلم، بل أُسلمك نفسي، ربّي، ودموعي شاهدة عليّ أنّي تائب إليك، بعدما توّبتني!. كيف آتي إليك، إن لم يكن بك؟!.

ودموعك، يا أبانا، تحدّث عن اتّحادك بالنّاس، كلّ النّاس، عن شموليّتك! فلأنّك إلى فوق، تصير أشواك العباد قاطبة أشواكك!. هذه قُبلة سيّدك، يطبعها على كيانك، أن تصير لكلّ إنسان، وجعه وجعك، وفرحه فرحك!. وأيّ وجع تنظر، يا أبانا؟!. أوجاعُ الدّنيا ليست بشيء!. أوجاع أهواء النّاس، الّتي ذقت وطأتها عليك وثقلها فيك، هي وحدها تضنيك!. "مَن يَعثر وأنا لا ألتهب" (بولس)؟!. همّك صار الخلاص، أوّلاً وأخيرًا!. بتّ تعرف، يا حبيب

المسيح، من أين أتيت وإلى أين تذهب! والخلاص يمرّ بوقوفك وقفة السّامريّ عند جراح مَن يأتيك أو تذهب إليه، وقد وقع في جبّ الأهواء اللّصوصيّة!. وكذا بسعيك، بلمسة الحبّ، في كلّ آن، إلى تطهير الجراح، أوّلاً، جراح الجسد والنّفس، بخمر تعبك ودمك الّذي من تعب سيّدك وخمرة دمه، وإلى تضميد تلك الجراح بزيت الرّحمة واللّطف والحنان! وهذا كان في جعبتك الكثير منه، وما نقصك استكملتَه بدموعك ليتولّى "السّامريّ الصّالح"، معلّمك، إيّاك وما تبقّى!

لا أشكّ أنّك كنت تشتهي ما اشتهاه إرميا النّبيّ، عندما رأى شعبه في الضّنك الشّديد، وأورشليم تُسلَم للخراب، بسبب خطاياها، حتّى لَتقول: "يا ليت رأسي ماء وعينيّ ينبوع ماء لأبكي، نهارًا وليلاً، قتلى بنت شعبي" (٩: ١)!. وحّدتَ نفسك بكلّ النّاس، لأنّك وحّدت نفسك بسيّدك! "أنا لحبيبي وحبيبي لي"!. أَتَذْكر ما كنتَ تقوله لي، في قراءتك للفصل الثّالث من نشيد الأنشاد؟. "في اللّيل، في فراشي، طلبتُ مَن تحبّه نفسي. طلبتُه فما وجدته". طفتَ، في الأسواق تَطلب مَن تحبّه نفسُك، فلم تجده، حتّى تجاوزتَ الحرس، الشّريعة!. إذ ذاك، وجدتَه، فأمسكتَه، ولم ترخه حتّى أدخلته بيتَ أمّك، قلبَك، روحَك، حشاك، حجرةَ مَن حبلَتْ بك!. هذا كلّه قالته دموعُك، يا حبيب المسيح!.

في نفسك، بروح ربّك، وحّدتَ نفسَك باللّه. لذا، لم يعد أحد غريبًا عنك! علّمتنا الكثير، يا أبانا! علّمتنا أنّ طريق الوحدة بين النّاس تمرّ بالدّموع! ما لا يتحرّك ويتحرّق قلبك من أجله، دموعًا، لا تعي قيمة الوحدة بينك وبينه!. تبقى في مستوى المزاج!. إذا كان معلّمك قد مات، وهو مات حقًّا

في الجسد، فلأنّ كلّ إنسان ثمين، ولا أثمن لديه!. هذا فهمتَه بروحك، هذا تعبتَ وِسع حياتك لتصير له أيقونةً، لتمدّه في جسدك!. ليتنا نتعلّم الصّمت والدّمع منك، يا أبانا!. هذه شكواي عنّي وعن النّاس إليك!. ما أكثر كلام التّفه لدينا في العالم! ليتنا ندرك بالرّوح، يا أبانا... وبالصّمت... هناك، في عمق الكيان، أنّه لا وحدة، لا في الكنيسة ولا في العالم، إلاّ بالدّموع!. أليس أنّه حيث لا دموع لا محبّة، وحيث لا محبّة هناك الجحيم، مهما تراءى فردوسيًّا؟!

علّمنا ختمك، يا أبانا، سرّ دموعك، لأنّنا في جفاف كثير ويباس!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٨ كانون الأوّل ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٣٠)

كان الأب الياس على حكمة فذّة. والحكمة الحقّ تأتي من المحبّة، وغرضها المحبّة. لا تلتمس الحكمةُ العدالةَ، بمعناها البشريّ. تلتمس البِرّ. لذلك، همّها البنيان!. جاء ابن اللّه إنسانًا، ليخلِّص ما قد هلك، ليبرِّر الفجّار بالإيمان والتّوبة! "كلّ خطيئة تُغفر لبني البشر...". البِرّ أن تصير مَرْضيًّا لدى ربّك "المحبّة"، تقتدي بعطاء زكّا بعد عشارته، وبمحبّة المرأة الخاطئة بعد زناها، وبدموع بطرس بعد جحوده، وبإيمان توما بعد شكّه! هذا لأنّه "يكون فرح في السّماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارًّا لا يحتاجون إلى توبة" (لو١٥: ٧)!. المحبّة تلغي العدالة!. ما كانت العدالة إلاّ لتبلِّغنا المحبّة؛ فإن بلغنا المحبّة، لم تعد هناك حاجة إلى العدالة!.

هذه كانت القاعدة الّتي كان الأب الياس ينطلق منها، في تعامله مع الّذين يتّخذونه أبًا روحيًّا لهم، ليَلِدهم في المسيح!. إن أخطأ إليك أخوك سبع مرّات

في اليوم، ورجع إليك سبع مرّات في اليوم قائلاً: أنا تائب، فاغفر له (لو٧: ٤)!.

كاهنٌ، مرّة، على ما أخبرني، سقط في تجربتين قاسيتين، خلال يومين؛ فاضطرب اضطرابًا شديدًا! دُعي إلى عشاء فاخر، فعثر، وأدان أصحاب الدّعوة، ولم يستطع أن يأكل شيئًا، لأنّه ذكر الفقراء فلم يستطع احتمال البذخ بإزائهم، وخرج يضرب أخماسًا بأسداس!. وفي اليوم التّالي، إذ كان يعمل في وظيفته، لأنّه كانت له وظيفة مدنيّة، أصرّ عليه زملاؤه أن يشاركهم لعب "الورق" بِرِهان؛ فخسر معاشه، الّذي كان قد قبضه في ذلك النّهار، واستبدّ به شعور بالغيظ والقرف، لا سيّما أنّه نادرًا ما كان يقامر!. وإذ شعر، في اليوم التّالي، بحاجة إلى معونة روحيّة، صعد إلى دير الحرف ليرى الأب الياس!.

دقّ جرس الباب الحديديّ الأسود، فإذا بالباب، عند نقرة كهربائيّة من الدّاخل، ينفتح غَلَقُه. وإذ دفع الكاهن درفة الباب ودخل، رأى، في أعلى الدّرجات الثّلاث، داخل القنطرة المقابلة، الأبَ الياس، واقفًا يستطلع مَن الآتي. كان الكاهن متجهّمًا، على صمت مريب، على غير عادته، في كلّ طلّة سابقة، أن يكون منفرج الأسارير، على صوتٍ مرتفع بَهِجٍ لمطالعة وجه الأب الياس!. فأدرك الأب الياس أنّ ضيقًا صعبًا لا بدّ من أن يكون قد اعتور نفْسَ الآتي إليه، فتركه يتقدّم منه. كان المشهد، إلى الأب الياس والكاهن، للدّاخل، هناك، إلى اليسار، مشهدَ حديقة أشجار الدّرّاق والشّجيرات والورود والأزاهير الّتي جرى تقليمها، والأغصان المقلّمة تملأ المكان. وكان الأب الياس، بغمباز

العمل، يعمل على لملمتها ونقلها إلى مكان آخر. وما إن بلغ القادمُ الأبَ الياس حتّى بادره هذا الأخير: أما تساعدني في لملمة هذه الغُصينات؟. فأجاب الكاهن بحدّة وللتّوّ: لستُ في هذا الوارد، الآن، ولا أستطيع!. فأردف الأب الياس: ساعدني، الآن، وبعد ذلك نتكلّم!. أما تساعد راهبًا مُسنًّا تَعِبًا؟. لمستْ هذه اللّهجةُ قلبَ الكاهن، فقال نصفَ مبتسم: حسنًا، كما تشاء!.

أخذ الإثنان في العمل، في صمت ثقيل، وصاحبُنا متكدِّر!. لا الكاهن نبس بكلمة، إذ أراد أن يوحي بأنّه متضايق جدًّا، وكان متضايقًا فعلاً، ولا الأب الياس حَكم بأنّه من الموافق له أن يقتحم صمت الرّجل!. استمرّ العمل بعض الوقت، ثمّ دَلَفَ من الصّمت سؤالٌ هنا وسؤال هناك: ماذا أفعل بهذه؟. أين أضع تلك؟ لا شكّ أنّ الأب الياس، في مقابل انقباض نفس الكاهن وتلوّيه في مرارته، كان يصلّي من أجله! ثمّ، في لحظة، بدأ جليد لهجة الكاهن ينحلّ، وأخذ بعض الكلام ينساب لديه، كما من هدأة في نفسه شرعت تعتوره!. وإذ بدا للأب الياس أنّ ضبابًا، في طويّة الرّجل، أخذ ينقشع، قال له: يكفي هذا القدْر من العمل الآن!

- ولكنْ، أمامنا عمل كثير، بعد!

- لا همّ!. لقد تعبتُ!. هيّا بنا إلى الدّاخل!.

على هذا، غسلا أيديهما في المغسل المحاذي لغرفة الجلوس القديمة!. وإذ دخلاها، توجّه الأب الياس إلى الزّاوية الّتي وُضعت فيها لافتة صغيرة

نقول: "الرّجاء الامتناع عن التّدخين"، وأدارها في الاتّجاه المقابل!. ثمّ قال لضيفه: الآن، بات بإمكانك أن تدخّن سيجارتك!

- ولكنْ، أليس التّدخين ممنوعًا هنا، يا أبانا؟

- أجل، للعموم! ولكنْ، السّبت للإنسان، يا بنيّ، وليس الإنسان للسّبت!

عند هذا الحدّ، وبعد نفختين أو ثلاث من السّيجارة، بات الكاهن في وضعٍ، لا فقط مَن يستطيع أن يتكلّم، بل، بالأولى، مَن يريد أن يتكلّم وينفّس عن مكنونات قلبه!.

وروى الكاهن للأب الياس ما حدث له البارحة وما قبل البارحة، والأب الياس يسمع ولا يقاطع محدّثه بكلمة! الأب الياس سمّاع كبير! تركه يُفرغ ما في جعبته على سجيّته، وهو يُصغي إليه بلطف وهدوء وانتباه كثير! فلمّا انتهى الكاهن من الكلام، سأله الأب الياس: أأنت معتاد على المقامرة، يا بنيّ؟

- كلاّ، أبدًا، يا أبانا!. على العكس، أنا أكره لعب القمار!. لذلك، أكره نفسي، لأنّي وقعتُ في ما لا تحبّه نفسي!

- لا بأس عليك، إذًا، يا حبيبي!. اعتبرها مجرّد تجربة تعلّمك الاتّضاع، وأن تكون أكثر انتباهًا لنفسك في المستقبل، وأن تحاذر مسايرة الآخرين في ما هو للإثم!. ثمّ التّجربة، يا أخي، يَسمح بها اللّه للمنفعة!. يكفيك أن تقول، من قلبك "سامحني، يا معلّم"، وتعترف بخطيئتك، فيسامحك!.

ثمّ، المائدة الّتي دُعيتَ إليها، أأنت مَن صنعها؟

- طبعًا لا!

- إذًا، لا بأس عليك!. جيّد أن تتحسَّس جوع الفقراء وحاجتهم متى تناولت الطّعام، لا سيّما الأطايب!. ولكنْ، يا أخي، "كلوا ممّا يُقدَّم لكم"، بشكران!. مَن دعاك بحاجة، أيضًا، إلى محبّتك ودُعاك، أكثر ممّا هو بحاجة إلى اللّوم والتّذمّر!. الفقراء بحاجة إلى بنيان والأغنياء، أيضًا!. وهذا ليس مدعاة إلى الفكر النّاقد بقدر ما هو مدعاة إلى الصّلاة بوجع: من أجل الفقير، لكيما، بلطف المقتدرين والصّلاة، يتعزّى؛ ومن أجل الغنيّ، لكيما يفتح الرّبّ الإله قلبه على عمل الرّحمة، ويحسب الفقيرَ شريكًا له في النِّعَم الأرضيّة، فيتسنّى له، إذ ذاك، أن يحظى بالنِّعم الإلهيّة الّتي يُفيضها الرّبّ الإله على الّذين يكرمونه في فقرائه والمتّكلين عليه!.

على هذا، يا بنيّ، لا تحزن!. خفِّف عنك!. لا تيأس!. من دون تجارب، لا أحد يخلص! التّجربة الّتي توجع، في نهاية المطاف، مَن يحبّون اللّه، تنفعهم! تعالَ أُعطيك الحلّ من الخطايا، وابدأ من جديد!. وجعل الأب الياس يده والبطرشيل على رأس صاحبنا، وحلّه، بنعمة اللّه، من خطاياه، فعاد إلى بيته فرحًا متهلِّلاً، ودموعُ الشّكران في عينيه!.

هذا هو الأب الياس!. لم يدفع أحدًا، يومًا، إلى اليأس!. كثيرًا ما سمعناه يردّد القول: خطايا البشريّة كقبضة رمل تُلقى في أوقيانوس محبّة اللّه!. اليأس

ممنوع!. لا بل اليأس، في العمق، هو الخطيئة الوحيدة الكامنة في جذر كلّ الخطايا، لأنّها تنفي الإيمان بالرّبّ يسوع المسيح!. وحيث لا إيمان، لا خلاص! في مقابل اليأس، عندنا الرّجاء، ولا نقول الأمل!. الأمل من الجسد!. الرّجاء من الرّوح! لذا، الجسد لا ينفع شيئًا، والرّجاء باللّه لا يُخزي! "ارأفوا بالخطأة"، على قولة القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلان!. الخطيئة من ذات اليمين، حين يؤخذ النّاس بِزَهْوِهِمْ بأنفسهم، وحبّهم لذواتهم، وانتفاخهم، ولو كانوا في قلب الكنيسة؛ وكذا الخطيئة من ذات اليسار، متى كفروا بربّهم، وألغوه، وسيَّدوا أنفسهم على الدّنيا، لا فقط تأتي من ضلال في الفكر، بل، بالأولى، من كون أنّهم لم يَنعموا بمحبّة مَن يحبّهم بمحبّة اللّه!. وهم يزدادون، في مواقعهم، قسوة وتشدّدًا، لأن لهم، في المقابل، مَن يزداد قسوة في الحكم عليهم، وتشدّدًا في إدانتهم!. ولو كان، ولو واحد، في أقصى الأرض، يصلّي لهم من قلب موجوع بدموع، ولو لم يعرفهم في البَشَرة، لكان الرّبّ الإله يعطي المتقسِّين في الخطيئة رقّة قلب ورفقًا من عنده، من فوق، بفعل تلك المحبّة، إذ لا يمكن وهج الصّلاة في المسيح أن يخبو حتّى ينير القابعين في الظّلمة وظلال الموت، ليخرجوا إلى نور ربّهم الوضّاء!.

هكذا، نما الأب الياس، في حياته، بالصّليب، في الرّأفة والحنان وإشاعة الفرح، ليُعين الآخرين على التّوبة والرّجاء والعزاء! كانوا يأتون إليه بأتعابهم، وكان همّه أن يريحهم لأنّه أحبّهم!. تعالوا إليّ، يا جميع المتعَبين والثّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم! ليست خطيئة بلا مغفرة، إلاّ الّتي بلا توبة! اذهبي ولا

تخطئي، بعد! اللّه يشاء أنّ الجميع يخلصون وإلى معرفة الحقّ يُقبلون! لكي تعلموا أنّ لابن الإنسان سلطانًا أن يغفر الخطايا، قال للمفلوج: قم احمل سريرك واذهب إلى بيتك!. فقام وحمل سريره ومضى إلى بيته!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ١٥ كانون الأوّل ٢٠١٩

الأب الياس يتوسّط بعض الشّباب الحركيّ

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
(٣١)

إنسان هذه الأيّام ثائر، في قرارة نفسه، بامتياز!. ثائر على كلّ شيء!. في كلّ مكان!. وثائر، بخاصّة، على كلّ الأنظمة الّتي لم تتعدَّ، في عمقها، حيّز الشّعارات، بل ألقت البشريّةَ في عبوديّات أقسى من ذي قبل!. كلّ ثورة اندلعت، في التّاريخ، أو تكاد، ما لبثت أن تبلّد رموزها، ونهجت نهج مَن ثارت عليه، تسلّطًا، وقمعًا، وظلمًا، واستغلالاً، لتخدم الخاصّةَ فيها، ما أدّى ويؤدّي إلى قيام ثورة جديدة على الأسس نفسها الّتي قامت عليها سابقتها، ثمّ انحلّت وتنحلّ لتندرج في مصافّ دركات "المنحلّين"، الفاسدين المُفسِدين!. ولكن، أثمّة ما يميّز ثورة هذه الأيّام عن سابقتها؟.

يقولون إنّ وعي القائمين بها، اليوم، أشدّ من وعي الّذين سبقوهم. أصحيح هذا الأمر؟. لا أظنّ!. لا قياس عندي، في هذا الشّأن، في كلّ حال!. يقولون إنّ شعاراتها، في العمق، غير ما كانت عليها شعارات ثورة الأمس. أصحيح هذا الأمر؟. ربّما في الشّكل!. يقولون إنّ فيها عناصر ممتازة، مثقّفة، واعية.

لكلّ ثورة عناصرها الممتازة، إنّما فيها، دائمًا، عناصر فاسدة، نفعيّة، مندسَّة، مستغِلّة، أيضًا!. ولكن، أثمّة مَن يجيبني: لِمَ، في نهاية المطاف، يبذل الطّيّبون أعراقهم ودماءهم، زرعًا، ولا يتغيّر شيء، ولا يحصد غيرُ الّذين لا يلبثون أن يتحوّلوا إلى طغاة ولا مبالين، وقد كانوا، بالأمس، في عداد الثّورة؟!.

نادرًا ما تجد، في التّاريخ، مَن جعل كرسيّه وماله في خدمة النّاس وسُؤْدُدِهم! العكس، لدى الأغلبيّة السّاحقة، كان ولا يزال القاعدة! كلّ ثورة، في التّاريخ، في أعين أصحابها، على جِدَّةٍ، وهي غير سابقاتها، ثمّ تستبين الأمور سيّانًا وكأنّ الثّائرين الجُدد، لحماسهم، تضعف ذاكرتهم أو لا يعلمون!. الثّورات، في الواقع المؤسف، مآلها أبدًا أن يُضحّى بالفقراء الطّيّبين، كما من أجل وعد جديد، ليبلِّغوا متسلِّطين وأغنياء جددًا، وكأنّهم في حلّة جديدة، إلى تبوّؤ الكراسي، إلى أن يخبو الحلم ويخيب، وينبت، من الإحباط، حلم جديد وثورة جديدة، لتُعاد الكَرَّةُ إلى ما لا طائل تحته من جديد! "لا جديد تحت الشّمس" (جامعة)! "الأجنّة دنت إلى الولادة ولا قوّة لها على الإيلاد" (إشع٣٧)!. ثورات هذا العالم تولَد من خيبة، وتؤول إلى خيبة، وإن كان الكثيرون يتوقّفون عند حدود غواية الحلم، حلم التّغيير الكبير، وكفاهم!.

هذا ليس من قبيل التّيئيس!. هذا لأنّه لا مدينة فاضلة في هذا العالم!. ولا "يوتوبيا" إلاّ وهمًا! وهذا ليس لأنّ البشريّة لم تصل، بعد، إلى النّظام السّياسيّ الأمثل لها، بل لأنّ البشريّة لم تصل، بعد، إلى "الإنسان الجديد"!. وجدان الإنسان مضروب. لذا، معظم ما يأتيه، فرادًا وجماعات، معطوب ومعيوب!.

هذا يجعل ويؤكّد أنّ الثّورة الوحيدة القابلة للنّجاح، بنعمة اللّه، هي الثّورة على النّفس!.

لا القانون ولا توفير القوّة الرّادعة، الّتي تؤمّن تنفيذ القانون، يضمنان العدالة في المجتمع، ما دام أنّ "تصوّر قلب الإنسان شرّير منذ حداثته" (تك٨: ٢١)!. القانون، أصلاً، للتّعريف بالمخالفة وضبطها؛ فكيف، وزماننا على ما هو عليه، نحلم بالعدالة، ما دام القانون، اليوم، مائلاً إلى حماية ما كان بالأمس مخالَفةً وضدًّا لطبيعة الإنسان وناموس اللّه؟!. هذا في البلدان الموصَّفَة متقدّمةً ومتطوّرةً. وكيف، حتّى في زماننا، في البلدان المعتبَرَة نامية، بخاصّة، والقوانين تُسَنّ لخدمة المتسلِّطين والأغنياء أوّلاً؟!. وأيّ ضبط عادل موضوعيّ متجرِّد تتوقّعه من المتنفِّذين الّذين تعرف، سلفًا، أنّ المناصب تغويهم، وكذا المكاسب، وبيسر يسخّرون ضمائرهم من أجلها؟!.

حتّى لو سلّمنا جدلاً بإمكان حسن تنفيذ القوانين، وأن يكون المُقامون على تنفيذ ذلك أشباهَ قدّيسين، فمَن يقينا احتيالات النّاس، الّتي لا تقف عند حدّ، على القانون؟!. أخيرًا وليس آخرًا، أيّ مناخ يحكم العلاقات بين النّاس، ولو استتبّت عدالة القانون، وهذا مثاليّ وغير واقعيّ؟ أن يصير كلٌّ وحده؟!. أن يتحوّل المجتمع إلى جزر كيانيّة؟!. أن يسود الجفاف بين النّاس؟!. أن يعمّ التّصحّر الإنسانيّ؟!. أن تستشري اللاّمبالاة بالآخرين في حدود القانون؟!. أن يتكرّس مجتمع يستعيض فيه النّاس عن بعضهم البعض بالحيوانات، لا سيّما بالقطط والكلاب؟!. أن يصير المعيار تعاطي غسل أدمغة النّاس ودفعهم إلى

اعتبار بعضهم بعضًا جحيمًا؟!.

الكائن المقَنَّن، في نهاية المطاف، إنسان مِسخ!. لا شيء يعوّض عن إنسان المحبّة، وإلاّ لا يكون هناك إنسان، بل شبه آلة!. وهذا - إنسان المحبّة - لا يُضبَط، لا بقانون ولا من خارج الإنسان! هذا لا يكون إلاّ بضبط ذاتيّ!. من هنا الحاجة إلى إنسان جديد، وإلى وجدان جديد!. هذا نموذجه الرّبّ يسوع المسيح، ابن الإنسان، الإنسان الجديد، آدم الجديد، الّذي كلامه يطابق سيرته! "تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب"! وهذا مبتغاه: وصيّة جديدة أعطيكم: أن يحبّ بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم!. وهذا لا يتحقّق إلاّ بالضّبط الذّاتيّ، على طريقة الرّسول بولس الّذي قال: "كلّ مَن يجاهد يضبط نفسه في كلّ شيء... لذلك، أقمع جسدي وأستعبده حتّى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضًا" (١كور٩: ٢٥، ٢٧)!.

حاجتنا، في هذا الجهاد، هي، أوّلاً، إلى نعمة اللّه. "لا يقدر أحد أن يُقبِل إليّ، إن لم يجتذبه الآب الّذي أرسلني..." (يو٦: ٤٤)!. وهذا مُعطًى لكلّ واحد من دون استثناء، لأنّ "اللّه يريد أنّ جميع النّاس يخلصون وإلى معرفة الحقّ يُقبلون" (١تيمو٢: ٤).

وحاجتنا، ثانيًا، هي إلى الرّغبة الكيانيّة الثّابتة، العميقة فينا، في أن نصير جُددًا!. "ليكن لي بحسب قولك" (لو١: ٣٨)، على ما أجابت مريم، الصّائرة حوّاء جديدة، رئيسَ الملائكة جبرائيل، عندما جاءها مبشِّرًا بحلول الرّوح القدس عليها وحبلها بالرّبّ يسوع!.

وحاجتنا، ثالثًا، هي إلى اعتماد الفقر سيرةً، على غرار المعلّم!. "ليس لابن الإنسان أين يسند رأسه" (لو٩: ٥٨)!. ليس هذا لأنّه لم يكن ليسوع مكان يمكث فيه (يو١: ٣٨- ٣٩)، بل لأنّه كان فعلاً كالعصافير، هكذا في روحه، تلك الّتي ذكرها لمّا قال: "لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون... انظروا إلى طيور السّماء، إنّها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السّماويّ يقوتها... لكن، اطلبوا أوّلاً ملكوت اللّه وبرّه، وهذه كلّها تُزاد لكم" (متّى ٦: ٢٥، ٢٦، ٣٣)! هذا موقف روحيّ عميق، يتيح للإنسان أن يكون حرًّا من كلّ همّ دنيويّ، ولو تعاطى الدّنيويّات!. يتعاطاها، إذ ذاك، في مستوى الحاجة، لأنّه إنسان، ولا يتعاطاها في مستوى التّعلّق والهمّ!. "محبّة المال - أي تمامًا التّعلّق وهمّ المال - أصل لكلّ الشّرور" (١تيمو٦: ١٠)!. "أريدكم أن تكونوا بلا همّ" (١كور٧: ٣٢)!.

وحاجتنا، رابعًا، هي إلى العفّة! هذا لكلّ المؤمنين بالرّبّ يسوع، وليس للرّهبان فقط، ككلّ شأن روحيّ!. الفقر، في السّياق أعلاه، هو فقر في ما للجسد؛ أمّا العفّة، فهي الفقر في ما لأهواء النّفس... في الجسد! الفقر والعفّة، في هذا السّياق، لا ينفصمان، بل يطالان معًا، وكواحد، الإنسان كلّه!. الفقر، كتحرّر من هوى القنية، ومن ثمّ تفعيل الإيمان بالرّبّ يسوع من حيث هو "الثّقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى" (عب١١: ١)، أقول الفقر، هنا، يزدوج بهاجس التّنقّي والتّحرّر من كلّ هوى يطال كلّ عضو من أعضاء الجسد، منفردًا أو مجتمعًا إلى غيره: مثل ذلك تحرّرُ البطنِ والحلقِ، وسواهما، من هوى

الشّراهة؛ والعينِ والأذنِ واللّمسِ، وسواها، من هوى الزّنى؛ واللّسانِ من الثّرثرة والكلام القبيح؛ واليدِ من البخل؛ والرِّجلِ من السّعي إلى الأفعال الذّميمة؛ وهكذا دواليك. وعلى صعيد آخر، تحرير الذّهن من كلّ فكر شرود، ونيّة سيّئة، ونزعة آثمة، وذلك بالوعي والانتباه والصّلاة والانكسار...

في شأن كلّ عمل، في هذا السّياق، يوضح القدّيس صفروني الآثوسيّ أنّ طريق الخلاص، أي طريق "الإنسان الجديد"، يتمثّل في إتمام كلّ عمل، مهما كان بسيطًا، بلا هوى، في الصّلاة!. أقول، "في الصّلاة"، لأنّه لا عمل إلهيّ يتمّ من دون صلاة. الصّلاة هي العطيّة الكبرى، الّتي مَنَّ بها ربّنا علينا كي يصلنا به، جاعلاً من كلّ عمل نؤدّيه عملاً إلهيًّا، وسلكًا كهربيًّا يمرّر به لنا نعمته القدّوسة!. من دون صلاة، أي من دون انشداد الذّهن إلى اللّه، يبقى كلّ ما نأتيه من تراب الأرض، لا قيمة له!. كذلك، من دون صلاة، لا تنسكب علينا بركة العليّ لتقدّس ما نفعله وتُكملَه، ليصير تقدمةً للّه وذبيحة!. كلّ ما في الأرض كان، بالخلق، عطيّةَ محبّة من لدن اللّه، ليصير، بصلاتنا إليه، تقدمةَ قلوبنا وذبيحةَ شفاهنا، محبّةً وشكرًا لديه عن ذواتنا والعالم بأسره!. كلٌّ منّا، أمام اللّه، كاهنُ الوجود!. محبّةٌ تستدعي محبّةً، ولجّةٌ (لجّة قلب) تنادي لجّة! "الّتي لك ممّا لك نقدّمها لك على كلّ شيء ومن جهة كلّ شيء"! ذروةُ خلق اللّه لنا تجسّدُه من أجلنا!. أفرغ نفسه، آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه النّاس، لنفرغ أنفسنا آخذين، بالعبادة، صورة عبيد، لنصير في شبه اللّه!.

وحاجتنا، خامسًا، هي إلى الطّاعة، طاعة اللّه في مدبّرينا وفي أحدنا الآخر،

لأنّ روح اللّه ساكن فينا!. كلّ ذلك لأنّ الفقر هو للحرّيّة، والحرّيّة للتّنقّي، والتّنقّي للطّاعة، والطّاعة للصّبر، والصّبر للاتّضاع، والاتّضاع للمحبّة! بالاتّضاع، أخيرًا، نشابه اللّه، لأنّ المحبّة بطبيعتها متّضعة!. "تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب"!. وبمشابهة اللّه بالاتّضاع، ندخل في علاقة تَناضُحٍ مع اللّه!. أمّا ابن اللّه، فقد صار، بالتّناضح، ابن الإنسان؛ ليصير الإنسان، بالتّناضح، ابن اللّه!. "أمّا كلّ الّذين قبلوه، فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد اللّه، أي المؤمنون باسمه، الّذين وُلدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من اللّه" (يوا: ١٢- ١٣)!.

هكذا، يولَد كلّ إنسان جديدًا على مثال المولود الجديد اليوم!.

بيت لحم، اليوم، تشهد لولادة المولود، الّذي صار لنا آدم جديدًا، لذرّيّة روحيّة جديدة!. في غفلة عن العالم، في مغارة مظلمة، في مذود البهائم، حيث لا كرامة للإنسان، ناهيك عن الإله!. في فقرٍ، في غربةٍ، في ضعفٍ، في عناء!. لم تكن تلك السّاعة خالية من البكاء والألم!. ميلاده كان في شتاء، ولا ما يمنع أن يكون ما قاله لتلاميذه، في ما بعد، "صلّوا لكي لا يكون هربكم في شتاء" (مر١٣: ١٨)، ترجيعًا لِما انطبع في وجدانه من ذلك اليوم!. وهذا يعني أنّ على مَن يروم أن يصير إنسانًا جديدًا، طالبًا ربيعَ الحياةِ الجديدة، أن يعبر، أوّلاً، بشتاء العلاقات البشريّة الباردة، وما يتخلّلها من قسوة الإنسان على الإنسان، في قلّة صدقه، وفقر رحمته، وقسوة قلبه، ولامبالاته بالمظلومين، ومكابدته الأوجاع والآلام أعزلَ، وقلّما يتيسّر له مَن يسأل عنه، أو يبالي به،

أو يشعر بضيقاته!.

هذه، وسواها من معاناة، لم تكن جزافًا، ولا سمح ويسمح بها العليّ تخلّيًا منه عن الإنسان، أو لأنّه يهوى قهر الإنسان!. كلاّ، أبدًا!. هذا مخاض نظير مخاض الحامل في وضعها!. اليوم، يخفون بالتّخدير كلّ ألم، لأنّ كلّ ألم في النّاس مقيت!. عند ربّك، شأنُ الخلاصِ آخر!. "بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت السّموات" (أع١٤: ٢٢)!. "إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه، كلّ يوم، ويتبعني" (لو٩: ٢٣)!.

من الألم ما تفرضه على ذاتك بالنّسك، ومنه ما يفرضه ضعف جسدك وظلم النّاس لك عليك بسماحٍ من اللّه، وبمقدارٍ يكون نافعًا لك للخلاص، بضبطٍ من فوق!. هذا لا مناص منه ولا مهرب، لأنّ الخطيئة الّتي دخلت حياة الإنسان، وهو معافى في الفردوس، لا تخرج منه، وهو مريض، في سقوطه، إلاّ بالوجع!. لذا، كان قول الرّبّ الإله لحوّاء: "تكثيرًا أكثّر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا"!. ولذا، بدءًا، كان الصّليب وجعًا يتمخّض عن فرح!. "المرأة، وهي تلد، تحزن، لأنّ ساعتها قد جاءت. ولكن، متى ولدت الطّفل، لا تعود تذكر الشّدّة لسبب الفرح، لأنّه قد وُلد إنسان في العالم" (يو١٦: ٢١)!. من التّعب والوجع ما لا يُجدي، ومنه ما يُجدي!. يهوذا الإسخريوطيّ تعب أنانيًّا من أجل نفسه، فآل تعبه إلى الشّنق، إذ أسلم نفسه إلى اليأس؛ وبطرس تعب من أجل نفسه عن ضعف، في غير اتّجاه، فآل تعبه إلى الخلاص، إذ أسلم نفسه للتّوبة والبكاء بكاء مرًّا!.

الظّلم باق في الأرض إلى ذلك اليوم، وكذلك الفقر! لذا، جيّد أن نحتجّ على الظّلم بالكلمة والموقف، حيثما أمكن، إنّما ليس بالعنف!. أوّلاً، لأنّ الوصيّة هي "لا تجازوا أحداً عن شرّ بشرّ، معتنين بأمور حسنة قدّام جميع النّاس... لا يغلبنّك الشّرّ، بل اغلب الشّرّ بالخير" (رو١٢: ١٧، ٢١)!. وثانيًا، لأنّ مَن يأخذون بالسّيف بالسّيف يهلكون (متّى ٢٦: ٥٢)!. أمّا الفقر، فدواؤه، ما استطعتَ، بشقّ رغيفك للفقير!. أعطه نصفه واحتفظ بالباقي!. وإن تحرّك قلبك أسًى عليه، واندفعتَ بكلّ شهامة لتعطيه كلّ ما عندك، كلّ معيشتك، كمثل الأرملة الّتي ألقت بفلسَين في صندوق العطايا، فلا تبالَينَّ، ولا تخافنَّ على نفسك!. فإنّ الوقت لن يطول حتّى تُمطر السّماء عليك وعلى غيرك، من جرّاء فعلتك، بركاتٍ لا حدّ لها ولا عدّ. تقول: هذا لا يغيّر وجه الأرض؟. ليس مُعطًى لنا، يا حبيبي، حتّى ذلك اليوم، أن يتغيّر وجه الأرض!. في انتظار ذلك، حسبُنا أن ننشر، بالشّهادة، عبير ملكوت السّموات في الأرض، متى حلّت محبّة اللّه، وسكن روح اللّه فينا!. وفقط، متى سكنت محبّته فينا، عرفنا أن نميّز ما بين الخاطئ، في الأرض، والخطيئة، وما بين الظّالم والظّلم، وما بين الفاسد والفساد!. نمجّ هذا ونتمسّك بذاك!. الخلق كلّهم عيال اللّه، واللّه يغار على خلاصهم أجمعين!. إذ ذاك، يتسنّى لنا أن نتمّم الوصيّة: "أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، صلّوا لأجل الّذين يسيئون إليكم ويطردونكم"!.

كلّ إنسان، يا صاحبي، ظالم مظلوم، ظلمته خطيئة العالم ويظلم الآخرين لأنّه لم ينشأ على المحبّة!. وراء خطيئة كلّ إنسان "دراما"، من أجلها تجسّد

ابن اللّه، واقتبل الصّلب والموت!. مَن كان منكم بلا خطيئة، فليرمها (المرأة الخاطئة) بحجرا!. ولا أنا أدينكِ!. دونك قاعدةَ حياةٍ، لا تنسَها: مَن يحسّ بخطيئته، يرحم الخطأة، مهما كانت خطيئتهم. ومَن لا يرحم الخطأة، فلا يحسّ بخطاياه، ولا يعرف نفسه!. كان، إذ ذاك، في أسوأ حال!. هذا يعيش في خطيئته، ويموت في خطيئته!. أمّا السّماح، فباب الخلاص!. " لا تدينوا، لكي لا تدانوا"!. "واترك لنا ما علينا، كما نترك نحن لمَن لنا عليه"!.

تريد، يا صاحبي، أن تكون ثائرًا للحقّ وفي الحقّ؟. ثُر على نفسك أوّلاً!. لا تعنف في وجه الظّلمة!. هذا لا ينفعك، ولا ينفع النّاس في شيء!. "فشّة الخلق" لا تؤول، في النّهاية، إلى شيء!. يكفيك، إن حكّمت قلبك، أن تضيء شمعةً، لتشهد للملكوت الآتي!. وجودنا شهادةٌ للّه، الباقي ربّك يصنعه!. الشّيطان أمير هذا العالم، فاشهد، ولو لزم حتّى الموت!. هذا نصيبُك، إن أردت أن تصير جديدًا إلى حياة أبديّة!.

كان الأب الياس مثل هذا الثّائر في الحقّ! هو أبو الرّهبنة الحديثة، عندنا، في أنطاكية!. وهو الّذي قعد وحده في عتمة العالم سنين!. لم يبالِ بأمجاد النّاس، على الرّغم ممّا كان موفورًا له منها!. أقام في الفقر عن إرادة، على شبه معلّمه!. لم يهتمّ بتغيير العالم، لأنّ هذا باطل. اهتمّ بتغيير نفسه بالنّعمة والتّوبة، ليمدّ بجسده خلاص إلهه!. جاهد ليحفظ عفّة نفسه، ما يزيد على الخمسين عامًا!. سلك في الطّاعة، في ضميره، لربّه، في كلّ إنسان!. ثمّ ثبت في الصّبر على آلام كثيرة!. وأخيرًا، تعلّم الاتّضاع؛ ففاضت أنهار ماء المحبّة الحيّة

في كيانه، فعمل على إشباع العطاش ريًّا، ومن ثمّ سكب دموعه الّتي من فوق على كلّ عطِش، وجائع، وعريان، ومظلوم، وشريد، علّهم يهتدون! قدّم نفسه قدوةً لنا!. وقد حفظ نفسه إلى المنتهى، بنعمة اللّه. لذا، أضحى كاروزًا للثّورة الحقّ الوحيدة، في كلّ العالم، إلى سنين كثيرة!.

... لتستمرّ القصّة!...

الأحد ٢٢ كانون الأوّل ٢٠١٩

الأب الياس مرقص
التماعات أنطاكيّة
من الميلاد إلى الميلاد!

أبانا الياس،

بارِك

سلام، وإن كنتُ لا أعرف كيف أخاطبك!.

أمّا بعد، فأسألك أن تسامحني، إن كنتُ قد قصّرتُ، أو استفضتُ، أو بالغتُ! أنا لا أعرف كما أنت، الآن، تعرف!. لذلك، اقبلني، كما اعتدتَ أن تقتبلني!. أنتَ تعلم أنّي أودّك!.

حاولتُ كتابتَك، اليوم، بشيء من الجهد؛ فوجدتُني أكتبني، والكلام يغادرني، ألتقطه ثمّ يغادرني، من جديد، فقلتُ: كفى!.

طيلة هذه الأشهر، منذ ما بعد عيد ميلادك السّابق في الجسد، في ٥ أيّار الفائت، ألفيتُني على لا مسافة منك؛ فكتبتُ كما لم أكتب منذ أن جعلتُ قلمًا على ورق، لأخطّ بمداد ما في جعبتي!. أوّل الدّرب كان إحساسًا عميقًا مميّزًا بأن أقولك!. وآخر الدّرب، اليوم، أنّ الكلام فيك بدأ يغادرني!. في الأوّل، أخذت الكلمات تنساب كما من لا مكان. وفي الآخِر، لم يعد عندي

ما أقوله، في السّياق الحاصل، سوى أمرين كأنّهما خلاصة السّيرة. في مطلع الكلام، قلتُ قولة سِفر التّكوين بشأن آدم: "ملعونة الأرض بسببك. بالتّعب تأكل منها كلّ أيّام حياتك... حتّى تعود إلى الأرض الّتي أُخِذْتَ منها". وفي خاتمته: وكان الأب الياس بَرَكَةَ آدم الجديد لنا...

لا أقسى من أن يجلس المرء، يا أبتي، ليكتب، وليست في ذهنه أفكار وكلمات!. هذا شيء من غباء!. ولكن، هذا، بالذّات، ما حصل لي، وما فعلتُه على مدى هذه المقالات الثّلاث والثّلاثين!. الحِسّ في القلب كان هادِيًا!. والكلمات والأفكار كانت تتبع!. تكرّ كرًّا، كما من الرّوح الواحد عينه!. أحيانًا، بشيء من مخاض؛ وأحيانًا أخرى، من دون مخاض! تارةً في اللّيل، وتارةً في النّهار! والكلمات، غالبًا، تترقرق بهيّةً، على نحوٍ عجيب!. أهذا من خيالي؟ لا أظنّ!. لذا، كثيرًا ما اكتشفتُكَ بعدما كتبتك!.

رَسَخْتَ، في نفسي، يا أبانا، إلى حين رقادك، إنسانًا حبيبًا، أبًا راعيًا، صديقًا صدوقًا. واليوم، أطالعكَ جديدًا، كيانًا فريدًا!. هذا ما يجعلني مقتنعًا بأنّ ما كتبتُه كان، بالأحرى، منك، ولو عجزتُ، أحيانًا، عن التّمييز بين ما هو لك وما هو لي، ما هو منّي وما هو منك! كتبتُكَ كمَن يكتب خاصّته، نفسَه!. وليس في ذلك عجبًا، لأنّ ما زرعتَه فيّ، على مدى السّنين، صار هو إيّاي!. أتيتُك فارغ الوِفاض!. لم أكن أعرف من الكنيسة شيئًا!. فقط، كنتُ أخاف اللّه!. لذلك، تعلّمتُكَ!. أوليس أنّ ما لمسيح الرّبّ يُؤخَذ بالقدوة؟. "اقتدوا بي كما أنا أيضًا بالمسيح"، على قولة بولس الرّسول؟. بِتَّ مرجعي، في الكثير

ممّا اعتدتُ أن أفعله وأقوله وأقفه! من شجرتك، بنعمة اللّه، نَمَوْتُ، يا أبانا!

أنا مُدرِكٌ، يا شيخ الأحبّة، أنّي، في مواضعَ، تجرّأتُ!. قلتُ ما هو أكبر منّي! لكنّك كثيراً ما تركتني، في سيرتي معك، أجمح، وكنتَ تستوعبني! صبرك عليّ ثبّتني! لولا ذلك لَتُهتُ! صبرك كان أرحب من ضجيجي! اعتدتَ أن تترك النّاس يكبرون على سجيّتهم! همّك كان أن تجعلهم يمسكون بمسيحك، ولا يُخلونه، أو، بالأحرى، أن يمسكهم مسيحُك، بك، والباقي تفاصيل!.

رِضاك، يا أبانا الياس!. أنا لا أستحقّك!. لذا، أسألك أن تسأل رِضى السّيّد عنّي، وعن أهل الدّير، وأنطاكية المحبوبة!. اليوم، بِتُّ إليه أدنى!.

في المسيح
ابنُكَ توما

الأحد ٢٩ كانون الأوّل ٢٠١٩

الفهرس

المقدّمة للمتروبوليت سلوان (موسي)	٥
مدخل للأرشمندريت يوسف (عبدالله)	٢٥
تقديم للأمّ مريم (زكّا)	٢٨
تمهيد للأرشمندريت توما (بيطار)	٣٤
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١)	٣٧
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢)	٤٣
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٣)	٤٩
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٤)	٥٤
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٥)	٥٩
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٦)	٦٥
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٧)	٧١
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٨)	٧٧
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٩)	٨٣
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٠)	٨٩
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١١)	٩٥

الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٢) ١٠٢
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٣) ١٠٨
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٤) ١١٤
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (محطّة) ١٢٠
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٥) ١٢٨
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٦) ١٣٥
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٧) ١٤١
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٨) ١٤٩
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (١٩) ... ويرتحلون، الأحبّة! ١٥٧
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٠) ١٦٣
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢١) ١٧١
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٢) ١٧٨
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٣) ١٨٧
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٤) ١٩٤
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٥) ٢٠١
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٦) ٢٠٧
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٧) ٢١٥

الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٨) ٢٢٢
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٢٩) ٢٢٩
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٣٠) ٢٣٥
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، (٣١) ٢٤٢
الأب الياس مرقص، التماعات أنطاكيّة، من الميلاد إلى الميلاد! ٢٥٣
الفهرس ٢٥٦

... وتبقى يمينه لإعطاء البَرَكَة!.

مطبعة الينبوع

٠١/ ٢٥٠٧٣٦

منشورات

دير القدّيس يوحنّا المعمدان
دوما – البترون
لبنان

دير القدّيس جاورجيوس
دير الحرف – رأس المتن
لبنان

حقوق الطّبع محفوظة لدَيرَي
القدّيس جاوجيوس والقدّيس يوحنّا المعمدان